الجزء الرابع

الاستثناء

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثانى عشر

أمريكا المختلفة

فى القسم الأخير من هذا الكتاب سنتطرق إلى موضوع الاستثنائية الأمريكية. فلماذا تبرز صورة أمريكا كنشاز بين الدول الغنية؟ لماذا تثير أمريكا هذا الكم من الغضب والغيظ بين حلفائها السابقين؟ وما الدور الذى تلعبه حركة المحافظين فى تضخيم استثنائية أمريكا؟ إن حكاية «أمة اليمين» داخل أمريكا جزء من حكاية أهم. وهذه حكاية السبب الذى يجعل أمريكا نفسها أمة اليمين.

يمكن التعرف على الفروق بين أمريكا وحلفائها فى عدد كبير من المجالات، من السياسة الخارجية إلى الجريمة والعقاب، ومن الضمان الاجتماعى إلى الحرب على الإرهاب؛ وازدادت هذه الفروق وضوحًا منذ نهاية الحرب الباردة. وهى ليست فروق فى السياسات. فاستثنائية الحالة الأمريكية تقوم على مزيج متفجر من شيئين: اختلاف القيم الأساسية التى يعود العديد منها إلى قرون مضت، وقوة اليمين الأمريكى السياسية. فموقف أمريكا من معظم القضايا يقع إلى يمين مواقف سائر الدول الغنية. ونجحت حركة المحافظين مرة أخرى فى تضخيم المزيد من هذه الفروق.

القوة العظمى فى وجهك

إلى أى مدى تصل استثنائية أمريكا؟ قبل الإجابة على هذا السؤال علينا أن نوجه تحذيرين، الأول أن الولايات المتحدة تضم ملايين من الناس يؤثرون الموت على التصويت لصالح الجمهوريين. وهناك كثرة من الأمريكيين من ذوى المكانة ـ لاسيما

فى أماكن مثل مانهاتن وسان فرانسيسكو ولوس أنچيليس ـ يفاخرون بأنهم لا يقلون ليبرالية عن أقرانهم فى أوروپا . فصحيفة نيويورك تايمز تجنح غالبًا نحو اليسار كصحيفة جارديان الإنجليزية أو لوموند الفرنسية . وحقق New York Review of Books رواجًا فى أوروپا فى سنة ٢٠٠٣م بسبب صورة هزلية لچورچ بوش الابن فى ثوب إمبراطور رومانى وبجواره شعار يقول «هناك أمريكا أخرى ولا بد أن نصغى لها» . كما يمكن أن تبدو أمريكا أحيانًا أكثر ليبرالية من أوروپا . فالمرأة الأمريكية تستطيع أن تجرى عملية إجهاض عادية حتى الأسبوع السادس والعشرين من حملها (الحد الأقصى فى العديد من دول أوروپا اثنا عشر أسبوعًا) . وفى سنة ٢٠٠٣م عينت الكنيسة الأسقفية الأمريكية فى نيوهامپشاير أسقفًا من الشواذ هو چين روبنسون فى حين نكصت شقيقتها الأنجليكانية فى إنجلترا عن ذلك فى التوقيت نفسه . وهناك ولاية شمالية شرقية أخرى هى ڤيرمونت كانت أول مكان فى العالم يوافق على عقد زيجة بين شواذ فى سنة ٢٠٠٠م .

والتحذير الثانى ، وجود كثرة من الناس يتصورون أن أوروپا وأمريكا تتقاربان . ففى خلال السنوات الخمسين الماضية ، تقاربت مستويات المعيشة وتشابهت المحلات والإدارات والمصانع . ويبلغ حجم التجارة بين أوروپا وأمريكا حاليًا أربعمائة مليار دولار فى السنة . والأهم أن الأوروپيين تخلوا إلى حد بعيد عن الاشتراكية وسدوا بذلك الفجوة بين النظامين السياسيين . وحتى وقت قريب فى سنة ١٩٨١م ، استولت حكومة فرانسوا ميتران الاشتراكية على مصارف فرنسا وعلى عدد من شركاتها الصناعية الكبرى ، وزادت الإنفاق الاجتماعى وقلصت الوقت الذى يتحتم على الناس قضاءه فى العمل وعينت مائة ألف آخرين فى وظائف حكومية .[1] أما اليوم ، فالجدل يدور فى پاريس حول المدى الذى ينبغى أن تتم به أمركة الاقتصاد الفرنسى . وينطبق ذلك على السياسة الخارجية أيضًا . فكانت أمريكا إبان الحرب الباردة تواجه قوة عظمى شيوعية منافسة ودولاً تدور فى فلكها . وكان تواجه حركات احتجاج هائلة بسبب ڤيتنام ونشر الصواريخ عابرة القارات . وعلى الرغم من الغضب الشديد بسبب العراق فإن معظم الدول حاليًا تسعد بالانضواء تحت قيادة أمريكا . فعندما أقدم چورچ بوش الابن على إلغاء «معاهدة الصواريخ البالستية المضادة» وافقت كل من روسيا والصين .

ولأمريكا سبع وخمسون قاعدة عسكرية خارج حدودها وكلها بموافقة حلفائها. وكما قال بوش لحلفائه فى پراج فى سنة ٢٠٠٢م: «هناك قيم تجمعنا، إنها قيم الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية».[٢]

ويذهب المتفائلون عبر الأطلنطى إلى أن أمريكا لا تزال بلدًا يحظى بالإعجاب ويريد الكثير من الناس محاكاته. وهو أمر يمكن قياسه بمن يتكالبون على نيل الجنسية الأمريكية ومن يصطفون لمشاهدة الأفلام الأمريكية أو شراء المنتجات الأمريكية ومن خلال استطلاعات الرأى. فهناك على سبيل المثال استطلاع أجراه «مركز پيو للأبحاث» فى سنة ٢٠٠٣م، بين أن أغلبية الناس فى إحدى وعشرين دولة من مجموع أربع وأربعين لا يزالون ينظرون بإيجابية إلى الشعب الأمريكى. وبين الاستطلاع نفسه أن معظم حلفاء أمريكا يؤيدون الحرب على الإرهاب ومعجبون بالعديد من القيم التى تنادى بها أمريكا كالعولمة وحرية السوق والديمقراطية، وأنهم جميعًا كانوا سيشعرون بدرجة أقل من الأمان لو وجدت قوة عظمى أخرى تنافسها.[٣] وفى ظل كل هذه العوامل المشتركة ومواطن الإعجاب المتبادلة، يؤكد المتفائلون أن المصاعب الراهنة ستمر كما مرت المصاعب حول السويس والصواريخ عابرة القارات من قبل.

المشكلة فى هذه الآراء أنها تمط بعض الحقائق وتغالى فيها وتتجاهل حقائق أخرى. فاستطلاع پيو نفسه الذى يبين أن معظم الأجانب ينظرون بعين الإعجاب إلى الشعب الأمريكى والقيم الأمريكية، يبين أيضًا أن الآراء الإيجابية تجاه أمريكا ككل تناقصت فى كل من البلدان التى توفرت عنها بيانات تاريخية. ففى خمس عشرة دولة تم مسحها فى يونيه ٢٠٠٣م، انخفضت الآراء الإيجابية تجاه أمريكا ما بين خمس عشرة إلى عشرين نقطة عما كانت عليه فى سنة ٢٠٠٠. فثلاثة أرباع سكان فرنسا (٧٦٪) وأغلبية كبيرة فى تركيا (٦٢٪) وإسپانيا (٦٢٪) وإيطاليا (٦١٪) وألمانيا (٥٧٪) يعتقدون أن أوروپا يجب أن تكون لها علاقات أكثر استقلالاً بالولايات المتحدة فى مجالى الديپلوماسية والأمن.[٤] وبين مسح آخر أجرى فى سنة ٢٠٠٣م أن ٦٤٪ من الأوروپيين (منهم ٨١٪ من الألمان و٨٢٪ من الفرنسيين) يعارضون معالجة بوش للسياسة الخارجية. ووافق ٨٣٪ من الأمريكيين و٧٩٪ من الأوروپيين على تباين القيم الاجتماعية والثقافية بين الأوروپيين والأمريكيين.[٥] ومن ذا الذى كان يصدق أن

واحدًا من كل خمسة ألمان سيقول لصحيفة دى تزايت [الوقت] بعد أحداث ١١ سبتمبر بسنتين أن الحكومة الأمريكية ربما كانت وراء هذا العمل الشنيع؟[٦]

هناك أشياء عديدة تعجب غير الأمريكيين فى أمريكا بالطبع؛ وچاك شيراك أقل من چوزيف ستالين كنقيض أيديولوچى بالطبع. لكن نهاية الحرب الباردة لم تكن نهاية التاريخ. وأتاحت هزيمة الاتحاد السوڤييتى لكل من جانبى شاطىء الأطلنطى فرصة لدراسة حلفائه السابقين فى ضوء جديد، وأيقظت أحاديث عن أوجه الخلاف ونقاط التشابه. إنهما كقريبين لا يعرف أحدهما الآخر، يصرعان تمساحًا ثم يخرجان لتناول الطعام ابتهاجًا ليكتشفا ألا شىء يجمع بينهما كما كانا يتصوران. إن مشكلة القيم المشتركة التى هلل لها چورچ بوش الابن فى پراج ـ «الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية» ـ أنها تتسم بالغموض. فإذا طبقناها على الشرق الأوسط مثلاً أو معاملة الفقراء سنجد أن الأوروپيين والأمريكيين سيتوصلون لنتائج مختلفة تمامًا.

ومن هذا المنظور، فالتقارب الاقتصادى العام نعمة ذات حدين. فكلما تقاربت أمريكا وأوروپا اقتصاديًا وتجاريًا كلما أدركا مدى الاختلاف بينهما فى القيم الأعمق. فأمريكا تختلف عن أوروپا فى العديد من قضايا الحياة، كالوطنية والعدالة الجنائية والتدين، والأدهى أن أمريكا المحافظة فخورة بهذه الاختلافات. وأمريكا المختلفة هذه أكثر حزمًا فى اللجوء للقوة فى الخارج والعقاب الصارم فى الداخل. وهى أمضى عزمًا فى العمل والمجازفة. وهى أقل استعدادًا للسماح للدولة بحل مشكلات المجتمع. وچورچ بوش الابن ليس من خلق هذه الاختلافات بالطبع؛ بل تمتد جذورها فى أعماق التاريخ الأمريكى كما سنرى فى الفصل التالى. إلا أن الاختلافات تتحول إلى شىء بغيض فى عيون غير الأمريكيين، لأن أمريكا فجأة هى القوة العظمى التى تقفز فى وجهك.

وبفضل تسارع خطى العولمة، لم تعد أمريكا مجرد «القوة التى لا غنى عنها» كما وصفتها مادلين أولبرايت فى سنة ١٩٩٨م، بل «القوة التى لا مفر منها».[٧] ذات مرة قال توماس چيفرسون: «لكل إنسان بلدان، بلده وفرنسا». واليوم لكل إنسان بلدان، بلده وأمريكا. فالثقافة الأمريكية كلية الوجود لدرجة أن كل إنسان يحوى فى داخله أمريكيًا افتراضيًا مدفونًا فى أعماق عقله. والقوة الأمريكية طاغية لدرجة أن الناس فى

كل مكان يراقبون ساسة أمريكا كما يراقبون ساستهم. ويواكب هذه الألفة شعور متنام بالعجز. فالناس فى كل مكان فى العالم يشعرون بأنهم من مواطنى الولايات المتحدة بمعنى أنهم مشاركون فى ثقافتها وفى سياستها. فيشاهدون بوش وشركاه يتخذون كافة أنواع القرارات بصدد قضايا يحسونها. إلا أن بوش وشركاه ليسوا مسئولين أمام هؤلاء من غير الأمريكيين؛ بل يعاملونهم بازدراء. ولا غرو أن كانت العبارة الثابتة لدى المعترضين على حرب العراق «من حقنا أن نُسمع».

ويفاقم من هذا الشعور إحساس متنام لدى أمريكا بالثقة فى النفس - أو الغطرسة كما يسميها الأوروبيون. فكان جيل ما بعد الحرب من القادة الأمريكيين، أى جيل بريسكوت بوش، لا يزال يشعر بالرهبة أمام أوروبا لا سيما بريطانيا. ولما كانوا أنجلو ساكسون بالأصل ومحبين لإنجلترا بالميول، فإنهم كادوا يوافقون هارولد ماكميلان حين قال إن إنجلترا بحاجة لأن تلعب دور اليونان بالنسبة لروما أمريكا. كما كانوا على قدر من الحساسية تجاه الفخار القومى لدى الأوروبيين، فبذلوا كل جهد ممكن لحجب القوة الأمريكية (ولا شىء أكثر من الحجب تحاشيًا لأى لبس) فى إطار مؤسسات متعددة الأطراف. لكن قوم بوش ليست لديهم هذه الحساسيات. فكثير منهم، كما رأينا، آتون من ولايات الجنوب لا من الشمال الشرقى الأكثر «أوروبية». وهم يعتبرون فرنسا وألمانيا دولتين أصابهما التيبس، وهو حكم مسبق ورد فى أحاديث دونالد رامسفيلد الجانبية عن «أوروبا العجوز». وهم يرون فكرة لعب أوروبا دور اليونان بالنسبة لروما أمريكا كمزيج من الهراء. وبدلاً من الرغبة فى دفع أمريكا فى اتجاه أوروبا يريد بوش دفع أمريكا - والعالم - إلى ما لا شك أنه يعتبره اتجاهًا أمريكيًا.

هذه الاختلافات برزت مرارًا فى هذا الكتاب. وحان الوقت لأن نحفر قليلاً وراءها. وسننظر إلى استثنائية أمريكا فى خمسة مجالات كبرى: السياسة الخارجية، والجريمة والعقاب، وأبعاد الدولة، والرأسمالية وانعدام المساواة، والإجهاض والتدين.

مختلفة وفخورة بذلك

عندما يفكر الأوروبيون فى استثنائية أمريكا، فإن أول ما يتبادر إلى أذهانهم السياسة الخارجية الأمريكية. والحقيقة أن وصف ديبلوماسية جورج بوش الابن (التى سبق أن

ناقشناها فى الفصل الثامن) باليمينية البحتة أصعب من وصف موقفه من بعض القضايا الداخلية. فحين تولى السلطة اتهمه الأوروبيون بالانعزالية؛ والآن يخشون أن يكون إمبرياليًا. لكن هناك شيئان يبرزان من هذا التشوش. الأول أن أمريكا أقل عرضة لاقتسام السلطة من سائر الدول؛ والآخر أن اليمين أبدى رد فعله تجاه حدثين كارثيين - نهاية الحرب الباردة و١١ سبتمبر - بإضفاء مسحة انفرادية تمامًا على السياسة الخارجية الأمريكية.

يعد من أبرز الأمثلة على استثنائية أمريكا ذو صلة بالسياسات تجاه مناطق بعينها أو دول. فما من دولة غيرها تدعم إسرائيل بهذا العناد أو تدين كوبا بهذا الشكل المطلق. ويقول نقاد أمريكا أن هذه المواقف لها صلة بجماعات الضغط الداخلية أكثر من صلتها بالمبدأ؛ إلا أن العديد من الأمريكيين يرون غير ذلك. فإسرائيل - أكثر القضايا الخارجية إثارة للجدل - صارت قضية عاطفية بالنسبة لليمين، بل بالنسبة للشعب الأمريكى ككل. ففى مايو ٢٠٠٢م، تم تمرير قرارت لصالح إسرائيل - تشمل ٢٠٠ مليون دولار للجيش الإسرائيلى - فى مجلس النواب بأغلبية ٣٥٢ صوتًا فى مقابل اعتراض ٢١ وفى مجلس الشيوخ بأغلبية ٩٤ صوتًا فى مقابل اعتراض اثنين، وكان المعترضون كلهم تقريبًا من الديمقراطيين.[٨] وتبين استطلاعات الرأى أن الأمريكيين يدعمون إسرائيل بنسب تساوى دعم غير الأمريكيين للفلسطينيين؛ بل إن دعم السياسات المتشددة أعلى فى أمريكا منه فى إسرائيل نفسها. فما من زعيم فى العالم بأسره كان ليصف أرييل شارون بـ «رجل سلام» سوى جورج بوش الابن.[٩]

مع ذلك فاستثنائية أمريكا تقوم على موقفها من النظام متعدد الأطراف. ومرة أخرى فأنصار التوافق بين شاطئى الأطلنطى محقون. فمن الناحية التاريخية، يمكن لأمريكا أن تزعم أنها أكثر قوة عظمى نزوعًا نحو تعددية الأطراف فى التاريخ؛ ففى السنوات الخمسين الماضية سلمت السلطة للتنظيمات الدولية على نطاق لا يمكن تصوره بالنسبة لإنجلترا القرن التاسع عشر أو إسبانيا القرن السادس عشر. ومع ذلك فالحقيقة الواضحة هى أنه ما من دولة أخرى لها ما لأمريكا من مشكلات عديدة مع المعاهدات الدولية. وهذه مسألة إجرائية فى جزء منها؛ فالمعاهدات تتطلب التصديق بتصويت ثلثى مجلس الشيوخ، وتظل خاضعة للقانون الداخلى بمقتضى الدستور. إلا أنها تعكس النزوع الأمريكى نحو الشك فى الداعى لمثل هذه الشراك فى عالم القطب الواحد.

ونزعة الشك تسبق چورچ بوش الابن. وينسى نقاده غالبًا أن مجلس الشيوخ رفض معاهدة كيوتو فى تصويت بالإجماع فى سنة ١٩٩٧م، وأن بيل كلينتون لم يفعل شيئًا تقريبًا لدفع أمريكا نحو معاهدة ارتفاع حرارة الأرض. ومع ذلك فنزعة تعددية الأطراف تتسم بعدوانية خاصة لدى بوش. إذ تم التخلص من معاهدة كيوتو دون اعتذار ظاهرى كما فعل كلينتون؛ فتم إعلان «وفاتها». وبذل البيت الأبيض جهودًا مضنية ضد إنشاء «محكمة جنائية دولية» ورفض بنودًا من «اتفاقية الأسلحة البيولوچية» وأبى أن يؤيد «معاهدة حظر التجارب الشامل» و«اتفاقية أوتاوا للألغام الأرضية». ولبناء منظومة دفاعها الصاروخى القومى مزقت «معاهدة الصواريخ البالستية المضادة» بأسرع ما أمكنها وسعت لإقناع ڤلاديمير پوتين بقبول «اتفاق شرف» حول الأسلحة النووية قبل الانضمام لمعاهدة رسمية.[١٠]

وجاءت الحرب على الإرهاب لتغالى فى استثنائية أمريكا أكثر وأكثر. فأمريكا هوجمت فى الحادى عشر من سپتمبر؛ وأوروپا لم تهاجم. أمريكا تخوض «حربًا على الإرهاب». ومع أن العديد من الأوروپيين استشهدوا بالبند الخامس من ميثاق حلف شمال الأطلنطى (الذى ينص على أن أى هجوم على أحد أعضائه يعد هجومًا على الأعضاء جميعًا) فإنهم لم يحددوا ما إذا كانت «الحرب» أكثر من مجرد تعبير مجازى. وأمريكا ترى الأمر كصراع بين الخير والشر. ويرفض كثير من الأوروپيين هذه المصطلحات «التبسيطية». يقول أحد الخبراء الفرنسيين: «نحن نعايش معركة التائبين: بوش المسيحى المولود من جديد وبن لادن المسلم التائب».[١١] وكما بين الجدل حول العراق فالحرب على الإرهاب دفعت أمريكا نحو سياسة وقائية بدلاً من سياسة الاحتواء والردع التى يؤثرها حلفاؤها. وحتى لو كان بوش وورثته يرفضون الآراء الإمپريالية الأخلاقية للمحافظين الجدد، والتى سبق أن ناقشناها فى الفصل الثامن، فإن أمريكا تود صراحةً أن تكون المهيمن الأوحد الأقوى من أية قوة أخرى. حتى هوارد دين المرشح «الليبرالى» الكبير المعادى للحرب، فاخر باستعداده «لإرسال قوات إلى أى مكان وفى أى وقت» ولام بوش على معاملة السعوديين بهذه الرقة.[١٢]

إذن فسياسة أمريكا الخارجية استثنائية، ويحتمل أن تظل كذلك لثلاثة أسباب جوهرية هى القوة والسكان والوطنية. فأمريكا من حيث القوة هى الدولة الوحيدة التى

تستطيع أن تستعرض قوتها العسكرية عالميّا. والفرنسيون والمحافظون الجدد كلاهما على حق فى اعتبار أن «قوة عظمى» كلمة أضعف من أن تدل على هيمنة أمريكا الراهنة. فبريطانيا فى أوج قوتها ربما كانت فى قوة الدولتين التاليتين لها مجتمعتين. وأمريكا اليوم فى قوة الدول العشرين التالية لها مجتمعة. فأمريكا تنفق ٤٠ ٪ من إجمالى الإنفاق العسكرى للعالم. وإجمالى إنفاق الاتحاد الأوروبى على المعدات العسكرية قد لا يزيد عن نصف نظيره الأمريكى؛ وحوالى الربع فى مجال البحث والتطوير.(١٣)

تراجعت إدارة كلينتون أمام خوف الأوروبيين من وجود شىء خطأ فى درجة تفوق أمريكا. فلم يعترضوا على محاولة أوروبا والأمم المتحدة لجم جاليفر. وسرعان ما تهاوت هذه الإستراتيجية. فأدركت أمريكا أن النزعة التعددية الأوروبية لم تتمكن من التعامل مع البلقان. وقد تكون للاتحاد الأوروبى ذات يوم سياسة خارجية موحدة ـ أو أجزاء من سياسة خارجية موحدة ـ إلا إنه ليست له مثل هذه السياسة حاليّا، بدليل فشل فرنسا وألمانيا وبريطانيا فى صوغ سياسة موحدة تجاه العراق بسبب الخلافات العميقة، أو حتى تجاه إسرائيل؛ حيث لا يستطيعون ترجمة اتفاقاتهم الضمنية إلى إستراتيجية موحدة. وذات يوم ستصبح الصين منافسًا لأمريكا، أما الآن فموازنتها العسكرية الرسمية كلها تقل عن الزيادة السنوية لمثيلتها الأمريكية.

القوة العسكرية ليست كل شىء. ففى كدحها لإعادة إعمار العراق، تعيد أمريكا اكتشاف أهمية الحلفاء و«القوة الناعمة» معًا. (يقول أحد وزراء الخارجية الأوروبيين: «حتى لو كانت أمريكا أكبر مطرقة فليست كل مشكلة مسمارًا»). لكن تفوق أمريكا فى القوة الخشنة معناه حتمية دعوتها للتعامل مع الدول المقصرة (لا سيما حين ترتبط بشبكات إرهابية). معناه أن أمريكا لا مفر من أن تمثل دور الحكَم فى النزاعات المتعسرة (كالشرق الأوسط) أو أسوأ الأزمات الإنسانية. معناه أن أمريكا لا بد أن لها اعتبارات تختلف عن اعتبارات القوى الأخرى. وكما يشير روبرت كاجان فى كتابه «عن الجنة والقوة ـ Of Paradise and Power» فالقوى الصغرى تلتمس الحماية دائمًا فى القواعد الدولية بينما تقلق القوى الكبرى دومًا من قيود هذه القواعد؛ ففى القرن الثامن عشر، كانت الولايات المتحدة هى التى أرادت تطبيق القانون الدولى على أعالى البحار وكان

أسطول بريطانيا «سيدة البحار» هو الذى يعترض.[١٤] وفى المستقبل القريب ستكون أمريكا شرطى العالم - والشرطيون لا يعرف عنهم رؤية العالم بعيون ليبرالية. والأمريكيون أكثر ميلاً من الأوروبيين للسعى إلى حلول عسكرية للمشكلات. ويوافق ٥٥ ٪ من الأمريكيين على أن الحرب أحيانًا تكون ضرورة لتحقيق العدالة؛ وهذا الرقم لا يزيد فى أوروبا عن ١٨ ٪.[١٥]

والسبب الثانى لبقاء أمريكا استثنائية هو السكان. فيروى عن بنيامين فرانكلين أنه قال فى ثمانينيات القرن الثامن عشر: «إن الزيادة السكانية بالتوالد الطبيعى سريعة للغاية فى أمريكا، وهى أسرع نتيجة لتكاثر الغرباء». وهى مقولة تصدق اليوم أيضًا. فربما كانت أمريكا الدولة المتقدمة الوحيدة التى تضم سكانًا شبابًا وفى نمو. ويبين أحدث الإحصاءات أن الهجرة تنمو بشكل أسرع مما تخيل الناس وأن معدلات المواليد فى أمريكا مرتفعة. وفى ظل استمرار المعدلات الحالية؛ فإن سكان أمريكا سيرتفع تعدادهم من ٢٨٠ مليون إلى ما بين ٣٥٠ و٤٠٠ مليون نسمة فى خلال السنوات الخمس والعشرين القادمة، أو إلى ما بين ٤٠٠ إلى ٥٥٠ مليون نسمة فى سنة ٢٠٥٠م. ويبدو أن السكان فى أوروبا الغربية يتناقصون، بل وبصورة حادة فى بعض المناطق. وفى إستونيا، وصل الأمر برئيس الوزراء إلى حد أن ناشد مواطنيه أن تكاثروا بشكل أكبر. ولهذا الخلل فى التوازن تأثير هائل على السياسة الخارجية. فلا بد لأمريكا أن تركز على الدول التى تمدها بأكبر عدد من مهاجريها - المكسيك وبقية أمريكا اللاتينية بدلاً من أوروبا العجوز. والأهم أن أمريكا التى سيظل متوسط السن بين سكانها ٣٥ سنة طوال نصف القرن المقبل مجبرة أن تظل أكثر «شبابًا» فى موقفها من العالم من أوروبا التى سيقفز متوسط سن السكان فيها من ٣٨ إلى ٥٣، ومن اليابان؛ حيث سيرتفع متوسط سن السكان فيها من ٤١ إلى ٥٣.[١٦] وسيضطر الأوروبيون واليابانيون لتوجيه المزيد من مواردهم للمسنين. كما أنهم سيجدون ثقافاتهم يسودها أناس خاملون ينفرون من المجازفة.

وآخر الأسباب التى تجعل من المقدر لأمريكا أن تختلف عن أوروبا (ولكن ليس عن اليابان أو الصين) ما له صلة بالوطنية. بدأ الأوروبيون تجربة كبرى لتفكيك هوياتهم القومية فى دولة كبرى أوروبية واحدة، وهو أمر مفهوم نظرًا لأن الحروب القومية

دمرت أوروبا مرارًا عبر القرون القليلة الماضية. وأمريكا لا تراودها مثل هذه المخاوف على هويتها القومية. بل إن كثيرًا من المصاعب التى تواجه مع الاتحاد الأوروبى تنجم عن تسليم الأمريكيين جدلاً بأن الاتحاد الأوروبى ليس سوى وحدة اقتصادية. وبروكسل فى نظر واشنطن مكان تذهب إليه لتناقش شئون التجارة لا السياسة الخارجية. وليس بوسع الأمريكيين أن يفهموا أسباب عدم السماح بانضمام تركيا كما «سمحت» أمريكا بانضمام المكسيك «لاتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية».

إن الوطنية الأمريكية متأصلة. وما من دولة متقدمة غيرها تستعرض علَمها بهذا الشكل المفرط أو تنشد نشيدها الوطنى بهذه الكثرة. والمسألة ليست مجرد فخر بالبلاد (ولو أن نسبة من يفخرون بها ـ ٨٠٪ ـ أعلى من مثيلتها بدول أوروبا الغربية)؛[١٧] إذ يرى ستة من كل عشرة أمريكيين أن الثقافة الأمريكية متفوقة على سائر الثقافات فى مقابل ثلاثة من كل عشرة فرنسيين وأربعة من كل عشرة إنجليز وألمان.[١٨] ويباهى برنار ـ هنرى ليڤى وهو أشهر مثقفى فرنسا بتزايد عدد مواطنيه القادرين على أن يقولوا «أنا لم أعد فرنسيًا بل أنا أوروبى من أصل فرنسى».[١٩] فى حين أن الأمريكى الذى يتخلى عن قوميته يجد صعوبة فى العودة إلى بلده.

وإشعال هذا الحس الوطنى من السمات المميزة لليمين؛ فمنذ ١١ سبتمبر لم يظهر أى من أعضاء إدارة بوش على شاشة التليفزيون بدون دبوس بعلَم أمريكا فى عروة ستراتهم. ولكن حتى لو عاد الديمقراطيون إلى البيت الأبيض، لا ينبغى أن نتوقع أن تبدأ أمريكا فى توقيع المعاهدات والتنازل عن سيادتها. فيمكنك أن تجادل فى درجات الاستثنائية، لكن رؤية أمريكا للعالم ستظل مختلفة إلى حد بعيد عن غيرها فى المستقبل المنظور.

العقاب الصالح

فى عالم الديپلوماسية، يصعب أحيانًا وصف السياسات بأنها يمينية صرفة أو يسارية بحتة. ليس هناك مشكلات من هذا النوع فى الجريمة والعقاب. وبفضل اتباع جدول أعمال محافظ فى القانون والنظام، ضاعفت أمريكا معدل الحبس أربع مرات فى خلال ثلاثين سنة. وأصبح لديها حاليًا سبعمائة من كل مائة ألف من الناس فى السجون، أى بمعدل خمسة أمثال النسبة فى بريطانيا التى تعد الأقسى فى العقوبات فى

غرب أوروبا . وهناك أمريكى واحد من كل عشرين دخل السجن، وواحد من كل ثمانية حُكم عليه بعقوبة فى جنحة . والمتوسط أعلى كثيرًا فى بعض الفئات . فزنجى واحد من كل خمسة دخل السجن، وواحد من كل ثلاثة حُكم عليه بعقوبة فى جنحة . وبمعدل الحبس الحالى، فإن كل ذكر ولد فى سنة ٢٠٠١م لديه فرصة من عشرة فرص لدخول السجن فى حياته .[٢٠]

وارتفاع معدل الحبس يرتبط جزئيًا بارتفاع معدل الجريمة، ولكنه يعكس أيضًا سياسة اليمين المقررة بزيادة عدد الأحكام المشمولة بالنفاذ لا سيما بالنسبة لجرائم المخدرات . وظل معدل الحبس فى أمريكا ـ مائة من كل مائة ألف شخص ـ مساويًا لنظيره الأوروبى معظم القرن العشرين . ولكن منذ ثمانينيات القرن العشرين نجح المحافظون فى استصدار قوانين تحد من حرية تصرف القضاة «الليبراليين» فى جعل العقاب يتناسب والجريمة، ومجالس العفو المشروط فى تحديد أهلية المسجونين لأن يطلق سراحهم . وفى السنوات العشر التى تلت ١٩٨٦م ارتفع متوسط المدة فى السجن الاتحادى من ٣١ شهرًا إلى ٥٤ شهرًا؛ ويبدو أن هذا المعدل فى ارتفاع بسبب قوانين كتلك التى تصدر بولاية كاليفورنيا وبسبب عدد السجون . وفى سنة ١٩٩٧م أعلنت «مصلحة السجون الأمريكية» أنها بصدد إنشاء ثلاثة سجون فى كاليفورنيا تخمينا بالحاجة إليها؛ حيث قال متحدث: «إن أنشأته فى المكان المناسب فإن المساجين سيأتون إليه» .[٢١]

وفى الوقت نفسه تؤخذ «الحرب على المخدرات» ذريعة لزيادة قوات الشرطة وعسكرتها . من النادر فى أوروبا أن تسمع عن رجال شرطة يلجأون لاستعمال السلاح . وفى فريزنو بولاية كاليفورنيا، لدى قوات الشرطة نظارات رؤية ليلية وحوامتان [هليكوبتر] وقوات تجوب الشوارع على مدار سبعة أيام فى الأسبوع؛ ومقاطعة بون بولاية إنديانا لديها حاملة أفراد برمائية مدرعة . وفى فترة محاسبية مدتها سنتان، أرسلت وزارة الدفاع لقوات الشرطة المحلية أكثر من مليون معدة عسكرية منها ثلاث وسبعون معدة إطلاق قنابل يدوية .[٢٢]

وأبرز سمات النظام القضائى الأمريكى طبيعته التى لا تعرف الصفح . والسجون شنيعة فى كل مكان، لكن الجهود التى تبذلها سجون أمريكا لإعادة تأهيل النزلاء أقل

من مثيلاتها فى العالم الأول. وفى التسعينيات، أنشأ المشرعون المحافظون سجونًا أكثر عددًا وأكبر حجمًا وخفضوا البرامج «الأوروبية» العاطفية كمعالجة إدمان المخدرات. كما حظروا مجالس العفو المشروط «الليبرالية»: فالأحكام المشمولة بالنفاذ تعنى أن المسجونين ليسوا ملزمين بإثبات استعدادهم للحياة خارج السجون. وفى خارج السجون نجد أن نظام الرعاية اللاحقة أضعف. فلا يحصل كثير من المسجونين السابقين إلا على تذكرة سفر اتجاه واحد. والمجرمون محظور عليهم العمل فى العديد من الأعمال، وفى بعض الحالات يحرمون مزايا الإسكان، وغير مسموح لحوالى خمسة ملايين منهم بالتصويت (أكثر من ٢٠ ٪ من الزنوج فى سن التصويت محظور عليهم التصويت فى عشر ولايات). وسيتم فى السنة الحالية إطلاق سراح ستمائة ألف سجين - أى أكثر من سكان العاصمة، وثلثاهم سيتم إلقاء القبض عليه مرة أخرى فى خلال ثلاث سنوات.[٢٣]

يدافع اليمين عن موقفه من الجريمة لسببين: ثبوت فاعليته وشعبيته. وانخفض معدل الجريمة فى أمريكا فى العقد المنصرم، ولو أن هؤلاء المسجونين المطلق سراحهم يعملون حاليًا على رفع المعدل قليلاً مرة أخرى. ونيويورك آمن من لندن ببعض المقاييس (ولو أن هذه المقاييس تستبعد جرائم القتل). وقد يرى خبراء الجريمة الليبراليون أن انخفاض الجريمة لا يرجع إلى تشديد الأحكام بقدر ما يرجع لتوجهات السكان وتحسن أداء الشرطة. ولكن كم من الساسة الديمقراطيين لديه الاستعداد للدفع باتجاه تخفيف الأحكام أو زيادة المخصصات المالية لإعادة التأهيل؟ وهذا يدعم ثانى دعاوى اليمين وهو أن الأمريكيين يؤيدون سياسات الجريمة عندهم. فالقانون والنظام يجذبان الأصوات الانتخابية. وإعطاء الانطباع بأن الديمقراطيين يتبعون اللين مع الجريمة من خدع الجمهوريين القديمة، وكانت من الأسباب التى دفعت الديمقراطيين لإقرار عقوبة الإعدام.

والموقف الأمريكى المتشدد يمس أناسًا لم يرتكبوا جرائم بالمعايير الأوروبية. فالأمريكيون أكثر انتقادًا من الأوروبيين، لا فيما يتعلق بالمخدرات وحسب بل بالنسبة لإدمان الكحوليات أيضًا. ومعظم دول أوروبا تعتبر الكحوليات جزءًا عاديًا من الحياة المتحضرة؛ فالآباء يقدمون النبيذ لأبنائهم المراهقين مع الطعام. أما فى أمريكا فهناك

قدر من التزمت. ففى الثمانينيات، رفعت معظم الولايات الأمريكية سن تناول الكحوليات من ١٨ إلى ٢١. وكاد هذا أن يؤدى إلى تحويل إحدى بنات الرئيس إلى شهيدة؛ ففى أول صيف لأبيها فى منصب الرئاسة، تم تسجيل أن چينا بوش ذات التسع عشرة سنة حاولت شراء مشروبات روحية مرتين فى غضون شهر واحد فى تكساس، وهى ولاية تقضى بالحبس المشمول بالنفاذ فى ثالث مرة. وتم إيقاف أحد نظار المدارس بضواحى كولورادو لفترة قصيرة لسماحه لطلاب المرحلة الإعدادية بتذوق قليل من النبيذ فى أثناء وجبة مدتها ثلاث ساعات فى فرنسا.

ومن منظور أوروبى، يبدو أحيانًا أن الأمريكيين مصممون على تجريم كل مصدر خطر أو تقنينه أو حظره. وما من دولة تعامل المدخنين (أو بالأحرى شركات التبغ) بهذه الروح الانتقامية التى تعاملهم بها الولايات المتحدة. وما من دولة تضع قوانين تحاصر بها زلات الحياة الإنسانية الهينة أكثر منها. فمعظم المناطق التعليمية فى أمريكا تطبق حاليًا سياسة عدم التهاون مع سوء التصرفات. فتم فصل أطفال فى الخامسة من مدارسهم بتهمة حيازة دواء للسعال أو لارتداء ثياب عيد كل القديسين والتى تشمل السيوف الورقية والرماح الخشبية أو لحيازة أربطة مطاطية أو لعب على شكل أسلحة. وتم فصل طفل فى الخامسة لدخوله المدرسة بموسى عثر عليه على محطة الحافلات، وتم إيقاف طفل فى السادسة لتقبيله زميلته.[٢٤]

يد لا تقدم العون

هناك فارق كبير آخر يمكن مصادفته فيما يتوقع الناس من الدولة. فالأمريكيون حازمون تمامًا فى الحد من حجم الدولة والنطاق الذى تعمل فيه. ويمثل الإنفاق الحكومى حوالى ٣٠٪ من إجمالى الناتج المحلى، وهى نسبة أقل بكثير منها فى بريطانيا (٣٩٪) ونصف مثيلتها بالدول الإسكندنافية. وهذا الرقم يبدو أقل حين نتذكر أن أمريكا تنفق على الدفاع أكثر من سائر الدول: ١١٣٨ دولار للفرد فى سنة ٢٠٠٢م مقارنةً بمبلغ ٥٩٠ دولار فى بريطانيا (وأقل من ذلك فى بقية دول أوروبا).[٢٥]

هناك جدل واسع فى العديد من دول أوروبا حول ما إذا كان رفع مستويات الضرائب فى مقابل تحسين الخدمات أمرًا مقبولاً. أجاب ٦٢٪ فى بريطانيا فى سنة

٢٠٠١م بالإيجاب؛ وفى أمريكا وافق فرد واحد من كل مائة على أن الضرائب أقل من اللازم.[٢٦] ومن الكليشيهات الثابتة فى الحياة السياسية الأمريكية أن المال مال الشعب لا الحكومة ـ وأنك إن لم تستعده فى صورة خفض ضريبى فسيتم تبديده فى واشنطن. ويحب چورچ بوش الابن أن يذكر مساعديه بامرأة قابلته فى أثناء حملته الانتخابية بولاية آيوا وقالت له: «أنا تعلمت أن الكعك إذا تُرك على المائدة فإنه دائمًا يجد من يأكله».[٢٧] وفى ٢٠٠٢م، مع اختفاء فائض الموازنة ومع أكبر خفض ضريبى فى تاريخ البلاد لا يزال عالقًا فى الذاكرة قد يظن أحدنا أن من الغباء شن حملة لتطبيق خفض ضريبى آخر. لكن هذا ما فعل چورچ بوش الابن فى أثناء الانتخابات النصفية ـ وفاز الجمهوريون فيها. وعندما كشف عن خطة لخفض الضرائب بمعدل ٦٧٠ مليار دولار فى يناير ٢٠٠٣م، قال ميلتون فريدمان إن الخفض تم تبريره بأنه سيقلل حجم الحكومة. وقال إن هناك سبيلاً واحدًا لتقليل حجم الحكومة ـ «الطريقة التى يسيطر بها الآباء على أبنائهم المبذرين: خفض مصروفهم».[٢٨]

بالنسبة للأمريكيين ولا سيما المحافظين منهم، هناك مبدأ أساسى يبقى الحكومة على حجمها المحدود. وهو المبدأ القائل إن السلطة بيد الفرد لا الدولة. وعبارة «انتقال السلطة» جزء من القاموس السياسى فى كل دولة فى العالم. أما فى أمريكا ففكرة إمكانية انتقال السلطة من المركز تعد استعمالاً لعبارات متناقضة. فالسلطة أولاً بيد الأفراد، ثم بيد الجماعات المحلية ثم بيد الولايات؛ وتأتى الحكومة الفيدرالية فى آخر السلسلة. والأمريكيون يخشون حتى من نقل السلطة لنوابهم المنتخبين. وهى الدولة المتقدمة الوحيدة ـ باستثناء سويسرا ـ التى تنتشر فيها الاستفتاءات.

ويعد الاقتراع من أمضى أسلحة اليمين؛ فإجراءات خفض الضرائب كالاقتراح ١٣ فى كاليفورنيا تلعب فى رسم صورة اليمين الدور نفسه الذى كانت الإضرابات العامة تلعبه فى الحركات الاشتراكية. فتم اللجوء لعدد كبير من هذه الاقتراحات للحد من سلطة الساسة ـ سواء من خلال «تحديد المدد» أو من خلال تحديد أسقف الإنفاق. فحاكم كاليفورنيا أكبر الولايات وأغناها، لا سيطرة له إلا على خمس الأموال التى تنفقها الولاية. ويمكن إقالته فى أى وقت بالطبع.

والأوروبيون أكثر صرامة من الأمريكيين فى استغلال الدولة فى مكافحة الفقر، وهم أقل ميلاً للفصل بين الفقراء المستحقين وغير المستحقين. وطبقًا لمسح بيو، فإن ٧٤٪ من الروس و٧١٪ من الإيطاليين و٦٢٪ من الفرنسيين و٦٢٪ من الإنجليز يرون أن من الأهم بالنسبة للحكومة أن تحرر الناس من الحاجة، قبل أن تسمح للأفراد بحرية تحقيق أهدافهم. ويفضل ٣٤٪ فقط من الأمريكيين شبكات الضمان الحكومية على حريتهم، وهى نسبة لا تعادل إلا نظيرتها فى دول ذات تاريخ طويل من الفشل الحكومى والفساد كفنزويلا وهندوراس وجواتيمالا وغانا ونيجيريا وباكستان. ويوافق ثلاثة من كل عشرة أمريكيين (٢٩٪) فقط على أن الحكومة مسئولة عن إعانة الفقراء (الرقم مضاعف فى بريطانيا).[٢٩] ويخشى الأمريكيون من أن تقدم دولة الرفاهية مكافأة للناس على سلوكياتهم المدمرة لذواتهم، والحد من دوافع عودتهم لإعالة أنفسهم. وعندما أدى إصلاح دولة الرفاهية على يد بيل كلينتون إلى خفض دعم الدولة الشحيح أصلاً للأمهات العزباوات أشار فيل جرام عضو مجلس الشيوخ الجمهورى إلى أن ٤٠ مليونًا ممن كانوا يركبون السيارة مجانًا سيضطرون الآن «للنزول من السيارة ويساعدوا بقيتنا فى دفعها قدمًا».[٣٠]

والرعاية الصحية من الأمثلة الواضحة الأخرى على بغض أمريكا لنظام دولة الرفاهية. والأوروبيون يعيرون أمريكا بأنها بلد يُترك الفقراء فيه يموتون فى ردهات المستشفيات لعدم حيازتهم بطاقات ائتمان للعلاج؛ والحقيقة أن هناك منظومة حكومية تعرف باسم «ميديكيد» لهذا النوع من الطوارئ. ومع ذلك فأمريكا الدولة الوحيدة الغنية التى ليس بها خدمة صحية قومية أو نظام لدعم الطفل مجانًا، وهناك ٤٤ مليون أمريكى ليس لديهم تأمين صحى. ومنذ عشر سنوات حاولت إدارة كلينتون أن تشمل هؤلاء برعايتها وبالتالى أن تجعل أمريكا أكثر أوروبية فى هذا الصدد. ولكم كما رأينا نجح الجمهوريون فى تشريك الخطة باعتبارها أقرب إلى الخطط الاشتراكية الرامية لتأميم خمس الاقتصاد، ومات مشروع «هيلارى كير». ومعظم الأمريكيين يؤيدون نظام الدعم الخاص وهم على استعداد للتغاضى عن ارتفاع أثمان الرعاية الصحية وافتقار الملايين للتأمين الصحى فى سبيل الإبقاء عليه.

والتمسك بهذا المبدأ له ثمن باهظ. ففى مسح أجرته «هيئة الصحة العالمية» فى سنة ٢٠٠٠م، جاءت أمريكا فى المرتبة الأولى فى مجال إجمالى الإنفاق على الصحة

(٣٧٠٠ دولار للفرد سنويًا)، ولكنها احتلت المرتبة السابعة والثلاثين من حيث الخدمة. وكان ١٠ ٪ على القمة فى أمريكا هم الأوفر صحة فى العالم وينال النتوء الأوسط «رعاية متوسطة» ونسبة الخمسة إلى ١٠ ٪ فى القاع ينالون رعاية متدنية. والنتيجة أن متوسط أعمار الناس فى أغنى دول العالم أدنى بكثير من مثيله فى كندا واليابان وأية دولة كبرى فى غرب أوروبا . فعمر الأمريكى العادى أقصر من عمر اليونانى العادى؛ وعمر الذكر الأمريكى العادى أقصر من عمر نظيره فى پورتوريكو. ومع ذلك فالحديث ليس عن إصلاح جذرى، بل عن بعض الترميم، كإدخال ميزة دعم الدواء للمسنين الذى تم تبنيه فى سنة ٢٠٠٣م.

الرأسمالية وسحر انعدام المساواة

إذا كان الأمريكيون يعادون الحكومة بشكل غير عادى، فهم متحمسون أيضًا للرأسمالية. وعلى الرغم من تخفيف القوانين على مدار الخمس والعشرين سنة الماضية فإن معظم المجتمعات الأوروبية تعتبر «الدمار الخلاق» (أو ما يسميه الفرنسيون «الرأسمالية المتوحشة») شرًا لا بد منه. وهذا الارتياب خليط من الشفقة والمساواة والتعالى (كان أول ما يفعل المليونير الإنجليزى الذى يكسب مالاً من التجارة أن يشترى ضيعة بالريف ويدعى أنه مزارع). ويحاول الساسة الأوروبيون لجم الرأسمالية وإضفاء لمسة متحضرة إليها بفرض حد أدنى مرتفع للأجور وفرض قيود على فصل العاملين وإرغام أصحاب الأعمال على مراعاة البيئة وجعل الإفلاس عملية مؤلمة وإجبار الشركات على وضع نفسها موضع المساءلة أمام مضاربيها وليس فقط حملة أسهمها.

الحكومة الأمريكية تعمل معظم هذه الأشياء أيضًا ولو بدرجة أقل كثيرًا. فقد يشكو أنصار حرية السوق من نسبة دخل المؤسسات المقيدة بقوانين (١٠ ٪ طبقًا لفريدمان) أو من اللوائح المقحمة كقوانين جودة الهواء فى كاليفورنيا أو من مشروع قانون «الأمريكيين من ذوى الإعاقات». لكن التعامل مع لب عالم الأعمال ـ من توظيف وفصل واستثمار واقتراض بل الإفلاس ـ فى أمريكا أسهل كثيرًا منه فى أية دولة متقدمة كبيرة أخرى؛ وهناك سلسلة أوضح كثيرًا من المساءلة فى شركات مسئولة أمام حملة أسهمها فى المقام الأول. وينبع هذا من إيمان استثنائى بالرأسمالية، بدليل وجود

مكتبات مكتظة بمجلدات عن كيفية إدارة الأعمال أو تشجيع الصبية على إدارة أكشاك عصير الليمون. وأين تجد مغنيًا يبيع شريطًا عنوانه «اغتَن أو مُت وأنت تحاول» إلا فى أمريكا؟[٣١]. ولا يلجأ الأمريكيون للجم الأعمال إلا تحَت ظروف شديدة القسوة ـ بعد انهيار سوق المال عادةً ـ والقوانين التى ظهرت تهدف إلى تقوية رأسمالية حملة الأسهم. وهكذا فإن حملة تيدى روزفلت على «شرور الثروات الكبرى» فى مطلع القرن الماضى، ساعدت على سن قوانين مكافحة تضخم رءوس الأموال، وجاءت «الصفقة الجديدة» لفرانكلين روزفلت فى الثلاثينيات بـ«لجان الضمان والتبادل»، وأفرزت مشاحنات ما بعد إنرون فى سنة ٢٠٠٢م مشروع قانون ساربانيس ـ أوكسلى للتفتيش المحاسبى.

ولا شىء يجسد موقف أمريكا المتميز أفضل من سماحها باللا مساواة. فالعقود الثلاثة الماضية شهدت نموًا فائقًا فى انعدام المساواة فيما يشبه العودة إلى عالم «العصر المطلى بالذهب». فتدل بيانات مكتب الإحصاء على اتجاه قطاع متزايد من الدخل القومى إلى العشرين ٪ من عائلات القمة. إلا أن هذا، كما يشير پول كروجمان، قد يعطى صورة أقل عن حقيقة تنامى اللا مساواة؛ ففى داخل هذه النخبة، نجد أن ٥ ٪ العليا حققت دخلاً أكبر من ١٥ ٪ التالية لها، و١ ٪ العليا حققت مكاسب أكبر من ٤ ٪ التالية لها وهكذا.[٣٢] ففى سنة ١٩٧٠م مثلاً جنت نسبة الـ ٠,٠١ ٪ العليا من دافعى الضرائب ٠,٧ ٪ من إجمالى الدخل. ولكن فى سنة ١٩٩٨م جنت نسبة الـ ٠,٠١ ٪ العليا أكثر من ٣ ٪ من إجمالى الدخل. معنى هذا أن أغنى العائلات والتى يبلغ عددها ثلاثة عشر ألفًا تجنى دخلاً يساوى إجمالى دخل أفقر الأسر والبالغ عددها عشرين مليونًا. وفى سنة ١٩٨٠م كان المدير التنفيذى الأمريكى العادى يتلقى ما يساوى أجر العامل العادى أربعين مرة؛ وتضاعفت الآن إلى ما يزيد عن أربعمائة مرة. والبون أوسع إذا قيس الأمر بالأرصدة بدلاً من الدخل؛ ١ ٪ من أغنى الأسر تتحكم فى ٣٨ ٪ من الثروة القومية، أى ضعف ما يمتلكه ٨٠ ٪ فى القاع.[٣٣]

إن أمريكا أكثر الدول المتقدمة افتقادًا للمساواة طبقًا لمعظم المعايير فى العالم. وهناك دراسة أجراها «معهد السياسات الاقتصادية» بينت أن الهوة بين ١٠ ٪ على القمة

و١٠٪ فى القاع من حيث الدخل أكبر فى أمريكا منها فى أية دولة أخرى؛ بل إنها بلغت ضعف النسبة فى دول إسكندناڤية عدة.[٣٤] ومن الغريب أن سبب كون أمريكا على هذه الدرجة من انعدام المساواة بهذا المعيار لم يكن لأن أفقر ١٠ ٪ فيها معدمون (فمن حيث معامل القوة الشرائية كانوا أعلى قليلاً من الشرائح المماثلة فى بريطانيا وأستراليا)؛ بل لأن أغنى ١٠ ٪ فى أمريكا يجنون متوسط دخول أعلى بكثير.

قد يفسر هذا سبب عدم حدوث رد فعل شعبى كبير إزاء الطفرة الهائلة فى انعدام المساواة. وفى سنة ٢٠٠٠م، يقال إن محاولة آل جور شن حملته باسم «الشعب فى مواجهة الأقوياء» عادت عليه بضرر أكبر مما عادت به من نفع. وفى ٢٠٠٢م أبدى الأمريكيون سخطهم على مديرى شركاتهم بسبب تجاوزاتهم (كستارة الحمام التى يقدر ثمنها بألفى دولار والتى اشتراها مدير شركة تايكو لنفسه على حساب الشركة)، وكان هناك انتقاد بالطبع للرواتب الضخمة التى دفعت لأناس لم يحسنوا الأداء، ولكنها لم تترجم إلى سخط عميق على الاختلال الكبير فى الدخل كما كان سيحدث فى أوروبا. فالأمريكيون يربطون النجاح بالكفاءة لا بالحظ أو المولد أو الإجرام. فهم يعجبون بالنجاح. وعبارة تد تيرنر الشهيرة هى «المال هو الطريقة التى نحرز بها أهدافًا فى مرمى الحياة». وعندما حاول روبرت جويزيتا مدير كوكاكولا المخضرم تبرير إجمالى راتبه السنوى البالغ ٨٠ مليون دولار فى أحد اجتماعات حملة الأسهم فى التسعينيات، قوطع أربع مرات بالتصفيق. كما أن الأمريكيين متفائلون للغاية فيما يتعلق بفرصهم فى الحياة. فوجد أحد الاستطلاعات فى سنة ٢٠٠٠م أن ١٩ ٪ من الأمريكيين يعتقدون أنهم من أغنى ١ ٪، وتصور ٢٠ ٪ آخرون أنهم سيدخلون فئة أغنى ١ ٪ فى مرحلة ما من حياتهم. وهذا خيال ولكنه ليس شططًا. فالحراك الاجتماعى أكبر فى أمريكا منه فى أية دولة أخرى؛ حيث يخرج ما بين ٥٠ إلى ٨٠ ٪ من قاع المجتمع الأمريكى خارج هذا القاع فى غضون عشر سنوات.[٣٥]

كان الخفض الضريبى الذى أجراه جورج بوش الابن أمرًا لا يرد على الخاطر فى معظم الدول الأخرى. وكان الاقتراح الأول فيه إلغاء ضريبة الأرباح على مستوى شخصى. ونصف الناتج من هذا الاستبعاد يتدفق إلى أغنى ١ ٪ من دافعى الضرائب، و٢٥ ٪ أخرى إلى بقية الخمسة ٪ على القمة حسب تقديرات «مواطنون من أجل عدالة

ضريبية». وتحدث بوش عن توفير الأمريكى العادى مبلغ ١٠٨٣ دولار من ماله، إلا أن هذا المتوسط يدعمه أناس من أمثال بيل جيتس. لم يوفر دافع الضرائب المتوسط سوى مائتى دولار، ولم يوفر أحد فى ٢٠ ٪ التى من القاع شيئًا تقريبًا. وجنى بوش نفسه ٤٤٥٠٠ دولار. وحقق ديك تشينى أكثر من ٣٢٧ ألفًا (وهو مبلغ يفوق دخل ٤٩ من كل ٥٠ أسرة أمريكية قبل خصم الضرائب).[٣٦] وعندما احتج الناس أشار بوش بكل قوة إلى أن «الحرب الطبقية» شىء لا تعرفه أمريكا. واستجاب مجلس النواب لمعظم ما طلب.

الإجهاض والتدين

فى كل يناير يتوافد إلى العاصمة واشنطن عشرات الآلاف من المحتجين على الإجهاض، يحمل العديد منهم لافتات مخيفة لإحياء ذكرى حكم روى ضد ويد الصادر عن المحكمة الدستورية العليا والذى جعل الإجهاض حقًا دستوريًا فى سنة ١٩٧٣م. ومنذ ذلك التاريخ، شرعت خمس وسبعون دولة أخرى فى تحرير قوانين الإجهاض فيها، وفى معظم الأماكن الأخرى كان هذا كافيًا لإقرار الجدل حول الموضوع. لكن هذا لم يكن الحال فى أمريكا. فمعارضو الإجهاض يظهرون بانتظام على شاشات التليفزيون ويشبهون الإجهاض بالمحرقة أو الرق. ولفترة من الوقت، اتجه المتطرفون من أنصار الحياة إلى تفجير العيادات وإطلاق النار على أطباء الإجهاض. والمعركة فى أغلب الأحيان تتخذ منحى سياسيًا بتصويت مجلس النواب مثلاً على حظر إجهاض الولادة الجزئية فى سنة ٢٠٠٣م، أو تمرير المجالس التشريعية المحافظة فى الولايات قوانين تمنع القصر من إجراء عمليات الإجهاض دون رضا آبائهن. إلا أن معركة الإجهاض تمتد أيضًا إلى مواعيد المحاكم والمدارس والخلايا الجذعية، بل الدعاوى القضائية الغامضة. فأقام «مركز قانون وسياسات النسل» دعوى قضائية ضد ولايتى فلوريدا ولويزيانا لسماحهما ببيع لوحات للسيارات مكتوب عليها عبارة «اختر الحياة» دون أخرى عليها عبارة «مع الاختيار».

فلماذا يظل الإجهاض مسألة تثير كل هذا الجدل فى أمريكا دونًا عن غيرها من الدول التى أباحته؟ فمعظم الأمريكيين لهم آراء فى الإجهاض تشبه آراء غالبية

الكنديين أو الإنجليز، فهم لا يحبذونه ويعارضون إجهاض الولادة الجزئية ولكنهم لا يريدون دفعه إلى الشوارع الخلفية. وتم إدراك موقفهم تمامًا من قبل بيل كلينتون حين قال إنه يريد أن يظل الإجهاض «آمنًا وقانونيًا ونادرًا». [٣٧] لذا فإن الرؤساء الجمهوريين ومنهم چورچ بوش الابن يجدون حرجًا فى التركيز على الموضوع أكثر من اللازم.

إلا أن هذا التشابه لا يتجاوز هذا الحد. وقد يكون من يريدون حظر الإجهاض فى أمريكا أقلية إلا أنهم أقلية أكبر مما فى سائر الدول وأكثر تنظيمًا. كما يجسد الإجهاض الحرب بين أمريكا الليبراليين وأمريكا المحافظين، بين أمريكا حقوق الأفراد وأمريكا قيم التراث، بين أمريكا المحاكم وأمريكا الكنائس الإيڤانجليكية. يقول بيل كريستول بلغة نموذجية بالنسبة للجدل الدائر: «الإجهاض اليوم هو مفرق السياسة الأمريكية الذى يلتقى عنده التحرر القضائى (من الدستور) والتحرر الجنسى (من أخلاقيات التقاليد) وتحرر المرأة (من الترفع الطبيعى). إنه بؤرة هجوم الليبرالية المتزامن على التحكم فى الذات والأخلاق والطبيعة». [٣٨]

قد يتسم المحافظون بقدر من الغلو، ولكنهم محقون حين يستشهدون بدعوى روى ضد ويد كمثال على انتصار الليبرالية. والدول الأوروپية حررت الإجهاض من خلال التشريع، وفى بعض الحالات عن طريق الاستفتاءات، مما أضفى على الإباحة شرعية تأييد الأغلبية وسمح للدول بإحاطة العملية بكافة أنواع القيود. وفى أمريكا حكمت المحكمة الدستورية العليا ـ أو خمس قضاة ليبراليون غير منتخبين كما يحلو للمحافظين أن يسموها ـ بأن حقوق التناسل مشمولة ضمن الحق الأساسى فى الخصوصية الذى يكفله الدستور كما كفل حرية التعبير وحرية الدين؛ وأباحوا الإجهاض حتى ستة وعشرين أسبوعًا. وأثار الحكم غضب الناس لأن حقوق الإجهاض لم يرد به نص صريح فى الدستور كما ورد عن حرية التعبير، ويسعى اليمين لتغيير تشكيل المحكمة منذ ذلك الحين. وباتخاذ الطريق التشريعى، تمكن الأوروپيون من تحييد الجدل؛ وبالاعتماد على الضربة القاضية التى سددتها المحكمة الدستورية العليا تمكن الأمريكيون من إضفاء الصيغة المؤسسية عليه.

إن قضية الإجهاض تجسد ثلاث سمات أمريكية. أولها مرة أخرى التدين. ٩٥٪ من الناس فى أمريكا يؤمنون بالله، فى مقابل ٧٦٪ من الإنجليز و٦٢٪ من الفرنسيين و٥٢

٪ من السويديين. وينتمى ثلاثة من كل أربعة أمريكيين لكنيسة، ويتردد ٤٠ ٪ على الكنيسة مرة أسبوعيًا ويتردد عليها مرات عدة فى الأسبوع واحد من كل عشرة. وواحد من كل أربعة لديه خمس نسخ من الكتاب المقدس أو أكثر.[٣٩] وكشف «مشروع بيو للتوجهات العالمية» أن ستة من كل عشرة أمريكيين يرون أن للدين دورًا «مهمًا جدًا» فى حياتهم. وهذه نسبة تساوى ضعف نسبة المتدينين الملتزمين فى كندا وأكثر إذا قورنت بمثيلتها فى اليابان وأوروبا. ولكى تعثر على أرقام قريبة من هذه عليك أن تنظر إلى الدول النامية. وحين يقول الأمريكيون «مهم جدًا» فإنهم يقصدون؛ ٣٩ ٪ منهم يعتبرون أنفسهم مسيحيين «مولودين ثانيًا ـ born again»(*).[٤٠] وما من مكان آخر يمثل فيه البروتستانت الإيڤانجليكيون هذا الوزن الكبير؛ ففى أمريكا يمثلون واحدًا من كل ثلاثة ناخبين مقارنةً بالربع فى سنة ١٩٨٧م. وفى حين تسعى الكنائس الأوروبية للتشبث بأبناء الأبرشية القلائل الذين اجتمعوا لها، فإن الكنائس الأمريكية تبدو فى حالة ازدهار دائم. وأكثر الكنائس ازدهارًا تلك التى تصر على الالتزام العميق بالمسيح بدرجة أكبر من منافساتها الأكثر اعتدالاً.

ومن أسمى مرامى الأصوليين الأمريكيين «الاختطاف ـ the rapture» ـ أى اللحظة التى يُعتقد أن المسيحيين الأتقياء يُرفعون فيها إلى السماء. وهى تقوم على فقرة فى رسالة بولس الرسول الأول إلى مؤمنى تسالونيكى: «لأن الرب نفسه سينزل من

(*) «مولود ثانيًا ـ born again»، هو مصطلح مسيحى أصله فى إنجيل يوحنا؛ حيث جاء تحت عنوان «الولادة الجديدة من الروح»: غير أن إنسانًا من الفريسيين، اسمه نيقوديموس، وهو عضو فى المجلس اليهودى، جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: «يا معلم، نعلم أنك جئت من الله مُعلمًا، لأنه لا يقدر أحد أن يعمل ما تعمل من آيات إلا إذا كان الله معه». فأجابه يسوع: «الحق الحق أقول لك: لا أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد». فسأله نيقوديموس: «كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو كبير السن؟ ألعله يستطيع أن يدخل بطن أمه ثانية ثم يولد؟» أجابه يسوع: «الحق الحق أقول لك: لا يمكن أن يدخل أحد ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح. فالمولود من الجسد هو من الروح، هو روح. فلا تتعجب إذا قلت لك إنكم بحاجة إلى الولادة من جديد. الريح تهب حيث تشاء وتسمع صفيرها، ولكنك لا تعلم من أين تأتى ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح». الإنجيل كما دونه يوحنا (٣ : ١ ـ ٨). وللمصطلح معانى متعددة حسب الطوائف التى تستخدمه، ولكن يمكن القول بصفة عامة أنه يعنى عند التيار الجديد فى المسيحية الأمريكية مرور المسيحى بتجربة روحية مع الله، تجعله يحس أنه مولود من جديد. وفى الغالب يكون ذلك بين البروتستانت، ومن علامات الحركة، أو تطور المصطلح قول الرئيس الأمريكى كارتر ـ أثناء حملة ترشيحه ـ أنه ولد من جديد. كذلك هناك شخصيات كثيرة عامة أعلنت أنها ولدت من جديد، بما فى ذلك موسيقيون وفنانون ومطربون مشهورون، ناهيك عن رجال الأعمال والصناعة.

السماء حالما يدوى أمر بالتجمع، وينادى رئيس ملائكة، ويبوق فى بوق إلهى، عندئذ يقوم الأموات فى المسيح أولاً. ثم إننا، نحن الباقين أحياء، نختطف جميعًا فى السحب للاجتماع بالرب فى الهواء. وهكذا نبقى مع الرب على الدوام. لذلك عزّوا بعضكم بعضًا بهذا الكلام!»: (٤: ١٦ ـ ١٨).[٤١] ولا ينظر الأصوليون إلى هذه الفكرة باعتبارها مجازًا، بل قدرًا مقدورًا. وفى فلوريدا قد يصادفك ملصق على إحدى السيارات يحذرك من أن السيارة قد تصبح فجأة بدون سائق إذا جاءت لحظة «الاختطاف». وفى بعض مناطق جنوب تكساس، يبدو أنه ليس هناك سوى نوعين من محطات الإذاعة، محطات ناطقة بالإسبانية وأخرى يتحدث فيها الإيڤانجليكيون عن «الاختطاف». وسلسلة كتب «المتروكون خلفًا ـ Left Behind» والتى تتناول عالم ما بعد «الاختطاف» بيع منها ٥٥ مليون نسخة منذ صدورها لأول مرة فى سنة ١٩٩٥م.

هذه هى نوعية الحقائق التى يتمسك بها الأوروبيون حين يصفون الأمريكيين بأنهم «مجاذيب الكتاب المقدس المتعصبين ـ Bible - crazed zealots». ويروق للأوروبيين أن يعتبروا أنفسهم ورثة «التنوير» العقلانيين، فكيف يتسنى لهم أن يتعاملوا مع بلد يبلغ تعداد المؤمنين بقصة ولادة مريم العذرية فيه ثلاثة أمثال المؤمنين بنظرية النشوء والتطور؟[٤٢] ومع ذلك فإن الفروق نفسها تساعد على تفسير نظرة الازدراء التى ينظر بها كثير من الأمريكيين لما يعتبرونه علمانية أوروبا غير المقدسة. فيقول أحد المحافظين الأمريكيين عن أوروبا:

> «الأوروبيون ماديون؛ فالاتحاد الأوروبى لا يولى كثيرًا من الاهتمام إلى القضايا الإستراتيچية؛ لأنه من تصميم بيروقراطيين مهووسين بالتجارة والمال. والأوروبيون يهتمون أكثر منا بالمتعة المادية، فهم يشتغلون بما يدغدغ الغرائز (ما يستدل عليه مما يعرض على شاشات التليفزيون ليلاً ومن الكتب الأكثر مبيعًا من قبيل «الحياة الجنسية لكاثرين إم»). ومن الصعب على العين الأمريكية أن ترى تقاليد أسرية فى بلاد يفضل فيها الكثيرون أن يظلوا بدون إنجاب (معدل الخصوبة فيها ١,٤٧ حالة ولادة لكل امرأة)، ومن الصعب رؤية قيم دينية فى حين لا تزيد نسبة من يتردد من الأوروبيين على الكنائس عن ٢٠ ٪». [٤٣]

وثانية سمات الأمريكيين التى يجسدها الجدل حول مسألة الإجهاض الهوس بالجدل حول الأساسيات. فالأوروبيون فى العادة يحيلون القضايا الأخلاقية إلى قضايا تقنية، ثم يحيلونها على النخب التكنوقراطية. أما أمريكا فهى بلاد الأصوليين من كل نوع، علمانيون ودينيون على السواء، وذلك بفضل ناموسها الدستورى وثقافتها التشريعية وربما تراثها المتزمت. وفى أوروبا يدور الجدل حول مسألة الإجهاض من منظور طبى لا من منظور أخلاقى. وكذلك الجدل حول الخلايا الجذعية. أما بالنسبة للأمريكيين، فالإجهاض ليس مجرد مسألة صحية، بل صدام بين مطلقين: الحق فى الاختيار ضد الحق فى الحياة.

والسمة الثالثة هى الدور الاستثنائى لليمين نفسه. فالديمقراطيون لا يتهاونون حين يتعلق الأمر باستغلال دعوى روى ضد ويد لحشد قواتهم. لكن المحافظين كانوا أول من يحيل الإجهاض إلى قضية متفجرة فى الجنوب؛ حيث تتفوق القيم على الطبقة فى السياسة الأمريكية. ولم يكن الإجهاض أول قضية تعيد تعريف السياسة الثقافية الحديثة، ويعود الفضل فى ذلك إلى الحقوق المدنية. ولكنها كانت من أقواها بدون شك. ففى سنة ١٩٧٢م، وصف الجمهوريون چورچ ماكجڤرن بمرشح «الثلاثة ألف ـ triple - A» (العفو العام والأحماض والإجهاض) واستغلوا القضية فى استقطاب إيڤانجليكيى الجنوب وكاثوليك الشمال منذ ذلك الحين. وكان لا يزال هناك جمهوريون يؤيدون حرية الاختيار من أمثال كولن پاول وأرنولد شوارزينجر، إلا أنهم كانوا يسبحون ضد التيار. فتبلغ نسبة المعارضين للإجهاض ٨٨ ٪ من برامج الجمهوريين بالولايات ولا يؤيده أحد. وفى انتخابات ٢٠٠٠م، صوت ٧٤ ٪ ممن قالوا بضرورة حظر الإجهاض لصالح بوش، بينما صوت ٧٠ ٪ ممن قالوا بضرورة إتاحته فى كل وقت لصالح جور. وربما كانت أمريكا دائمًا أكثر ارتباكًا فيما يتعلق بقضية الإجهاض من سائر الدول، إلا أن اليمين يبذل جهودًا مضنية لرفع الحرارة. ولا أمل فى أن تصبح أمريكا «أوروبية» فى موقفها من الإجهاض.

القيم واليمين

إن نموذج الإجهاض أحد الدلائل على استثنائية أمريكا، لأنه يبين كيف يكمل كل

من عنصريه الأساسيين الآخر: مجموعة متميزة من القيم وحركة محافظة قوية بصورة غير عادية تغذى هذه القيم وتبرزها وتستغلها. وكلاهما يتطلب بعض الإيضاح.

إذا تفحصنا القيم الأمريكية، فسنواجه على الفور مفارقة واضحة. فالأمريكيون أكثر فردية من القارة الأوروبية وأكثر تقليدية منها فى آن معًا. والفردية فيها تتغلغل إلى ما هو أعمق من مجرد ازدراء الشبكات الأمنية. والأمريكيون أكثر ميلاً للثقة فى قدراتهم أيضًا: ٦٥٪ منهم فى مسح پيو رفضوا مقولة أن «النجاح فى الحياة تحدده قوى خارجة عن سيطرتنا». أما فى أوروپا، فوافقت أغلبيات فى كل دولة على هذه المقولة الكئيبة عدا بريطانيا وجمهوريتى التشيك والسلوڤاك، وحتى فى هذه الاستثناءات الأوروپية الثلاثة انقسمت الآراء مناصفةً. ونسبة الأمريكيين الذين يعتقدون أن النجاح تحدده قوى خارجة عن سيطرتهم انخفضت من ٤١٪ فى سنة ١٩٨٨م إلى ٣٢٪ حاليًا؛ وبالعكس، فنسبة الألمان الذين وافقوا عليها ارتفعت من ٥٩٪ فى سنة ١٩٩١م إلى ٦٨٪ حاليًا.

ومع ذلك فإذا كان الأمريكيون نزّاعين للفردية المصلحية، فهم وطنيون متدينون أيضًا. ويتبدى ذلك فى أجلى صوره فى مسح عادى أجرته جامعة ميتشيجان يغطى حاليًا ثمانى وسبعين دولة ويشمل اختبارين، أحدهما للأولويات ويسأل الناس عن مدى أهمية أشياء كالطعام والأمن بالنسبة لهم فى مقابل قيم أكثر تجريدية كالتعبير عن الذات والتسامح وما إلى ذلك. والأمريكيون كسكان معظم الدول الثرية يحبون أن يكونوا على الطرف المعبر عن ذاته. ويسعى الاختبار الآخر لقياس النزعة التقليدية (الولاء للوطن ولله وللأسرة) فى مقابل «القيم العقلانية العلمانية» (كتأييد القتل الرحيم مثلاً والطلاق والإجهاض). وفى هذا المضمار تشارك أمريكا بقية العالم الغنى، فتحتل مكانًا أكثر تقليدية بكثير من أية دولة أوروپية باستثناء أيرلندا. فكان الأمريكيون أكثر الشعوب وطنية فى المسح: ٧٢٪ يقولون إنهم فخورون ببلدهم (مع أن هذا الاستطلاع أجرى قبل سپتمبر ٢٠٠١م). وأجاب أربعة من كل خمسة أمريكيين بأن لهم آراء «قديمة» فى الزواج والأسرة. ومن حيث التدين، كان الأمريكيون أقرب

إلى النيـــچـــيـــريين والأتـــراك منهم إلى الألمان والســـويديين. ومن الغـريب أن الأمـريكيين أصبحوا أكثر تقليدية فى هذه الجوانب منذ المسح الأول فى سنة ١٩٨١م.

كـيف أصبح الأمريكيـون على هذه الحالة الاستثنائيـة؟ من بين الأسبـاب النزعـة المحافظة الأمريكية غير العادية بالطبع. ولكن ما الذى يجعل أمريكا تربة خصبة للنزعة المحافظة؟ علينا أن نعود إلى السمات المحافظة التى ميزت أمريكا دومًا ـ أى السمات التى تعود فى تاريخها إلى ما قبل حركة المحافظين الأمريكية الحديثة، وقد تعمر لمدة أطول منها أيضًا. فيصف داستن النشط الشاب الذى التقينا فى مستهل هذا الكتاب بعض أصـدقـائه بأنهم «مـحـافظون دون وعى منهم». وهو وصف ينسـحب على الولايات المتحدة ككل.

***

obeikan.com

الفصل الثالث عشر

منذ البداية
جذور الاستثنائية الأمريكية

إن عمر حركة المحافظين الأمريكية قصير نسبيًا. ومن ناحية أخرى فعمر حركة المحافظين الاستثنائية لأمريكا تعود إلى نشأة البلاد. فلطالما كانت للولايات المتحدة غرائز محافظة، منها الشك فى سلطة الدولة والحماس للتجارة والتدين العميق. إلا أن أمريكا ظلت طوال تاريخها على وفاق مع نزعتها المحافظة المتأصلة فيها؛ حتى أنها لم تكن بحاجة لحركة سياسية لتعبر عن مبادئ النزعة المحافظة أو لترهق أعداءها.

إن القول بأن النزعة المحافظة كامنة فى الحمض النووى لأمريكا قد يصدم البعض لغرابته نوعًا. ألم تكن أمريكا تجسيدًا لحركة التنوير؟ وأول «أمة جديدة» فى العالم؟ ونموذج الدولة الفتية؟ ويوتوبيا الراديكاليين وبابل المحافظين؟[1] ومحت الولايات المتحدة عالم الملكيات القديم وحكم الارستقراطية والكنيسة المؤسسة(*)، وكفلت لشعبها الحق فى الحياة والحرية والسعى إلى السعادة. وفى العقود التى تلت مولدها، وقفت جمهوريتها الوليدة إلى جانب الثورة الفرنسية ضد تجمع قوى النظام القديم. بل إن الثوار الفرنسيين حين اقتحموا الباستيل رمز الاستبداد والقهر، أرسل ماركيز لافاييت مفتاح السجن لجورج واشنطن.

ولا شك أن النزعة المحافظة لأمريكا هى نزعة محافظة استثنائية؛ فهى النزعة المحافظة لجمهورية تجارية تتطلع للتقدم، ولم تكن النزعة المحافظة الرجعية «التورية»(**) لأوروبا القديمة. ولكنها نزعة محافظة على كل حال. وإذا كانت أمريكا

(*) الكنيسة التى تدعمها الحكومة على أنها الكنيسة الرسمية، وذلك من بين الكنائس أو الطوائف البروتستانتية.

(**) محافظة حزب التورى الإنجليزى.

أمة جديدة؛ فإنها بدأت تشيخ ويصيبها الهرم. وإذا كانت أمريكا نتاج ثورة، فهى ثورة مختلفة تمامًا عن الثورة الفرنسية. وهناك عناصر فى المجتمع الأمريكى منذ نشأته الأولى ـ التدين والرأسمالية بل الجغرافيا أيضًا ـ وضعت كوابح على أى انحراف نحو اليسار. وأمريكا الدولة المتقدمة الوحيدة فى العالم التى لم يحدث أن خضعت لحكم يسارى.

شابة فى قلبها وعجوز فى عمرها

لنبدأ بمقولة أن الولايات المتحدة لم يعد من الممكن اعتبارها «أمة جديدة». لا شك أن أمريكا ليس بها قصور قديمة أو قلاع عتيقة (ولو أنها لا تعانى نقصًا فى القصور الجديدة أو القلاع الحديثة). إلا أن هذا لا يقوم دليلاً على شبابها. فالمستوطنون الأوائل وصلوا حين كان چيمس الأول على العرش، ولم تكن إنجلترا أصبحت بريطانيا بعد. وتم منح جاليليو كرسيًا بجامعة هارڤارد التى أنشئت فى سنة ١٦٣٦م، أى قبل قطع رأس تشارلز الأول. وتم توقيع «إعلان الاستقلال» قبل توحيد كل من ألمانيا وإيطاليا (كجزء من أوروپا العجوز) بمائة سنة. وقلب بوسطن وواشنطن يعطى إحساسًا بالقدم لا يقل عن العديد من عواصم أوروپا (وهى أقدم فى بعض النواحى لأنهما لم يتعرضا للقصف بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية). وكثير من التقاليد التى تجعل من بريطانيا بلدًا قديمًا فى أذهان المعجبين بها من الأمريكيين ـ أبهة الإمبراطورية وطقوس عيد الميلاد كما يصفها تشارلز ديكنز وقبعة صائد الغزلان فى قصص شيرلوك هولمز ـ تم اختراعها بعد وضع الدستور الأمريكى بقرن من الزمان. يقول أوسكار وايلد ساخرًا منذ قرن «إن شباب أمريكا هو أقدم تقاليدها. وهو مستمر الآن منذ ثلاثمائة سنة».

الحقيقة أن أمريكا يحق لها أن تزعم أنها إحدى أقدم بلاد العالم من ناحية قيام أقدم النظم الدستورية فيها.[٢] فالولايات المتحدة أقدم جمهوريات العالم وأقدم ديمقراطياته وأقدم نظام فيدرالى (اتحادى). وبها أقدم دستور مكتوب فى العالم (١٧٨٧م)؛ ويحق للحزب الديمقراطى أن يباهى بأنه أقدم حزب فى العالم. وشهدت فرنسا خمس جمهوريات منذ ١٧٨٩م فضلاً عن الملكيات والإمبراطوريات وحكومات المديرين والقناصل والدكتاتورية الفاشية المتعاونة مع العدو المحتل. وقام «حزب العمل الجديد» بتنقيح أحد أقدم عناصر الدستور البريطانى أى «مجلس اللوردات». إلا أن أمريكا

أدخلت تعديلات على ترتيباتها الدستورية، منها السماح للناخبين لا لمجالس الولايات التشريعية باختيار نواب مجلس الشيوخ. بل إن «التعديل الثالث عشر» الذى ألغى الرق، كان محاولة لإرغام أمريكا على التصرف وفق مُثلها الدستورية الأصيلة وليس انحرافًا عن تلك المثل.

إن الماضى حاضر فى الحياة الأمريكية. فالأمريكيون يتخذون قرارات مهمة ـ كحق المرأة فى الإجهاض أو صلاة الأطفال فى المدارس ـ على ضوء ثوابت وضعتها مجموعة من رجال القرن الثامن عشر كانوا يرتدون سراويل بركب ويضعون شعرًا مستعارًا مرشوشًا بمساحيق. والساسة يجدون سعادة فى وصف أنفسهم بأتباع چيفرسون أو أنصار هاميلتون. حتى غلاة التحررين الرقميين أقل الناس اهتمامًا بالتاريخ، يروق لهم أن يصفوا أنفسهم بأنهم «أنصار چيفرسون بحواسب محمولة». وباستثناء تعديلات ما بعد الحرب الأهلية، والتى نادت بالمساواة لكافة المواطنين الأمريكيين، بقى الدستور كما أراد له المؤسسون أن يكون: منظومة معقدة من القيود والتوازنات قُصد بها منع أى سياسى من الاستئثار بالسلطة على طريقة الملك چورچ الثالث. دانييل بورستون فى سنة ١٩٥٣م: «زَوَدَنا تاريخنا ـ رغمًا عنا ـ لفهم مغزى المحافظة. وأصبحنا نماذج لاستمرارية التاريخ والثمار الناتجة عن إقامة مؤسسات تلائم الزمان والمكان وفى تواصل مع الماضى».[٣]

صحيح أن الماضى الأمريكى تميزه الحرب الأهلية، وهى أكثر نزاعات القرن التاسع عشر دموية؛ إلا أن الحرب الأهلية كانت حربًا محافظة للغاية فى العديد من جوانبها. فكان كلا الجانبين يزعمان أنهما يقاتلان دفاعًا عن الدستور: الشمال دفاعًا عن النظام الاتحادى ثم فيما بعد عن المساواة الفردية التى تمثل لب الوثيقة، والجنوب دفاعًا عن حقوق الولايات الذى يكفله ذلك النظام الاتحادى نفسه. وخلت الولايات المتحدة بصورة فريدة من الحروب الثورية التى شاعت فى أوروبا، أى الحروب التى نشبت لمحو النظام القديم واستبدال جديد به.

ومن أسباب هوس الأمريكيين بالتاريخ والتراث، أنهم لا يحتاجون كثيرًا لدفن الماضى كالألمان أو اليابانيين. فهم يحتفون بيوم الذكرى وبعيد الاستقلال بحيوية كبيرة، ويؤلفون كتبًا بانتظام عن الآباء المؤسسين تحقق أعلى المبيعات، وينشئون

جمعيات تاريخية لإعادة تمثيل الحرب الأهلية، ويتوافدون بإجلال على أنصابهم التذكارية الكبرى. ومبنى الكابيتول مكتظ دائمًا بتلاميذ المدارس؛ حيث يتلقون دروسًا عن دستور الأمة. (يستحيل أن يتصور المرء معلمين إيطاليين يتحدثون بهذه الرهبة وهذا الإجلال عن الدستور الإيطالى.) ومن أكثر برامج الأطفال التليفزيونية شعبية «أطفال الحرية» الذى يروى أمجاد الثورة الأمريكية.

ولما كان الأمريكيون يرون فى أنفسهم أمة جديدة، فهم لا يحسون بحاجة لاستعراض حداثتهم كما يفعل بعض الإنجليز والفرنسيين. ولم يشوهوا وسط واشنطن بمبان جديدة بشكل فج كما فعل الحداثيون حين شعروا بضرورة تحديث لندن. وهناك أماكن عديدة فى أوروبا تعطى انطباعًا بأنها مقسمة إلى قسمين، «قسم قديم» يعتبر كل جديد مريبًا، و«قسم جديد» ـ متنام بدرجة كبيرة فى بريطانيا حاليًا ـ يبغض العالم القديم ويرى فى الحداثة ميزة سامية فى حد ذاتها. ومن الغريب أن أوروبا «القديمة» منهمكة حاليًا فى تجربة مغالية لإيجاد أوروبا «جديدة». فمعاهدة ماستريخت لم تشب بعد عن الطوق، والعملة المشتركة لم تبلغ مرحلة الفطام بعد، والجدل محتدم حول وضع دستور جديد، وهناك عشر دول أعضاء يحين موعد انضمامهم فى ٢٠٠٤م، وهناك حديث عن وضع سياسة خارجية موحدة. بينما الكل فى أمريكا، عدا الراديكاليين، سعيد بالنظام الدستورى.

ثورة محافظة

إلى أى مدى كانت الثورة الأمريكية محافظة؟ علينا البدء بالاعتراف بأنها كانت ثورة. يبين جوردن وود فى كتابه «راديكالية الثورة الأمريكية ـ Radicalism of the American Revolution» (١٩٩٣م) أن المتمردين لم يطردوا الإنجليز وحسب، بل طردوا معهم الشراك الحقوقية للنظام الاجتماعى الإقطاعى، كالبكورة (أى انتقال كل الميراث للابن الذكر الأكبر، ووقف الأملاك(*) وألقاب النبالة والكنيسة المؤسسة وغير

(*) الكثير من أهم وأكبر جامعات ومستشفيات الولايات المتحدة، قامت على الأوقاف الخيرية، والوقف المطروح هنا هو الوقف الذى ليس لصالح المجتمع.

ذلك. وأقاموا جمهوريتهم على أساس مبدءين ثوريين: أن البشر خلقوا متساوين، وأن السلطة تُستمد من إرادة «الشعب».

ومع ذلك، كان هناك معنى ضمنى محافظ فى كل ما فعل الثوريون. فبدأت الثورة كحركة عصيان ضد الاستعمار لا كمحاولة لإعادة صوغ العالم من جديد كنظيرتها الفرنسية.[٤] وكانت الثورة من صنع ملاك الأراضى لا المثقفين المنسلخين أو الفلاحين الساخطين؛ رجال حكماء وأثرياء ادعوا فى البداية أنهم يناضلون باسم مبادئ الدستور الإنجليزى لا ضدها. وأحيوا أسماء حزبية إنجليزية تاريخية، فأطلقوا على أنفسهم «حزب الأحرار ـ Whigs» وعلى خصومهم «حزب المحافظين ـ Tories»، وادعوا أنهم يناضلون فى سبيل الحفاظ على الحقوق البريطانية القديمة (منها على سبيل المثال المحاكمة من قبل المحلفين، اتباع إجراءات المحاكمة، حرية الاجتماع، عدم فرض ضرائب بدون ممثلين البرلمان) وليس إقرار حقوق جديدة.

وكانت النتيجة ثورة منضبطة. وكان أسوأ ما عانى «المحافظون» الأمريكيون النفى والتجريد من الأملاك. ولم تكن هناك محاكمات وإعدام صورى فى فيلادلفيا، كتلك التى شهدتها باريس. بل أطلقت الثورة موجة من وضع الدساتير. ففى غداة «إعلان الاستقلال» فى سنة ١٧٧٦م، شرعت كل ولاية فى وضع دستور لها والتزمت الولايات معًا بـ «بنود التحالف» (١٧٨٣م). ثم التقت الولايات معًا فى فيلادلفيا فى سنة ١٧٨٧م لوضع دستور قومى يسمح بالتوافق على درجة من التحكم المركزى فى ظل الحقوق القديمة للولايات. وعاش الآباء المؤسسون ليتدبروا ما صنعت أيديهم فى شيخوختهم المطمئنة.

لا شك أن الثورة الأمريكية عنت ما هو أكثر من الدفاع عن الحريات البريطانية القديمة. إذ أدرك الآباء المؤسسون شيئًا فشيئًا أن هناك شيئًا مطلوبًا منهم أكثر من الدفاع عن الأمر الواقع، وأنهم كما أعلن چون چاى النيويوركى «أول من حبت السماء بفرصة اختيار أنماط الحكم الذى يعيشون فى ظله».[٥] وكانوا يولون لضمان الحرية بصورة عامة اهتمامًا أكبر من مجرد الدفاع عن حقوقهم التى يكفلها الدستور البريطانى القديم. فطالعوا أعمال لوك ومونتيسكيو وبلاكستون. إلا أن الحرية التى كانوا يبغون كانت نوعًا معتدلاً من الحرية: أكبر قدر ممكن من الحرية للأفراد حتى يحققوا أهدافهم

غير مقيدين بتدخل حكومى. وكان هذا الالتزام الأكبر بالحرية المدنية هو الذى أضفى على الثورة الأمريكية حافتها المحافظة، إذ فرض حدوداً لطموحات الحكومة. ولم يكن الحكم على أداء الحكومة بقدرتها على نشر الفضيلة أو الرخاء، بل بقدرتها على ترك الناس يسعون لتحقيق أهدافهم الخاصة. لم يكن لدى الآباء مخزون من الأفكار القديمة عن النخب الأرستقراطية الفاضلة، ولم يكن لديهم شك فى حسن الطوية الفطرى لدى الجماهير أيضًا.[٦] كتب ماديسون فى العدد ٥١ من «[أوراق] الفيدرالى ـ Federalist» يقول: «لو كان البشر ملائكة لما كان هناك داعٍ للحكومة . . . ولو كان يمكن للملائكة أن يحكموا البشر، لما كان هناك داعٍ لوجود سيطرة خارجية أو داخلية على الحكومة».

بهذه الروح رأى الآباء المؤسسون فى الديمقراطية وسيلة لغاية أسمى، لا كغاية فى حد ذاتها ـ هذه الغاية الأسمى هى الحرية. وحرصوا على وضع نظام يحمى مما قد ينجم عن الديمقراطية من «فوضى وحماقة». فلجأوا لتقسيم السلطات (ضمن ضمانات أخرى) للحيلولة دون أكثر أخطار الديمقراطية انتشاراً وهى ظلم الأغلبية للأقلية وخطف الأقلية للحكم، وانتخاب نواب يقدمون مصالحهم الخاصة على مصالح الشعب. وأنشأوا مجلسًا للشيوخ يتم تعيين نوابه مبدئيًا من قبل الولايات بدلاً من انتخابهم مباشرةً بهدف إيجاد «كابح ضد التأرجح الشعبى». وأقروا مبدأ الفيدرالية (الاتحادية) حتى يضمنوا اتخاذ القرارات على أدنى مستوى ممكن. وكانت لديهم بالطبع فكرة محدودة نوعًا عمن يشكلون قوى «الشعب»: فلم يكن مسموحًا مثلاً للمرأة والمعدمين والعبيد بالتصويت. وكان التعقيد سمة واضحة للأطر التى وضعها الآباء المؤسسون. ففى حين كانت فترة نواب مجلس الشيوخ ست سنوات حتى تتكون لديهم نظرة عميقة للأمور، اقتصرت فترة أعضاء مجلس النواب على سنتين حتى يكونوا أكثر التصاقًا بإرادة الشعب. والرؤساء كان ينتخبهم مجمع انتخابى لا بأغلبية الأصوات الشعبية لضمان الاهتمام بالولايات الأصغر.

وليس مستغربًا أن إدموند بورك، شيخ حركة المحافظين البريطانية، كان معجبًا بالثورة الأمريكية قدر بغضه شقيقتها الفرنسية. فكان يرى أن الفرنسيين انتهى بهم المطاف إلى إحداث كوارث لأنهم كانوا يناضلون من أجل الحرية المجردة ولأنهم كانوا

يريدون استغلال الحكومة لإعادة صوغ الطبيعة البشرية. أما الأمريكيون، فكانت ثورتهم ناجحة؛ لأنهم كانوا يناضلون فى سبيل الحريات الحقيقية للشعب الحقيقى، من أجل نمط الحياة المستقر فى أمريكا فى مواجهة الطموحات المتنامية لسلطة تعسفية، وعدلوا حكومتهم لتلائم الطبيعة الإنسانية، ولم يغب عنهم أن مهمة الحكومة حماية الفرد فى مسعاه الخاص نحو السعادة.

خطة عمل لليمين

أصاب بورك إذ رأى الجوهر المحافظ وراء الكلمات الثورية. وسواء بالصدفة أو عن قصد، ساعد الدستور على دفع أمريكا باتجاه محافظ (وفى النهاية بعيدًا عن الاشتراكية) بطريقتين: فرض حدود لسلطة الدولة المركزية ومنح سلطات متفاوتة للولايات الريفية.

جاء عدم الثقة فى الحكومة إلى أمريكا على متن أول سفينة إنجليزية. فكان المتطهرون [البيوريتانز] الذين استقر بهم المقام فى نيوإنجلاند هاربين من هيمنة الكنيسة الأنجليكية، وسرعان ما تبعتهم فصائل أخرى من المنشقين الدينيين بما فيهم الكاثوليك. واعتاد المستعمرون على تجاهل القواعد التى كانت من صنع لندن. فوصف السير روبرت والپول أول رئيس وزراء لبريطانيا الحكم البريطانى للمستعمرات الثلاث عشرة بأنها منظومة من «الإهمال المفيد»؛ وكانت محاولة تحويلها إلى منظومة حقيقية من الحكم الإمپريالى هى التى عجلت بالثورة. وحتى فى أثناء الثورة كان مجلس النواب القارى [الأمريكى] غير مستعد لإمداد چورچ واشنطن بالرجال والمواد اللازمين لقتال الإنجليز.[٧]

وأعاد الأمريكيون التأكيد على إيثارهم «الإهمال المفيد». وفى السنوات الأولى للجمهورية، حسمت المعركة بين جمهوريى الحكومة الصغيرة والاتحاديين لصالح الجمهوريين. وفى خطابه الرئاسى الأول فى سنة ١٨٠١م، أكد جيفرسون على التزامه بـ «حكومة رشيدة ومقتصدة تمنع الناس من إيذاء بعضهم البعض، وفيما عدا ذلك تتركهم أحرارًا فى تنظيم سعيهم لأعمالهم وتحسين أوضاعهم، ولن تسلب العامل ما

اكتسب من رزق». ويبدأ البرنامج الحزبى الديمقراطى لسنة ١٨٤٠م، وهو أول وثيقة من نوعها، بالكلمات التالية: «من الثابت أن الحكومة الاتحادية ذات سلطات محدودة . . . » وبعد ذلك بعشرين سنة، وفى أول برنامج حزبى لهم، أصدر الجمهوريون ملحوظة فوضوية مماثلة ضد السلطة: «من الثابت . . . أن الشعب ينظر بقلق إلى الإسراف الأرعن الذى يسود كل وزارة بالحكومة الاتحادية . . . ». (٨)

والطريقة الأخرى التى دعم بها النظام السياسى الأمريكى النزعة المحافظة، أنه أعطى أكثر عناصر أمريكا محافظة نصيبًا من السلطة أوفر من حصتها الشعبية. وكان الجنوب الأمريكى ـ وهى منطقة تسيطر عليها أصلاً أرستقراطية من أصحاب المزارع وراسخة فى نظام العبودية ـ هو القوة السياسية السائدة فى البلاد بين الثورة والحرب الأهلية. فكان كل من جيفرسون وماديسون وواشنطن من أصحاب العبيد. وفى فترة السنوات الثنتين والسبعين الفاصلة بين ١٧٨٩ و١٨٦١م، قدم الجنوبيون عشرة من ستة عشر رئيسًا، وأربعة وعشرين من ستة وثلاثين رئيسًا لمجلس النواب، وعشرين من الخمسة والثلاثين من قضاة المحكمة الدستورية العليا. (٩)

وضعت الحرب الأهلية و «إعادة البناء» نهاية عنيفة لسيطرة الجنوب. لكن عبقرية الجنوب فى السياسة تأكدت من جديد فى النصف الأول من القرن العشرين. وكانت حقيقة أن الجنوب ديمقراطى بحت تعنى أن نواب مجلس شيوخ الإقليم بوسعهم أن يتحولوا إلى «مؤسسات بشرية بلكنات جنوبية» وأن يعاد انتخابهم فترة بعد أخرى بفضل نظام الأقدمية الصارم بالمجلس، وأن يعينوا فى رئاسات كافة اللجان المهمة. (١٠) وحين وصل ليندون چونسون إلى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٤٩م، لم يكن هناك سوى لجنة واحدة من لجان مجلس الشيوخ الثلاث عشرة لا يرأسها جنوبى أو حليف حميم للجنوب. وشكل الديمقراطيون الجنوبيون المحافظون كتلة تصويتية قوية مع جمهوريى الشمال لحماية الممارسات العنصرية الخاصة بالإقليم وإحباط الإصلاحات الليبرالية الطموحة.

ساعدت ممارسة إعطاء كل ولاية نائبين فى مجلس الشيوخ بغض النظر عن تعداد سكانها على تعزيز ميول أمريكا المحافظة. فالولايات الريفية ذات السكان القليلين مثل

وايومنج ومونتانا، لها كلمة في مجلس الشيوخ مثل ما لكاليفورنيا أو نيويورك، مما أدى بالضرورة لتضخيم تأثير الناخبين الريفيين في الغرب والغرب الأوسط والحد من تأثير الناخبين من الحضر على السواحل وفي الحزام الصناعي. فظل أعضاء مجلس الشيوخ من الولايات الصغيرة يعملون طوال التاريخ الأمريكي على إحباط الخطط الاتحادية التي يفضلها مجلس النواب. ويتحيز نظام المجمع الانتخابي للجانب المحافظ في انتخابات الرئاسة للسبب نفسه، وهو ما اكتشفه آل جور في سنة ٢٠٠٠م، عندما فاز بالصوت الشعبي بهامش معقول، ولكنه مع ذلك خسر البيت الأبيض.

لم يحدث هناك

إذا كان الدستور عزز القوى الأكثر محافظة في البلاد، فإنه أيضًا أضعف القوى الأكثر راديكالية. وازدهرت الأحزاب الاشتراكية في كل دولة مهمة في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحشدت دعمًا هائلاً لتوسيع سلطة الدولة لتقديم خدمات دولة الرفاهية (كالمعاشات) والحد من سلطة السوق في آن. أما في أمريكا، فقد بعثر الاشتراكيون بذورهم في قفار.

وكان هذا الفشل يرجع لأسباب آلية. فالنظام الانتخابي والتركيز على الرئاسة وفصل السلطات، جعلت من المستحيل على أي حزب ثالث أن يتحدى الاحتكار الثنائي. كما أن قصر حق الانتخاب على الذكور البيض، والذي طبق في بعض الولايات في عشرينيات القرن التاسع عشر، منع الاشتراكيين من ربط مطالبتهم بالتغيير الاقتصادي بحق الانتخاب العام كما فعلوا في أوروبا.

ومع ذلك، ففشل الاشتراكيين كان أيديولوجيًا أيضًا. ففي أمريكا وجدوا طبقة عمالية لا تبدي حماسًا كبيرًا للأفكار الاشتراكية. وفي سنة ١٨٩٠م، أبدى فريدريك إنجلز سخطه لأن «أمريكا برجوازية صرفة، وبلا ماض إقطاعي، وبالتالي فهي فخورة ببنيتها البرجوازية». ومن الغريب أن اليساريين الذين تمكنت أمريكا في النهاية من إفرازهم، تشبثوا بالنزعة الفردية على خلاف نظرائهم الأوروبيين. وقبيل الكساد العظيم، كان هرم العمل الأمريكي بأكمله من نقابات الاتجاه السائد في «اتحاد العمال الأمريكي» إلى «عمال العالم الصناعيين» الراديكالي، يعارضون الخطط الرامية لتوسيع

دور الدولة. وكان «اتحاد العمال الأمريكى» يعارض تقديم الدولة معاشات المسنين والتأمين الصحى الإجبارى وتشريع الحد الأدنى للأجور وتعويض البطالة، ومن ١٩١٤م وقف ضد سن تشريع يضع حداً أقصى لساعات عمل الرجال.[١١] وكان اهتمام معظم اليساريين الأمريكيين بالحصول على نصيبهم العادل من الحلم الأمريكى يفوق اهتمامهم بإنشاء تجمع اشتراكى.

وفى ١٩٢٩م، يأس جوزيف ستالين من تقدم الاشتراكية فى أمريكا، حتى استدعى چاى لڤستون رئيس الحزب الشيوعى الأمريكى إلى موسكو لتفسير فشله. وقدم لڤستون العذر نفسه الذى قدمه إنجلز، حيث ألقى باللائمة على عدم وجود نظام طبقى أوروپى وأرستقراطية وما إلى ذلك.[١٢] والحقيقة أن الكساد العظيم أدى فى النهاية إلى «أورپة» السياسة الأمريكية قليلاً. وأدت «الصفقة الجديدة» إلى تمدد هائل فى سلطات الدولة لتشمل فرض الضرائب والإنفاق والتشريع، وفرض نظام تأمين اجتماعى لمساعدة المسنين، والهيئات الحكومية لمراقبة شئون الأعمال. وشهدت عضوية النقابات طفرة من ثلاثة ملايين فى سنة ١٩٢٧م (٣,١١ ٪ من القوة العاملة غير الزراعية) إلى أكثر من ثمانية ملايين فى سنة ١٩٣٩م (٦,٢٨ ٪ من القوة العاملة غير الزراعية).[١٣] كما وطدت النقابات علاقتها بالحزب الديمقراطى.

وعلى الرغم من كل ذلك، كان أغرب ما فى «الصفقة الجديدة» اعتدالها، إذا أخذنا فى الاعتبار الكارثة التى كانت أمريكا تواجهها. وخاب رجاء الفابيين الأمريكيين الذين توافدوا على واشنطن فى عهد روزڤلت بحلم إنشاء تخطيط مركزى. وكان روزڤلت يؤثر التقنين على السيطرة الكاملة من جانب الدولة ويقاوم الدعوات التى تنادى بتأميم النظام المصرفى المتحلل. وناضل أعضاء مجلس النواب للإبقاء على سلطة الحكم المحلى. وتردد الجميع فى جعل شبكة الأمان يسيرة أكثر من اللازم. فاستبعد قانون التأمين الاجتماعى لسنة ١٩٣٥م العمال الزراعيين وخدم البيوت، فترك بذلك العديد من فقراء الزنوج فى العراء. وفى سبتمبر ١٩٣٥م، استطلعت «هيئة جالوپ للاستطلاع» التى كانت حديثة النشأة، آراء الأمريكيين عن مقدار ما تنفق الحكومة من أموال على الإغاثة والإعانة فى تصورهم. فكان من قالوا إن الحكومة تنفق أكثر من اللازم ضعف من أجابوا بأنها تنفق الكم المعقول. وأجاب واحد من كل عشرة بأنها تنفق أقل من اللازم. وبعد إعادة انتخاب روزڤلت، قال ٥٠ ٪ من الديمقراطيين إنهم

كانوا يتمنون أن تكون إدارته الثانية أكثر محافظة من الأولى، ولم يجب بأنه يريدها أكثر ليبرالية إلا ١٩ ٪ فقط.[١٤]

أدى غياب حزب اشتراكى إلى وضع الولايات المتحدة على طريق مختلف تمامًا عن منافسيها الأوروبيين. ولم يكن الانفاق الاجتماعى فى الولايات المتحدة أقل منه فى أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية. ففى سنة ١٩٣٨م، أنفقت إدارة روزفلت ٦,٣ ٪ من إجمالى الناتج المحلى على الخطط الاجتماعية كتأمين البطالة والتوظيف الحكومى، وهى نسبة تفوق ما أنفقته حكومات السويد (٣,٢ ٪) وفرنسا (٣,٤ ٪) والمملكة المتحدة (٥,٥ ٪) وألمانيا (٥,٦ ٪).[١٥] لكن كل شىء بعد الحرب شهد تحولاً جذريًا. ففى أوروبا، اغتنمت الأحزاب الاشتراكية التى ظلت تستجمع قواها منذ سنوات فرصة إعادة البناء التى أعقبت الحرب لتفرض خططًا اجتماعية واسعة النطاق. أما فى أمريكا، فقد ترددت الحكومة فى إدخال نظام رعاية الطفل المجانية، ناهيك عن خدمة صحية قومية شاملة. ولم يقدر لمحاولتى أمريكا الرئيستين لتقديم تغطية صحية ـ ميديكير وميديكيد ـ أن تظهر إلا بعد ذلك بربع قرن. وعندما جاء رونالد ريجان إلى البيت الأبيض فى انتخابات ١٩٨٠م راكبًا موجة من الرفض المحافظ لـ «تمدد دور الحكومة» كانت الولايات المتحدة تتمتع بانخفاض معدل الضرائب وانخفاض فى العجز بالنسبة لإجمالى الناتج القومى ونظام رعاية اجتماعية أقل تطورًا ونسبة من الصناعات المملوكة للحكومة أقل من سائر الدول الصناعية الغربية.

بهذه الصورة يبدو الأمر كأن أمريكا حرمت من أن تتكون فيها حركة اشتراكية صحيحة. ولكن كانت هناك دائمًا ثلاث قوى أخرى تحافظ على أن تبقى أمريكا على اليمين، قبل أن تكتشف وجود حركة محافظة، وهى الدين والرأسمالية، والأهم منهما الجغرافيا.

باسم الله

ما الذى يجعل الأمريكيين على هذا القدر من التدين؟ السبب الظاهر هو أن الدين لعب دورًا كبيرًا فى ميلاد البلاد ونشأتها. فالمستعمرات الأمريكية الأولى أنشأها البيوريتانز المنشقون الذين وجدوا فى الأرض الجديدة فرصة للفرار من الاضطهاد

الدينى ولممارسة شعائرهم الدينية بأقصى ما يمكنهم. والتعديل الأول للدستور كفل «حرية التعبير» عن الدين بوجه خاص. وأوفت البلاد بهذا الوعد بصورة عامة، إلا أن من ظلوا يشعرون بالتفرقة، لا سيما المورمون ساعدوا على توجيه الدفة غربًا قى القرن التاسع عشر.

والسبب الآخر لتدين أمريكا قد يبدو أغرب؛ وهو أن أمريكا نشأت كدولة علمانية. والتعديل الأول نفسه للدستور، والذى كفل حرية ممارسة الدين، يمنع مجلس النواب من سن أى قانون «يمجد أية مؤسسة دينية». ففصل الدين عن الدولة يميز أمريكا عن «الدول الطائفية»(*) الأوروبية. ويبدى العديد من المحافظين المتدينين سخطهم من أن هذا الفصل يقصى الدين بغير حق عن الحياة العامة. وكثير من أشد أنصار الفصل حماسًا ليبراليون. إلا أن فصل الدين عن الدولة ساعد فى الحقيقة على الحفاظ على الدين كقوة نشطة (ومحافظة عادةً) فى الحياة الأمريكية.

أدى منع «الكنيسة المؤسسة» إلى حقن قوى السوق فى الحياة الدينية الأمريكية، فلم تتمكن التنظيمات الدينية من الركون إلى الدولة للحصول على دعم على غرار كنيسة إنجلترا مثلاً، فكان عليها أن تتنافس من أجل البقاء. وكان هذا ما تنبأ به جيفرسون الذى كان أحد أقوى أنصار منع «الكنيسة المؤسسة». وفى خطابه أمام المجلس التشريعى فى سنة ١٧٧٦م، قال إن حرية التدين تقوى الكنيسة لأنها «تجبر قسسها أن يكدحوا ويكونوا قدوة».(١٦) وكان التدين الأمريكى يفرز دائمًا كنائس جديدة تسوق الدعوة بشكل أفضل بطريق المنافسة. فعلى سبيل المثال «الصحوة الكبرى»(**) فى أربعينيات القرن التاسع عشر، ألغى الإحيائيون القداسات اللاتينية («فكلها حركات ولا دين فيها») وابتكروا الأناشيد الإنجيلية المثيرة.(١٧) كما أدى منع «الكنيسة المؤسسة» إلى رفع عبء ثقيل عن كاهل الدين. فما من سبيل لتشويه الدين أقوى من تركه يتوقف على نزوات الساسة. وما من طريقة أنجح لإضعاف الدين من ربطه بالوظائف والترقيات. ومن النعم، أن أمريكا كانت خلوًا من الكهنة من أمثال آل ترولوب الذين كانوا لا يكفون عن المناورة من أجل الترقيات الرسمية. كما خلت من الصراعات على السلطة

(*) التى تعتمد طائفة مسيحية مذهبًا للدولة، مثل الكنيسة الأنجليكانية فى إنجلترا.

(**) هى الصحوة الدينية الكبرى الثانية، أما الأولى، فكانت فى القرن الثامن عشر، والثالثة فى مطلع القرن العشرين، فكأن فى كل قرن كانت هناك صحوة دينية كبرى فى أمريكا.

والتى أضعفت الكنيسة الكاثوليكية؛ ولنتذكر مقولة اللورد آكتن بأن «السلطة فساد، وأن السلطة المطلقة فساد مطلق» أتت من وصفه بابوية العصور الوسطى. فلم يكن أمام كنائس أمريكا ما تركن إليه لضمان بقائها سوى قوتها الروحية.

كانت الجماعات الدينية التى تمكنت من البقاء بجدارة فى الوسط التنافسى بأمريكا أكثرها «حماسًا»، أى تلك التى كانت جادة فى إيمانها ونشرت دعوتها بأقوى صورة. وحتى اليوم يبدل الأمريكيون أديانهم بسرعة؛ فغير ما يقرب من ١٦ ٪ طوائفهم [المسيحية»]، وتزداد النسبة بزيادة أصولية العقيدة، وهناك دراسة تبين أن نصف القسس فى الكنائس الكبرى متحولون من طوائف أخرى.[١٨] ويرى البعض أن أمريكا الآن فى منتصف «صحوتها الكبرى الرابعة»؛[١٩] لكن الحقيقة أن هذه الصحوات الكبرى متكررة وطويلة لدرجة أنه لم تكن هناك فترة غفوة لتعقبها صحوة. فالنزعة الإحيائية لا تحتاج لإحياء؛ فهى حقيقة متصلة فى الحياة الأمريكية.

والولع الأمريكى بالدين لم يكن فى صالح المحافظين كليةً. فمن أكثر الفئات تدينًا فى البلاد ـ وهى أيضًا من أكثرها ديمقراطية ـ هى فئة الأمريكيين الأفارقة. وهناك اثنان من أبرز ساسة اليسار هما چيسى چاكسون وآل شارپتون، وكلاهما من الكهنة (شارپتون رُسم فى سن العاشرة). وحركات الاحتجاج على طول التاريخ الأمريكى بها عنصر دينى. والخط الحديدى تحت الأرض، والذى ساعد العبيد على الفرار إلى الشمال والحرية، كان يديره مجرمون مقدسون. وكان ويليام چننجز براين، أبو النزعة الشعبية، واعظًا من عامة الناس. وكان أهل الدين فى طليعة الكفاح فى سبيل الحقوق المدنية من أجل المرأة والسود. وفى حملة ٢٠٠٠م الانتخابية، تحدث آل جور عن الاستعانة «بالتنظيمات القائمة على الدين» للمساعدة فى حل مشكلات أمريكا الاجتماعية بحماس لا يقل عما أبداه جورج بوش.

كان تدين أمريكا عبر تاريخها يشجع الأمريكيين على رؤية مشكلاتهم من منظور الفضائل والرذائل الفردية. كما كان يشجعهم على محاولة حل مفاسد المجتمع من خلال النشاط التطوعى بدلاً من تدخل الدولة. ولاحظ كالڤين كولتون الإنجليزى الذى زار أمريكا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أن فصل الدين عن الدولة أدى لنشأة «نمط جديد من التنظيم الاجتماعى لم يكن معروفًا من قبل فى التاريخ».[٢٠] وتولت

التنظيمات الطوعية فى أمريكا مهام كانت تؤديها فى أوروبا إما الدولة أو الكنائس التى تمولها الدولة. وأقامت الجماعات الدينية نظمًا محكمة من العمل التطوعى. فالكنيسة الكاثوليكية مثلاً أقامت دولة رفاهية منفصلة، عالم مواز بمدارسه ومستشفياته ومساعداته للفقراء والبؤساء. وكان العديد من هذه الجماعات التطوعية شديد الارتياب فى التدخل الحكومى. ففى سنة ١٩٣١م، مثل رئيس اللجنة المركزية للصليب الأحمر أمام مجلس النواب لمناقشة اقتراح بتخصيص الحكومة الاتحادية مبلغ ٢٥ مليون دولار لإغاثة ضحايا الجفاف وقال: «كل ما نتمنى أن تدعونا لحالنا وتتركونا ننجز المهمة». (٢١)

كما ساعد التدين على تعزيز الوطنية فى أمريكا. فالجماعات الدينية التى فرت لأمريكا، كان لديها منذ البداية شعور قوى بأنها استقرت فى مكان له دور كتبه الله فى خطته ـ مدينة على التل، منارة للعالم. ولطالما اعتبرت أمريكا نفسها أمة مخلِّصة. فيروى عن ليمان بيتشر أحد قساوسة القرن التاسع عشر أنه قال: «أمة بعد أمة ستقتدى بنا وتتبع خطانا إلى أن تتحرر الأرض كلها»، فالوطنية والتدين يعزز كل منهما الآخر. لذا تمكنت الجماعات الدينية إبان رئاسة أيزنهاور من إضافة عبارة «فى رعاية الله ـ Under God» (وهى عبارة وردت فى خطاب لينكولن فى جتسبرج) إلى «يمين الولاء» الذى كتب نصه الأصلى المعلم الاشتراكى فرانسس بيلامى، حسب قول المحافظين. (٢٢)

الدولار العظيم

إذا كان الرب قدَّر على أمريكا النزعة المحافظة فكذلك قدر عليها سلطان المال. فلماذا تغامر بمصيرك مع الراديكاليين طالما أمكنك أن تتحرك ببساطة غربًا؟ لماذا تزعج نفسك بالثورة مادمتَ فى رغد فى ظل النظام القائم؟ يعبر ويرنر سومبارت عن ذلك بقوله إن سفينة الاشتراكية الأمريكية جنحت على «صخور الشواء وفطير التفاح».

كانت أمريكا دومًا أرض الوفرة. فمنذ القرن السادس عشر وزوارها يتغنون بما تتمتع به البلاد من وفرة فى كل شىء؛ وفرة فى الأرض تسمح للناس بامتلاك بيوتهم

وإعالة أسرهم؛ ووفرة فى الطعام تجعلهم أفضل سكان العالم تغذيةً؛ ووفرة فى الفرص تسمح بالحراك لأعلى. فى أوروبا كثرة من الناس تطارد فرصًا قليلة، بينما فى أمريكا قلة من الناس تستغل كل ما توفره البلاد من خير. فى ثمانينيات القرن الثامن عشر، قال السائح الفرنسى چيه. هكتر سان چون دى كريڤكور: «هناك مكان لكل الناس فى أمريكا . . . لا أقصد أن كل من يأتى سيصيبه الثراء فى وقت قصير؛ بل أقصد أنه سيكسب رزقًا طيبًا وسهلاً بحرفته». وفى سنة ١٨١٧م علق ويليام كوبيت الناقد الإنجليزى على أنظمة الغذاء [الرچيم] فى أمريكا قائلاً: «لستَ مضغوطًا بشدة حتى تجد الطعام والشراب، لكنك ستجد أمامك وفرة تدفعك لأن تتحلل من كل القيود». وفى سنة ١٨٣١م، قال ألكسى دى توكڤيل أول من تحدث بشكل مفصل عن استثنائية أمريكا إن الحظ «حبا الأمريكيين بخير وفير». [٢٣]

هذه الفروق باتت أكثر وضوحًا باختراع الإنتاج الكمى؛ فالأمريكيون وببساطة لديهم أشياء أكثر من غيرهم: سيارات أكثر، هواتف أكثر، أجهزة راديو أكثر، مكانس كهربائية أكثر، لمبات كهربائية أكثر، أحواض استحمام أكثر، أسواق أكثر، دور عرض سينمائى أكثر، كثرة فى كل اختراع أو استحداث يجعل الحياة أكثر احتمالاً. يقول هيتش. چى. ويلز فى كتابه «المستقبل فى أمريكا ـ The Future in America» (١٩٠٦م). «حتى فى الشوارع الخلفية على الجانب الشرقى» بنيويورك الناس أفضل حالاً من أقرانهم فى لندن. [٢٤] وفى أثناء إقامته فى نيويورك فى سنة ١٩١٧م، انبهر ليون تروتسكى بالكماليات فى شقته الرخيصة فى شرق برونكس: «لمبات كهربائية وموقد غاز وحمام وهاتف ومصعد خدمات، بل أنبوب للقمامة أيضًا». كل هذا أغراه بجلب أبنائه إلى نيويورك. [٢٥] وقال فرانكلين روزڤلت إنه لو تمكن من وضع كتاب أمريكى واحد فى يد كل روسى؛ فإنه سيختار كتالوج محلات سيرز. [٢٦]

وبقدر وفرة السلع المادية، هناك وفرة فى الفرص. فمعظم سكان أمريكا على طول تاريخها يتوقعون أن يحققوا الثراء فى حياتهم ـ ويتوقعون لأبنائهم أن يحققوا ثراء أكبر. فارتفعت النفقات الاستهلاكية للفرد فى الفترة من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٩م بنسبة ٤٥٪ ثم بنسبة ٥٢ ٪ أخرى من ١٩٢٩ إلى ١٩٦٠م. [٢٧] فمحركان التوأمان للنمو الاقتصادى ـ النمو الجغرافى نحو أراض جديدة فى الغرب والنمو التقنى نحو آفاق

جديدة من الإنتاج ـ أديا لإيجاد مصدر دائم للفرص الجديدة. وفى الوقت نفسه، كان تدفق المهاجرين الجدد يسد الأماكن الشاغرة فى قاع السلم. كل فرد فى البلاد ـ قديم أو جديد، مهاجر أو مقيم، طبقة متوسطة أو بروليتاريا محرومة من حقوقه الاجتماعية والسياسية، من جد إيطالى أو شريف أبيض ـ كانت تحركه دوافع واحدة، هى الرغبة فى تحقيق الربح وادخار المال والتقدم فى حياته والتباهى بالثروة كدليل على ما حقق من تقدم.

وكان حريّا بشعب الوفرة أن يولى ثقته لا فى الدولة، بل فى من أمدوه بالوفرة، رجال الأعمال. فالرأسمالية جاءت إلى أمريكا مع المستوطنين الأوائل. والبلاد عمرتها الشركات اللاهثة وراء الربح: شركة ڤيرچينيا، شركة خليج ماساشوستس، والشركة الملكية الإفريقية لتجارة الرقيق بما أحدثته من تشويه لمستقبل البلاد (تسمت نيويورك على اسم رئيس هذه الشركة، چيمس دوق يورك).[٢٨] حتى البيوريتانز الذين جاءوا لأسباب دينية لا تجارية كانت لهم أطر ذهنية رأسمالية. وهناك دائمًا استثناءات من هذا الحماس للرأسمالية، كمزارعى الجنوب وأنصار حزب الشعب ومايكل مور، إلا أن أمريكا بوجه عام لم تول اهتمامًا كبيرًا لازدراء أوروبا للأعمال. فالأمريكيون يحتفون بالعبقرية الخلاقة لرجال الأعمال قدر احتفاء الفرنسيين بالعبقرية المبدعة للفنانين والمثقفين. وأدرك رونالد ريجان هذه النقطة تمامًا، فهو كشخصية إعلانية لشركة «چنرال إلكتريك» فى الخمسينيات، كان يحب أن يقول إن إنتاج الشركة الأول هو التقدم.[٢٩] وكانت الكتب الدراسية بالمدارس الأمريكية تروى حكايات عن العبقرية العملية لرجال من أمثال هنرى فورد وتوماس أديسون (وستحتفى ذات يوم دون شك بعبقرية بيل جيتس العملية). فالغريزة الأولى لدى صناع القرار الرجوع للوراء لإفساح المجال اللازم لرجال الأعمال لممارسة عبقرياتهم الخلاقة.

وأمريكا دائمًا أكثر ميلاً من أوروبا لترك العمل العام لنزعة الخير الخاصة كى تموله. والبلاد ملأى بالآثار الدالة على حب الخير لدى أمة الأعمال: جامعات كبرى مثل ستانفورد وشيكاغو، ومعارض فنية كبرى مثل جيتى وفريك، ومراكز بحثية طبية كبرى كجامعة روكفلر. وكل من هذه الآثار نتاج ثروة خاصة كبرى ترجمت إلى خير عام كبير. ولكل من هذه الآثار الكبرى هناك ألف عمل خيرى صغير لرتق ما يتمزق فى

ثوب المجتمع. كان أندرو كارنيجى وجون روكفلر الكبير وبقية بارونات النهب رجال عنيدين، دمروا منافسيهم وحطموا النقابات العمالية. ولكنهم كانوا محبين لأعمال الخير فى الوقت نفسه. فكان كارنيجى يتحدث عن حب الخير كدين؛ ومقولته بأن «الرجل حين يموت غنيًا يموت مهانًا» أصبحت موضة بين رفاقه من بارونات النهب، فصبوا الأموال صبًا فى الجامعات والمعارض الفنية وكليات الطب، وهى ظاهرة ظلت باقية لدى ملياردیرات التكنولوجيا الجدد اليوم.

وصلت فكرة أن الثروة تجر فى أعقابها المسئولية إلى ما هو أعمق من المليارديرات. فالأمريكيون على اختلاف درجات ثرائهم يجودون بسخاء فائق بمالهم. فحتى حين كان روكفلر موظفًا فقيرًا، كان يتصدق بنسبة معلومة من دخله. والأهم أن الأمريكيين يجودون بسخاء بوقتهم. فالتنظيمات الطوعية التى أنشئت لحل مشكلات المجتمع ازدهرت فى الولايات المتحدة ربما بشكل أكبر من أى بلد آخر. والإسهامات الخيرية الأمريكية تمثل اليوم ١ ٪ من الدخل القومى مقارنةً بنسبة تتراوح بين ٠,٢ ٪ و ٠,٨ ٪ فى أوروبا.[٣٠] ويفضل الأمريكيون أن يتصدقوا بمالهم بأنفسهم عن أن يتركوا المهمة لحكومتهم؛ فالمعونات الأجنبية تمثل نسبة محزنة من نفقات الحكومة.

هذا التراث من حب البر ساعد أمريكا على معالجة مشكلاتها الاجتماعية دون بناء دولة رفاهية على الطراز الأوروبى، وأن تعانق الحداثة دون أن تتخلى عن مواريثها من التطوعية واللا مركزية والتجربة. وأبلت البلاد بلاءً حسنًا فى إيجاد بنية تحتية قومية قبل إقرار ضريبة الدخل فى سنة ١٩١٣م. وحتى مع نمو الحكومة الاتحادية فى ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته وازدهارها نتيجة للحرب والكساد والمثالية، تبنت أمريكا التوجه المحافظ بضرورة عدم السماح للقطاع العام بمزاحمة القطاع التطوعى.

جاذبية الغرب الأمريكى

تكمن جذور النزعة المحافظة الأمريكية فى أكثر الأشياء أصالة فى أى بلد، جغرافيته. وأمريكا رابع أكبر بلد فى العالم من حيث المساحة، والغريب بالنسبة لهذه المساحة الشاسعة أن ثلثيها بالتمام والكمال قابل للسكنى. إنها أرض المساحات

المفتوحة الشاسعة؛ مكان يمكن للفردية القاسية أن تصير فيه فلسفة لا لفظًا مجردًا؛ حيث هناك فرصة دائمًا للبدء من جديد، ويمكن للنزعة المحافظة فيه أن تصبح أكثر تفاؤلاً ـ بل مثالية أحيانًا ـ عن أى بلد آخر.

تساعد الجغرافيا على تفسير السبب فى أن الهجرة التى تعد غالبًا من مصادر السخط فى الأماكن المكتظة كان لها تأثير معاكس فى أمريكا. وتاريخ كل مدينة كبرى فى أمريكا شابته نزاعات بين السكان الأصليين والوافدين الجدد. إلا أن المهاجرين دائمًا يعيدون إمداد الحلم الرأسمالى الأمريكى بدماء جديدة. (من الشعارات القديمة لجزيرة إليس «الجبناء لم يجيئوا قط، والضعفاء ماتوا فى الطريق.») ومعظم المهاجرين رأوا ـ ولا يزالوا يرون ـ فى أمريكا أرض اللبن والعسل مقارنةً بأوطانهم القديمة. وعانق معظمهم وطنهم الجديد بحماس المهتدين، واتبعوا طريق الحراك لأعلى بادئين من مناطق عرقية مغلقة (وهو ما كان له أثره فى تخفيف التضامن فى صفوف الطبقة العمالية أيضًا) ثم يشقون طريقهم نحو الضواحى والطبقة المتوسطة الكبرى الأمريكية. ولا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة أن أكثر الجماعات ميلاً لليسار فى أمريكا الزنوج، وهم الفئة الوحيدة التى لم تأت إلى البلاد عن طواعية.

وما أن وطأ الناس أرض أمريكا حتى ظلوا فى حركة دائبة. والهجرة الداخلية من أسرار نجاح أمريكا الاقتصادى. ومن وزراء حكومة مارجريت ثاتشر من حث عاطلى بريطانيا ذات مرة على «الخروج بدراجاتهم» للبحث عن عمل؛ وهى نصيحة لم يكن لها أى داع فى أمريكا؛ حيث هناك دائمًا مكان أفضل ينتقل المرء إليه. واليسار على حق فى إشارته إلى أن الهجرات الاقتصادية بعضها يحدث من باب اليأس؛ كما نرى فى حالة «توم چود» وعمال أوكلاهوما التعساء فى رواية «عناقيد الغضب ـ Grapes of Wrath». إلا أن الهجرة تعود دائمًا بالنفع على معظم المهاجرين بمرور الوقت. يقول فردريك چاكسون تيرنر فى بحثه «مكانة الحدود فى تاريخ أمريكا» (١٨٩٣م): «كانت برارى الغرب من جبال أليچينى إلى المحيط الهادى أغلى هبة مجانية أتيحت للإنسان المتحضر. ومثل هذه الفرصة لا يمكن أن تواتى بنى البشر مرة أخرى». ويقول أحد قدامى الجمهوريين فى كاليفورنيا وهو يتفرس فى الوجوه البيضاء التى اعتلاها الشيب وبدت عليها أمارات الرفاهية فى مؤتمر حزبه الإقليمى إن كلمة واحدة جالت بخاطره:

مزارعون مهاجرون. (يقصد بالكلمة نوعًا من الإهانة، لكنها تبين فى الوقت نفسه أن ذرية توم جود حققت شيئًا ذا قيمة).

ترك المهاجرون ماضيهم وراء ظهورهم ومعه كل مواريثهم المتراكمة فى العالم القديم. وتم تمييز العديد من المهاجرين لا بألقابهم بل بأسمائهم الأولى بل بكنياتهم إن أمكن - وهو تقليد لايزال ساريًا فى تكساس (ويتبدى فى عادة جورج بوش فى إطلاق اسم تدليل على كل من يعرف).[٣١] ويورد دانييل بورستون طرفة لأحد رواد تكساس تقول: «صحيح إن هذه الدنيا لا تقيم اعتبارًا للنظام المستقر للأشياء، بل تعصف بهم غربًا والتواءً وأسفلاً، لا بل إنها تعطى الأرض وخيرها للمحدثين».[٣٢]

إذا سألتَ الأمريكيين أين تريدون أن تسكنوا، لأجابك ١٣ ٪ بأنهم يودون العيش بالمدينة؛ ولأجابَتك الأغلبية - ٣٧ ٪ - فى بلدة صغيرة و٢٥ ٪ فى الضواحى.[٣٣] ويبدو أن معظم الأمريكيين يتمنون فى أعماق قلوبهم أن يسكنوا يومًا فى ضاحية مشمسة.[٣٤] وهم على حق فيما يتمنون. فنصف الأمريكيين يسكنون حاليًا فى ضاحية من نوع ما؛ وعلى النقيض من ذلك يصنف ثلثا السكان فى أوروبا كحضر. والضواحى الأمريكية مختلفة، فمدن الحواف الجديدة بها مكاتب إدارية أكثر وأماكن عمل أكثر ومهاجرون أكثر ومساحات أوسع وتنوع فى الضواحى من غنية وفقيرة أكبر كثيرًا من الأحياء النمطية الخاصة بالطبقة المتوسطة من النوع الذى يحيط مدن أوروبا الكبرى.

عززت قدرة العالم الجديد على تجديد نفسه، وعلى خلق عوالم جديدة من الامتداد الشاسع، خليط الفردية والتقليدية القديم فى قلب النزعة المحافظة الأمريكية. ويمكن اعتبار «حزام الشمس» الذى انبعث فى حقبة ريجان أمة جديدة. بدأت بلداته بدون أى من القصور والكاتدرائيات ودور المحفوظات والآثار التى تثقل كاهل الناس بذكريات الماضى. إنها أمة المدن الممتدة والسياسة الاجتماعية المتجددة والتجدد الذى لا يتوقف، أمة الكنائس العملاقة والأسواق الكبرى (المولات) التى تتراص فيها المحلات، أمة موسيقى الريف والغرب وسباق السيارات.

ومع ذلك فالعديد من أمة الأرض الجديدة ربطوا هذا التجدد بعطش حاد للدين وما يمثله من سلوى. وكان هذا الدين أكثر حدة من النوع الذى ازدهر على ساحل أمريكا الشرقى، فضلاً عن النوع الذى ازدهر فى أوروبا. دين لا يرى فى المال عارًا ينبغى

الاعتذار عنه، بل دليلاً على أنك تفانيت فى عملك فحظيت بنعمة الخالق ـ وهى فكرة ظلت باقية لفترة طويلة بعد أن أفسحت عربات القطار المجال لعربات الچيپ شيروكى. ففى يونيه ١٩٨١م، قال هربرت إلينجوود نائب مستشار رونالد ريجان أمام «ندوة النجاح المالى» فى أناهايم كاليفورنيا إن «الخلاص الاقتصادى والخلاص الروحى متلازمان». (٣٥) واقترح أحدنا ذات مرة أمام جماعة من المحافظين المسيحيين فى كولورادو أن المسيح كان فى حقيقته اشتراكيًا بصورة من الصور ـ فاضطر بعدها أن يقضى نصف الساعة التالية فيما يمكن وصفه بمحاضرة عاجلة فى الكتاب المقدس. ويميل هذا الدين فى الجنوب بصفة خاصة إلى إصدار الأحكام. فالرؤى الصوفية للإنجيل التى تتحدث عن الصفح عن تجاوزات البشر لا تحظى بما تحظى به ذرائعية العهد القديم من جاذبية؛ فمن يقدم على أعمال شريرة يُجازى بعقوبات شريرة. وكما يشير تى. آر. فيرنباك مؤرخ تكساس المعاصر الكبير، فإن الفقرات التى تركز عليها ولايته فى الكتاب المقدس هى «تلك التى رأى فيها بنو إسرائيل المن والسلوى فى البرية فجمعوا غُلف [جمع غُلفة، وهى جلدة الذكر التى تُقطع فى الختان](*) أعدائهم». (٣٦)

وفى الوقت نفسه، فالأرض الجديدة مرّست الأمريكيين على العنف. فكانت البنادق ضرورية لأناس يروضون قفاراً. وتحولت مجتمعاتها بسهولة إلى أقصى عقوبة ـ الإعدام ـ للحفاظ على نظام مزعزع، أو بالأحرى لاغتصاب الأرض فى المقام الأول. فكان بناة تكساس من أمثال چاك هيز و إل. هيتش. ماكنيلى يعتبرون أنفسهم محاربين لا قتلة. فبروح الغرب، كما يقول فيرنباخ «لم يكن هيز الذى أردى العديد من نساء الهنود الحمر بمجرد خروجهن من خيامهن، إلا قاتلاً لا يختلف عن ا لطيار قاذف القنابل الذى يلقى حمولته القاتلة على البيوت المزدحمة بالناس فى الحرب العالمية الثانية». (٣٧) وما أن تغتصب الأرض فإن عبء الدفاع عن النفس فى المنازعات يقع على عاتق الفرد. (إذا كان الفرد أضعف من أن يدافع عن نفسه فهذا من عسر حظه وكان عليه أن يلزم بيته.) إذن كانت هناك بشائر الرخاء وخطر الفوضى الماثل دومًا، ولا شىء يشجع الفكر المحافظ أكثر من ذلك.

(*) يشير الكاتب، من ضمن ما يشير، إلى قصة قتل نبى الله داود لمائتى فلسطينى، ثم قطع أعضاء ذكورتهم، ثم قطع غلفها، لتقديمها مهرًا لزواجه من ابنة الملك شاول، وذلك كما جاء فى الكتاب المقدس سفر: صموئيل الأول الإصحاح (١٨ : ٢٠ ـ ٢٩): **زواج داود من ميكال** « لكن ميكال ابنة شاول الصغرى=

هكذا كانت عناصر النزعة المحافظة كامنة دائمًا فى أمريكا، ولكن لم تنشأ بها أمة اليمين إلا فى أواسط القرن العشرين. ومنذ ذلك الحين صارت هناك مجموعة من الميول والأحكام المسبقة المحافظة تجسدت وتصلبت فاستحالت شيئًا ملموسًا. وفى معظم تاريخها لم تكن أمريكا بحاجة لحركة محافظة، لأنها شعب محافظ أصلاً. ونشأت هذه الحركة فى خمسينيات القرن العشرين حين بدأ الأمريكيون المحافظون فى الرد على التجاوزات التى أقدمت عليها «الليبرالية الحكومة الكبيرة» فى العقدين السابقين، وازدهرت فى الستينيات عندما حاول ديمقراطيو چونسون جر البلاد نحو اليسار. وحتى اليوم، فإن العداء لليبرالية - سواء بين المتدينين الجنوبيين من معارضى زواج الشواذ أو من قبل بيل أورايلى وهو يهاجم الأوروبيين على شاشة فوكس الإخبارية - يمثل جزءًا قويًا من نزعة أمريكا المحافظة. إلا أن النزعة المحافظة الأمريكية استحالت شيئًا مخيفًا لا مجرد رد فعل تلقائى؛ فهى فى الداخل والخارج أيديولوچيا تتميز بالوقائية العدوانية قدر تميزها برد الفعل الدفاعى. وهذه النزعة المحافظة الحديثة بطبيعتها الاستثنائية هى التى ننتقل إليها الآن.

***

= أحبت داود، فعلم شاول بالأمر وحظى ذلك برضاه. وقال شاول فى نفسه: «أزوجه منها فتكون له فخا، وكذلك يسعى الفلسطينيون إلى قتله». وقال شاول لداود مرة ثانية: «يمكنك مصاهرتى اليوم». وأمر شاول رجاله أن يسروا فى أذن داود أن الملك يحبه، وأنه محل إعجاب الحاشية، وأن ينصحوه بمصاهرة الملك، فراح عبيد شاول يسرون بهذا الحديث فى مسامع داود. فأجاب داود: «أتظنون مصاهرة الملك أمرا تافها؟ أنا لست سوى رجل مسكين حقير». فأخبر عبيد شاول سيدهم بحديث داود. فقال شاول لهم: «هذا ما تقولونه لداود: إن الملك لا يطمع فى مهر، بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين، انتقامًا من أعداء الملك». قال هذا ظنًا منه أن يوقع داود فى أسر الفلسطينيين. فأبلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك، فراقه الأمر، ولا سيما فكرة مصاهرة الملك. وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له، انطلق مع رجاله وقتل مئتى رجل من الفلسطينيين، وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهرًا لمصاهرة الملك. فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال وأدرك شاول يقينا أن الرب مع داود، وأن ابنته ميكال تحبه. فتزايد خوف شاول من داود، وأصبح عدوه اللدود طوال حياته».

obeikan.com

الفصل الرابع عشر

الهرطقة والإصلاح الدينى

استثنائية حركة المحافظين الأمريكية

من أسهل الطرق لاكتشاف كيف أن أمريكا أكثر محافظة ويمينية من أقرب أقربائها الأوروبيين أن تقارن بين چون أشكروفت وأوليڤر ليتوين. قد تتوقع أن يكون هناك الكثير مما يجمع بينهما. كان أشكروفت النائب فى إدارة بوش الأولى. وكان ليتوين النجم البازغ فى سماء حزب المحافظين البريطانى، سكرتير ظل طوال معظم فترة رئاسة بوش الأولى. وفى هذه المهمة كانت أولوياته تشبه أولويات أشكروفت: الجريمة والسجون والمخدرات والإرهاب والعدالة. وصلات المحافظين الأمريكيين بحزب تورى المحافظ البريطانى أقوى من صلاتها بأى كيان آخر. ربما حلت الثاتشرية والريجانية محلهما فى التاريخ، إلا أن هناك شعوراً متأصلاً بوحدة الهوية ـ وبأنهما معًا غيرتا وجه العالم. ويعود المحافظون البريطانيون بالثاتشرية إلى مؤتمر الجمهوريين بقصر «كاو» فى سان فرانسيسكو فى سنة ١٩٦٤م، والذى تم فيه ترشيح بارى جولدواتر. حتى الجمهوريين الشبان لايزالون يتحدثون عن تأثير سير كيث چوزيف و «معهد الشئون الاقتصادية» ومثقفى حزب تورى من أنصار حرية السوق فى السبعينيات. كانوا «حاسمين» حسب تعبير بيل أوينز حاكم كولورادو.

وليتوين ملم بهذه الأرضية المشتركة أكثر من غيره. فهو ابن شيرلى روبن ليتوين الأكاديمية الأمريكية التى زاملت فردريك هايك فى جامعة شيكاغو وجلست على مقعد مايكل أوكشوت وأصبحت من نجوم «معهد الشئون الاقتصادية». وقام ليتوين نفسه بالتدريس لفترة بجامعة پرينستون، ولا يزال يلجأ لأمريكا لاستقاء الأفكار.

ويقول إن السياسات البريطانية ستشبه نظيرتها الأمريكية على المدى البعيد. والقضية الكبرى ستكون دور الدولة فى اقتصاد السوق؛ حيث يفضل الديمقراطيون وحزب العمال حكومة مركزية نشطة، بينما يسعى التوريون والجمهوريون (و «نصف تونى بلير») لنقل التحكم للمستوى المحلى ـ إعطاء الناس سلطة أكبر فى مدارسهم ومستشفياتهم وشرطتهم.

ومع ذلك فهناك فارقان كبيران بين الرجلين يقزمان كل أوجه التشابه المحتملة بينهما. الفارق الأول واضح تمامًا، وهو السلطة. أشكروفت تولى منصبه فى القرن الحالى ومن نتاج حركة محافظة متأرجحة؛ وحزب ليتوين مهدد بتدمير ذاته. وفى ٥ نوفمبر ٢٠٠٢م، وهو اليوم الذى قاد فيه جورج بوش الابن الجمهوريين إلى النصر فى الانتخابات النصفية، تدنى إيان دنكن سميث زعيم حزب تورى الضعيف إلى درجة تحذير حزبه المتناحر «إما التوحد أو الموت». فتخلصوا منه فى غضون سنة لصالح مايكل هوارد الذى رقى ليتوين إلى درجة مستشار ظل فى ديسمبر ٢٠٠٣م.

الحظ فى السياسة يرتفع ويهوى، لكن الفارق الآخر بين ليتوين وأشكروفت جوهرى بدرجة أكبر، ويتمثل فى معنى حركة المحافظين عند كل منهما. صحيح أن كليهما يؤثر الحد من دور الحكومة بصفة عامة، إلا أن مفهوم ليتوين عن محدودية دور الدولة يفوق مفهوم أشكروفت عنها؛ حيث يشمل على سبيل المثال خدمة صحية تديرها الدولة ومنحًا سخية للطلاب كافة. ويميل أشكروفت دائمًا لإقرار عقوبة الإعدام وتشديد الأحكام المشمولة بالنفاذ؛ وهو دائمًا يعارض الإجهاض، وقوانين تنظيم اقتناء الأسلحة النارية، وإباحة المخدرات، وحرق العلَم، وكل ما تمثله الستينيات. ويؤيد ليتوين الحق فى الإجهاض ويعارض عقوبة الإعدام، وتبرأ مرارًا من ضيق الأفق بكافة صوره. وفى مجال السياسة الخارجية، يعد ليتوين اليهودى أقل تشددًا بكثير فى تأييده لإسرائيل من أشكروفت. كما أنه أكثر تعاملاً مع الأمم المتحدة، تلك الهيئة التى حاول أشكروفت أن يسحب منها الدعم الأمريكى.

هناك حادث صغير يجسد الفجوة بينهما. ففى أواخر ٢٠٠٢م، ألمح ليتوين بصورة عارضة فى برنامج «تودای» الصباحى المبكر بإذاعة بى. بى. سى. أن أعضاء حزب التورى [حزب المحافظين] يفكرون فى تأييد زواج الشواذ: «مع كل الاهتمام الذى نولى لمؤسسة

الزواج، فإننا نقر بأن أزواج الشواذ يعانون مظالم جمة». [1] وأشكروفت من أقوى مؤيدى تعديل قانون الزواج الفيدرالى. لكن الفارق أعمق. فبرنامج «تودای» الذى يستضيف ليتوين بصفة منتظمة، صورة مصغرة من الإعلام اليسارى الذى ينأى أشكروفت بنفسه عنه. ففى كل صباح، وبعيدًا عن الحديث إلى وسائل الإعلام، فإنه لا يطيق حتى مطالعة «الصحافة الليبرالية» إلا بعد أن يفرغ من دراسة الكتاب المقدس والصلاة.

حتى الحرب على الإرهاب والتى قد يتصور البعض أنها يمكن أن تجمع بين المحافظين على صفتى الأطلنطى، تبرز الخلافات بينهم. فهى بالنسبة لأشكروفت أصبحت حملة صليبية شخصية. وحين بلغه نبأ أحداث ١١ سبتمبر قال لمساعديه على الفور إنها «ستغير وجه العالم بصورته التى نعرف» واعتبرها منذ ذلك الحين معركة على «مؤامرة الشر». وجسد كل من أشكروفت ودونالد رامسفيلد استعداد إدارة بوش لتسديد ضربة قوية للإرهابيين المشتبه بهم ـ المحاكم العسكرية السرية وتصنيف المواطنين الأمريكيين كمقاتلين(*) والتصنت على الجوامع وما إلى ذلك. ويقال إن وزارة العدل فى عهد كنيدى كانت ماضية فى حربها على الجريمة المنظمة لدرجة أنها كانت تلقى القبض على أى عضو بعصابة إجرامية لمجرد أنه بصق على الرصيف؛ وما كان أشكروفت ليدع إرهابيًا مسلمًا يصاب بالبلغم حتى يبصقه. أما ليتوين فاتخذ موقفًا أدق؛ فباعتباره سكرتير ظل دعا لتشديد الأحكام، ولكنه تحدث أيضًا عن الحريات المدنية وكان يألم للأسباب الكامنة للإرهاب. الأولوية بالنسبة لأشكروفت حماية الأمريكيين من هجمة مدمرة أخرى. واهتمامه بالأسباب الاجتماعية للاضطراب الإسلامى لا تزيد عن اهتمام أوليفر كرومويل بالأسباب الاجتماعية للأصولية الكاثوليكية فى أيرلندا؛ فالمهم القضاء على العدو.

نمط مختلف من حركة المحافظين

قد يرفض البعض هذين الفارقين باعتبارهما مسألة اختلاف فى الشخصيات. فكان أشكروفت أكثر أعضاء حكومة بوش الأولى ميلاً للمحافظة الاجتماعية. وليتوين شخصية أكثر ودًا من بعض سكرتيرى الظل التوريين (ومنهم مايكل هوارد). لكن هذا

(*) المقصود الأمريكيين العرب بصفة خاصة والأمريكيين المسلمين بصفة عامة.

يضيف بضع بوصات على الجانبين حيث تقاس الفجوة السياسية بين نمطى المحافظة على ضفتى الأطلنطى بالياردات إن لم يكن بالأميال. وهذه الفجوة مسألة تنظيمية فى جزء منها وإيمانية فى الجزء الآخر.

إن الاختلاف فى التنظيم السياسى عنصر ثابت فى مناقشات هذا الكتاب، وبالتالى فهو لا يستحق إلا إشارة موجزة فى هذا المقام. ونوعية الحركة المكثفة التى حملت أشكروفت إلى منصب وزير العدل، أى الحركة التى أرخنا لنشأتها فى هذه الصفحات لا وجود لها فى أى مكان آخر، على جانب اليمين على الأقل. فحركة المحافظين فى بقية العالم نتاج حزب ـ أو فريق من حزب. أما فى أمريكا فهى حركة شعبية تتسم بالحيوية والثقة بالنفس والاستعداد للعمل مع الحزب الجمهورى إذا ما كان مستعداً للالتزام بالنهج المحافظ.[٢]

فإذا أردتَ مثلاً أن تعين كارل روف فى مقر حزب المحافظين بشارع ڤيكتوريا بلندن وطلبت منه أن يعيد إنشاء حركة محافظة على الطراز الأمريكى، فلن يعرف من أين يبدأ. فليس هناك سوى عدد معدود من منتديات الفكر المحافظة الصغيرة على الضفة اليمنى. وموازناتها مجتمعة لا تزيد عن مليونى دولار. إنه عالم من التقتير والتوفير، من الأزمات النقدية وجمع التبرعات فى اللحظة الأخيرة، عالم يعمل فيه الكثيرون دون مقابل مؤثرين ذلك على تسلق سلم مجال عمل محافظ نحو الثراء.[٣] وقد يشجعه وجود صحافة محافظة على غرار «دايلى ميل» أو «دايلى تلجراف» (حيث انشقت صحف مردوخ ـ حاليّا على الأقل ـ لصالح تونى بلير) ولكن ليست هناك محطات إذاعية محافظة مناسبة ولا شىء يضاهى فوكس الإخبارية. وما كان روبرت مردوخ ليتمكن من «فوكسة» شبكة سكاى الأخبارية البريطانية التى يملكها دون خرق قواعد بث عدة تتعلق بالموضوعية. أما القاعدة الجماهيرية، فهناك جماعة ضغط لصالح كبار رجال الأعمال ـ «اتحاد الصناعة البريطانية» ـ ولكن ليست هناك حركة معارضة للضرائب تشبه جماعة چروڤر نوركويست؛ هناك جماعة ضغط لصالح الصيد، ولكن ليست هناك جماعة ضغط لصالح الأسلحة النارية تقارن بـ «الاتحاد القومى للبنادق»؛ هناك حركة «ضد أوروبية» ولكنها لا تعرف ما إذا كان عليها أن تناهض المحافظين أم تعينهم.

قد يتصور روف أنه يمكن أن يعرج على كنيسة إنجلترا ـ «حزب توري [المحافظ] في الصلاة» ـ لحشد بعض الناس. وقد يثبت ذلك أنه مُثبط للهمة. فالأنجليكيون مثل الكاثوليك يميلون لأن يكونوا قوة على اليسار تلهب ظهر الحكومة باتهامها بعدم إنفاق ما يكفي، بدلاً من أن يشنوا حملات من أجل فضيلة أخلاقية. وفي الحياة العامة البريطانية الحديثة، لم يكن هناك سوى سياسي كبير واحد حاول أن يضع الأخلاق المسيحية في جوهر السياسة، وهو المرحوم اللورد لونجفورد ـ وكان يفسر تعاليم المسيح بمعنى أن على المجتمع أن يخلِّص القتلة لا أن يعجل بإعدامهم. وفيما عدا ذلك فهناك حركة صغيرة مناهضة للإجهاض، وهي جماعة إيڤانجليكية هامشية غير مسيسة، وبضع أفراد يتذمرون من العرى على شاشة بي. بي. سي.

إن العلمانية البريطانية تماثل النهج في أوروبا، وهي قارة ليست مسيحية بقدر ما هي بعد مسيحية. ونمط المحافظة الأخلاقية الذي يميز العديد من أعضاء إدارة چورچ بوش الابن ليس له نظير حقيقي بين الديجوليين في فرنسا أو حتى في الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا. فصفة «مسيحي» في معظم الأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبا تقال همسًا في العادة، إذ ليس هناك صلة بالنزعة الأخلاقية البروتستانتية ولا وجود للصلوات التي تقام في أثناء الأسفار الخارجية كتلك التي أقامها فريق بوش على متن الطائرة في أثناء العودة من إلسالڤادور.

ولنتذكر أين بدأت هذه المقارنة: بأعضاء حزب توري المحافظ باعتبارهم أقرب شركاء الجمهوريين في الخارج. في معظم الدول بخلاف بريطانيا وأمريكا، نجد أن حماس ليتوين لتقليص دور الدولة يميزه كيميني متطرف. ومعظم المحافظين الأوروپيين يؤثرون النمط التوري على شاكلة پيرجرين ورسثورن الذي كان يرى أن المحافظين يجب أن يدافعوا «بكل ثبات» عن دولة الرفاهية باعتبارها حجر زاوية الاستقرار الاجتماعي: «لا يمكن للقلة أن تتمتع بالتميز الاقتصادي والاجتماعي إلا إذا أنقذت الكثرة من الحرمان الاقتصادي».[٤] ومعظم المحافظين الأوروپيين قد يشمئزون من حماس ليتوين لأساليب رودي چيلياني في القيام بدور الشرطي دون أي قدر من التسامح أو إعادة رسم السياسة الاجتماعية أو شن الحرب على العراق. وإذا نظرنا في الدول المتقدمة الغنية، سنجد النزعة المحافظة الراديكالية إما على الحبال (كما في كندا)

أو لم تتمكن أصلاً من التسلق لصعود الحلبة. ففى اليابان وفرنسا وألمانيا، ليس هناك سياسى ـ ناهيك عن حزب ـ يمكن وصف فلسفته بالمحافظة بالمعنى الأمريكى للكلمة. فى إيطاليا هناك سيلفيو بيرلسكونى، وهو مؤيد لأمريكا دون شك، ولكنه يوجه قدرًا كبيرًا من طاقاته الموالية للرأسمالية إلى التخلص من القوانين المرهقة المقيدة لملكية وسائل الإعلام(*). وإسپانيا والبرتغال بدأت فيهما حكومتان مواليتان لأمريكا مؤخراً(**) وتعتبران محافظتين مقارنةً بما جرى قبلهما، إلا أن فلسفتيهما لا تزال تضعهما على يسار الحزب الديمقراطى فى أمريكا.

يعيدنا هذا إلى الخليج الثانى، أى الخليج بين المبدأين. فأمة اليمين الذين وصفنا فى كتابنا هذا بنمط من حركة المحافظين يختلفون فى جوهرهم عن النمط الذى لا تزال الأحزاب المحافظة فى أوروپا متشبثة به.

ديانة قديمة ظهرت من جديد

ما مدى اختلاف «حركة المحافظين الأمريكية»؟ كثير من الناس يتساءلون عما إذا كان الأدق استعمال الصفة أم الاسم. فيما يتصل «بأمريكيتها»، فالعقيدة استوحت كمًا كبيرًا من أفكارها من العالم القديم. وهناك نمساويان هما فردريك هايك ولودفيج ڤون مايسس فعلا كل ما كان ليفعله أى أمريكيين ولدا فى أمريكا لكى يجددا إيمان أمريكا الفطرى بحرية السوق بعد الحرب العالمية الثانية، وقدما الكلمات التى تبرر الأحكام المسبقة لعديد من رجال الأعمال الأمريكيين. فتحدث داڤيد ستوكمان مدير الموازنة فى عهد ريجان عن مهارة استعمال السيف «المسبوك فى حدادة حرية السوق لصاحبها فردريك هايك». وكان كثير ممن أعادوا صوغ حركة المحافظين فى الخمسينيات يبجلون أوروپا. فكان راسل كيرك يكن تقديرًا عظيمًا لإدموند بورك. وشارك چيمس بورنام فى تأليف كتاب مع أندريه مالرو.[٥] وتلقى ويليام بكلى جزءًا من تعليمه فى إنجلترا وسافر إلى الخارج مرارًا وتعمد إضفاء طابع «أوروپى» على مجلة «ناشيونال ريڤيو»

(*) وقد خسر فى الانتخابات الأخيرة على يد رومانو برودى أحد الزعماء الاشتراكيين.

(**) كذلك خسر رئيس الوزراء الموالى لأمريكا على يد رئيس الوزراء الجديد خوسيه لويس ثاباتيرو فى إسپانيا.

وأتمها بمقالات لأعضاء من أسرة هابسبرج الملكية. ويتذكر إيرفنج كريستول أنه وهو شاب يافع لم يعرف المحافظين ـ فى مقابل الراديكاليين السابقين من ذوى الآراء اليمينية الناشئة ـ إلا عندما انتقل إلى إنجلترا فى سنة ١٩٥٣م. وانبهر تمامًا «بإحساسهم بالتواؤم التام مع أنفسهم كمحافظين، فلا هم دفاعيين ولا مشاكسين».[٦]

هذا الإرث من النظر إلى الخارج للاستلهام مستمر إلى الآن. فيعد ليو شتراوس كما رأينا أحد الشخصيات المرموقة فى واشنطن چورچ بوش الابن. ويزعم چورچ ويل أحد أكثر المعلقين المحافظين شعبية فى أمريكا أن «حركة المحافظين التى أكتب عنها هى نزعة محافظة أوروبية».[٧] وجذبت حركة المحافظين الأمريكية المعاصرة العديد من الأنصار الفصحاء من المهاجرين (من أمثال چون أوساليڤان وأندرو ساليڤان أو داڤيد فرام الكندى المولد). حتى أن مايكل ليند نحت اسمًا خاصًا لهم: «المحافظون المهاجرون ـ immicons».

وهى ليست مسألة نزاع حول النَسب. فالمشكلة الحقيقية فى تعريف «حركة المحافظين الأمريكية» فى نظر العديد من النقاد هى اسم المصدر. فهل يمكن حشر المجموعة المتباينة من ذوى العقائد المتناقضة أحيانًا والمتشاحنين غالبًا ممن صنفنا فى هذا الكتاب فى عقيدة واحدة مميزة؟ فحركة المحافظين الأمريكية على الأقل بيت به العديد من الغرف. إلا أن الأمريكيين الذين يصفون أنفسهم بالمحافظين، يختلفون حول جل قضايا الحياة الأساسية. فالمحافظون القدماء يبكون ضياع التراث؛ ويحتفى المحافظون التحرريون بالطاقة الخلاقة التى تميز الرأسمالية؛ والمحافظون الدينيون يريدون وضع الدين فى قلب السياسة؛ والمحافظون من أصحاب الأعمال يسيطرون على نظام اقتصادى فيه «كل ما هو مقدس مدنس» بتعبير كارل ماركس. والإشتراوسيون فى «ويكلى ستاندارد» نخبة فلسفية ترى أن الجماهير بحاجة لرجال فكر متعلمين يقودونهم. والصليبيون المناهضون للضرائب ممن يسيرون وراء جروڤر نوركويست شعبيون يعتقدون أن المثقفين المتعالين بحاجة لأن يطأطئوا رءوسهم. وهناك نكتة يتداولها الديمقراطيون تقول: «ما الفرق بين المحافظين وأكلة لحم البشر؟ الإجابة: أكلة لحم البشر لا يأكلون إلا أعداءهم».

ومع كل هذا، أبدت حركة المحافظين الأمريكية قدرة فائقة على التحول مع الزمن. فكان نيوت جينجريتش يعارض تمدد دور الحكومة. ويرى چورچ بوش الابن أن الحكومة يمكن أن تكون أداة للإصلاح المحافظ. وكان رونالد ريجان يضع «الحرية» فى قلب إدارته. وكثير من أنصار بوش يولون اهتمامًا أكبر «بالفضيلة». كما كانت حركة المحافظين الأمريكية عقيدة تفاعلية: فهى نتاج الليبرالية الراديكالية فى الستينيات بقدر ما هى من نتاج كتابات هايك ومايسس. والمحافظون الأمريكيون حتى الآن يعملون بدافع من بغض أعدائهم الفطريين من ياسر عرفات إلى پول كروجمان أكثر من عملهم بحافز الحفاظ أو الدفاع عن مجموعة ما من المعتقدات الفكرية.

إن حركة المحافظين الأمريكية عقيدة عملية مرنة أعيد صوغها بحيث تتعامل مع صدمة الأحداث الجسام، وليست أيديولوچيا ثابتة مكتوبة فى كتاب محافظ يماثل «الكتاب الأحمر الصغير» لماو. يقول چورچ ناش فى تاريخه العظيم لحركة المحافظين الأمريكية إن حركة المحافظين الأمريكية عقيدة متقلبة لا تجدى معها محاولة تعريفها؛ فحركة المحافظين الأمريكية هى ببساطة ما يقول المحافظون الأمريكيون وما يفعلون.[٨]

إذن فهل هناك معنى للحديث عن «حركة المحافظين الأمريكية»؟ نعم فى رأينا لسببين. أولهما أن حركة المحافظين الأمريكية وعلى الرغم من كل روافدها الفجة لها اتجاه سائد. فهى العقيدة التى يختال فيها رونالد ريجان وچورچ بوش الابن دون جهد، إنها عقيدة داستن وموراً الشابين الجمهوريين فى كولورادو وعقيدة الملايين من الجماهير المحافظة. وهى ليست مجرد عقيدة يقينية ثابتة (فهى أكثر من مجرد رد فعل لليبرالية الأمريكية)؛ إذ أن لها قوة سياسية غاشمة أيضًا. إنها العقيدة التى تجتذب الجيش المبعثر من أنصار خفض الضرائب والأصوليين الدينيين إلى أرض المعركة ـ وإلى صفها. وأفراد هذا الجيش، كما سبق أن أشرنا من قبل قد يرتدون لكل قضية عباءتها ويختلفون حول مسائل متباينة، لكن بينهم من العوامل المشتركة ما يكفى لتكوين حركة سياسية متأرجحة.

والسبب الآخر أن الاتجاه السائد فى حركة المحافظين الأمريكية يختلف بصورة واضحة عن الاتجاه السائد للنزعة المحافظة فى أى مكان آخر. فما من حركة محافظة أخرى يمكن أن تحشد هذا الكم من أنصار خفض الضرائب والمحافظين الدينيين. وما

من حركة محافظة أخرى يمكن أن تفرز مؤسسات مثل «التركيز على الأسرة» و «كلية باتريك هنرى» ومؤسسة «هيريتدج». والمسألة برمتها كغيرها من المسائل تتوقف على زاوية رؤيتك. فإذا ما تجولنا فى الاجتماع السنوى لـ «مؤتمر العمل السياسى المحافظ» ووسط أنصار الملكية والضريبة الموحدة والنشطاء الدينيين المحتشدين فسرعان ما ندرك الخلافات التى ينقسم حولها المحافظون الأمريكيون. وإذا تحركنا للوراء قليلاً ونظرنا إلى جيش چورچ بوش الابن من منظور لندن أو پاريس، فسنفاجأ بتميز العقيدة التى تجمع بينهم.

إن أفضل سبيل لفهم الطبيعة الاستثنائية لحركة المحافظين الأمريكية فى رأينا هى من خلال المجاز الدينى ـ كحركة إصلاحية پروتستانتية. فحركة المحافظين الأمريكية تجمع بين التجديد والهرطقة، ولا تختلف عن الفوران الدينى الذى بدأه لوثر منذ خمسمائة سنة مضت. والعقيدة الثابتة التى أعادت أمة اليمين تأويلها هى نزعة محافظة كلاسيكية، والهرطقة التى جاءت بها هى ليبرالية كلاسيكية (أو على الأقل شق كبير منها). والنتيجة قد لا تكون انفصالاً تامًا عن حركة المحافظين فى أى مكان آخر، لأن معظم الأنماط الأخرى من حركة المحافظين لها حركاتها الإصلاحية المصغرة وحركاتها الإصلاحية المضادة الخاصة بها، ولكنها مع ذلك عقيدة شديدة التفرد.

كانت نقطة البداية هى الكنيسة المؤسسة القديمة غير المُصلحة [قبل الإصلاح]. فكانت حركة المحافظين الكلاسيكية طبقًا لتعريف بورك تقوم على ست ركائز: ارتياب عميق فى سلطة الدولة، وإيثار الحرية على المساواة، وحب الوطن، والإيمان بالمؤسسات والهرمية الثابتة، والشك فى التقدم، والنخبوية. وحركة المحافظين الأمريكية كما شرحنا فى المقدمة، تغالى فى السمات الثلاث الأولى وتفسد الثلاث الأخيرة. والنتيجة مزيج متميز من التقليدية المفرطة والليبرالية الكلاسيكية.

ونبدأ بالتقليدية ونرى أن لها دورًا مغناطيسيًا بين أمة اليمين. فقاعدة المحافظين، ناهيك عن چنرالات مثل أشكروفت وبوش، تتلذذ بمظاهر التراث بكافة صوره من الشعائر الدينية إلى الاحتفالات الوطنية، من التنظيمات التطوعية إلى المناسبات العائلية. يتضح لنا ذلك إذا عرجنا على وليمة عائلية فى الولايات الحمراء وأصغينا إلى الخشوع الذى يتلى به دعاء الشكر، أو إذا شاهدنا التأنق الذى تحرص عليه العائلات

ساعة الذهاب إلى الكنيسة. ففى مأدبة العشاء التى أقامها «معهد الأعمال الأمريكى» فى سنة ٢٠٠٣م، والتى أعلن فيها جورج بوش خططه لإدخال الديمقراطية إلى الشرق الأوسط، بدأ الأمسية بأن طلب من نائبه العام أن ينشد النشيد الوطنى. فانطلق أشكروفت بصوت جهير قوى، وبعد أن فرغ أشكروفت كشف بوش عن إستراتيچيته.

كان هذا سيسعد بورك لأسباب عدة. إذ كان يؤمن بأن الفرد لا يزدهر إلا حين ينخرط فى شبكة من التقاليد والأعراف الجماعية، وأن إضعاف النسيج الاجتماعى يحيل الإنسان إلى مجرد ذرة من الأنوية وقد يعود إدراجه إلى حالة بدائية. ومع ذلك فالمحافظون الأمريكيون يحتفون بتقاليد مختلفة تمامًا عن نظرائهم الأوروپيين، تقاليد مشبعة بمساواة الثقافة الأمريكية وتفاؤلها. وفى رواية سينكلير لويس بعنوان «شارع مين ـ Main Street» والتى تدور أحداثها فى بلدة جوفر پريرى بالغرب الأوسط، تقدم إحدى شخصياته، وهى ڤيدا شيروين، صورة موجزة للنزعة التقليدية الأمريكية:

> أخشى أن تظن أنى محافظة. نعم أنا محافظة! فلدىّ الكثير مما أحافظ عليه. كل هذه الكنوز من المثل الأمريكية. . . . الوطنية والديمقراطية والفرص. قد لا أكون فى «پالم بيتش» ولكن الشكر للسماء على ما حبتنا به من خلاص من هذه الفوارق الاجتماعية فى جروفر پريرى. وليس لدىّ سوى مزية واحدة هى الإيمان بعقل وقلب أمتنا، دولتنا، بلدتنا. . . .

لم تعرف أمريكا الحديثة الكنيسة المؤسسة أو الأرستقراطية ذات الألقاب ـ والمحافظون الأمريكيون القلائل من أمثال راسل كيرك ممن يتوقون إلى شراك الإقطاعية يحرثون الماء (ولو ببلاغة فائقة). فالمحافظون الأمريكيون الحقيقيون، يعولون كثيرًا على رموز أمة المساواة التى نبعت من تلك الثورة، على البيارق وعهود الولاء والاحتفالات العسكرية. المحافظون الأمريكيون لديهم تصور قدسى عن وطنهم. يعتبرونه «أرضًا موعودة»، «حرمًا قدسيًا على الأرض للإنسان الفرد»، «آخر أمل للإنسانية على الأرض»، و«مدينة فوق التل» بالطبع. أمريكا بالنسبة للمحافظين الأمريكيين ليست مجرد واقع جغرافى؛ بل هى التعبير المادى عن مثال روحى. ولعل رونالد ريجان كان أوضح ممثل لهذا الإيمان المحافظ الأولى. كان يعتقد أن الرب اختار

أمريكا لتنفيذ مشيئته على الأرض. وبما أن أمريكا تجسد هذا المثال الديمقراطى، ولأنها تطلعت لنشر هذا المثال فى بقية العالم، فإنها غير محكوم عليها بما ألم بالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية من انحطاط وسقوط.[٩]

وحركة المحافظين القومية المغالية هذه قد تختلف عن أمها الأوروبية، ولكنها مفهومة لدى المحافظين الأوروبيين الكلاسيكيين سواء فى بريطانيا أو فى بقية أوروبا. ألم يدع الفرنسيون والإنجليز يومًا أن كل من فرنسا وإنجلترا كانت مظهرًا لتجلى مشيئة الله على الأرض؟ وأنهما سيتحديا كافة قوانين الجاذبية السياسية التى سرت على من جاءوا قبلهما؟ والنزعة التقليدية الأمريكية من المنظور الأوروبى تتسم بقدر مفرط من الإيمان بالألفية الديمقراطية وبقدر لا يكفى من الالتزام النبيل. ولكن ماذا تتوقع من نسخة حديثة من عقيدة قديمة؟

هل أصبحنا جميعًا ليبراليين الآن؟

تبرز المتاعب أمام أنصار النزعة التقليدية حين تنتقل هذه الكنيسة الفتية من التأويل الجديد للمواريث القديمة إلى اعتناق الهرطقة. ومن أية زاوية نظرنا نجد أن حركة المحافظين الأمريكية تعتنق شقًا غير هين من الليبرالية الكلاسيكية ـ بل شق بلغ حد أن ذهب كثير من المراقبين إلى أن حركة المحافظين الأمريكية عبارة تحوى متضادين، وأنها ليبرالية كلاسيكية متخفية.

كانت الليبرالية الكلاسيكية العدو التقليدى اللدود للنزعة المحافظة؛ لأنها تتخذ من الفرد بعد تحرره من الأغلال محورًا لفلسفتها. والكلاسيكية الليبرالية تعتبر الحرية الخير المطلق، وحركة المحافظين الكلاسيكية تصب اهتمامها على الفضيلة. الليبرالية تؤيد الاختيار بصورة حاسمة، وحركة المحافظين يساورها القلق من نوعية الاختيارات التى يتخذها الناس إن لم يحكمهم التراث وتهديهم الحكمة. الليبرالية متأصلة فى حركة التنوير، وحركة المحافظين راسخة فى نقد التنوير. يقول إدموند بورك فى أسى: «إن عصر الفروسية ولى، وجاء عصر خبراء الاقتصاد والسوفسطائيين والآلات الحاسبة».

علينا هنا أن نحذر من خلق صورة نمطية للنزعة المحافظة الأوروبية كفلسفة قديمة جامدة. كان لورد هيو سيسيل يشبِّه نمطه من الفكر المحافظ بنهر عظيم يستمد ماءه من

روافد عدة تلتقى معًا. وفى القرن التاسع عشر، كان نهر النزعة التورية البريطانية العظيم يستمد بعض مائه على الأقل من الليبرالية. وتخلى المحافظون عن المقولة الأرستقراطية التى ترى أن كبار ملاك الأراضى سد الحرية المنيع، واعتنقوا مقولة الديمقراطيين بأن ديمقراطية الملكية أفضل حصون الحرية. وكان المحافظون من أمثال ديزرائيلى يكدحون دون كلل للاستعانة بوسائل ليبرالية وصولاً لغايات محافظة - لإعادة ربط الملكية بالمسئولية والتميز بالواجب. وكانت العبقرية الانتخابية لحزب المحافظين البَريطانى فى القرن العشرين تتلخص فى أن تُعَرِّف نفسها بنوع من البرجوازية «الفردية المخففة» تمنح ما كان ضروريًا للطبقات المتوسطة، بينما تضمن استمرار تميز النخبة من أصحاب الأراضى. ومعظم الأحزاب الديمقراطية المسيحية الأوروبية توصلت فى النهاية لمصير مماثل.

ولم يقدم المحافظون الأمريكيون الكثير من التنازلات الإستراتيجية للنزعة الفردية بقدر عناقها بشهوة الشاب المحب. وكتب هايك الذى يعد جون كالفن حركة الإصلاح المحافظة الأمريكية مقالاً بعنوان «لماذا لستُ محافظًا؟» لعن فيه العقيدة لعبادتها الدولة وسعيها للتضييق على الأفراد. وإذا كان رواد حركة المحافظين الكلاسيكية يتميزون عادةً بعلاقتهم بالتراث والمجتمع (ما يجعل من الرجل نبيلاً هو مزيج من نسبه، واستعداده لخدمة مجتمعه المحلى كصاحب عمل وقاضى صلح ورجل بر)، فإن أبطال حركة المحافظين الأمريكية عادة ما يكونوا فرديين صارمين: رجال أعمال أحالوا أحلامهم شركات وأصحاب ضيع زرعوا الحضارة فى القفار ومرة أخرى رعاة بقر. وحدث ذات مرة أن دخل كل من الأكاديمى المحافظ المرحوم ماكس بيلوف وإيرفنج كريستول فى نقاش حول جدوى الألقاب التى ميزت التورية البريطانية عن حركة المحافظين الأمريكية. فقال كريستول إن بريطانيا «تفسدها مجموعة ادعاءات أرستقراطية واهنة ولكنها عنيدة تدرأ الفرص وتكبح روحًا تتطلع إلى المساواة لم يتم التعبير عنها بعد». والنتيجة أن أصبحت الحياة البريطانية «كئيبة» و «مفعمة بالسخط». فرد بيلوف الذى كان يفاخر بأنه لورد لا يرث أولاده لقبه، بأن ما يهدد حركة المحافظين فى بريطانيا «ليس الصلات الباقية بالتراث الأرستقراطى، بل لا مبالاتها ببعض مساوئ الرأسمالية. فليس الدوقات هم من يتسببون فى خسارتنا الأصوات الانتخابية، بل

«الأشرار من ذوى الثراء الفاحش». وتساءل عن سبب اعتبار كريستول نفسه «محافظًا» لأنه «لا يقل عجزًا عن سائر الأمريكيين عن أن يكون محافظًا بالمعنى الدقيق». فحركة المحافظين فى رأى بيلوف لا بد من أن تشتمل على عنصر تورى وإلا لما بقى منها سوى «مدرسة مانشستر (الليبرالية الكلاسيكية)». (١٠)

هذا العنصر التورى مفتقد تمامًا فى حركة أمريكا المحافظة. فإذا تأملنا أمة اليمين لوجدنا عددًا كبيرًا من جماهير المحافظين تتملكهم فكرة رفع القيود الحكومية عن الفرد. فأنصار الأسلحة النارية يبغضون القوانين الخاصة بالأسلحة، والنشطاء المناهضون للضرائب يريدون أن ترفع الحكومة يدها عن جيوب الناس، والمتدينون المحافظون يريدون أن يساعدوا الناس على الهرب من تطفل الدولة العلمانية ـ لا سيما فيما يتصل بتعليم أبنائهم. وتترنم فرقة مونتجومرى ـ وهى ثنائى غنائى ريفى يحظى بشعبية طاغية فى أوساط أمة اليمين ـ بأغنية تقول: «كل ما أريد طريقًا مفتوحًا وسرعة الريح».

وهناك شىء يصدم الناظر من الخارج فى كل من رونالد ريجان وچورچ بوش الابن، وهو شعورهما الطاغى بالعزم والثقة بالنفس، عزم وثقة بالنفس نابعان من اقتناع حاسم بأن المستقبل فى صفهما. وقد كان شغل حركة المحافظين الكلاسيكية الشاغل هو ضبط التدهور وإخراج عملية تقهقر تحفظ الكرامة. وها هو أعظم روائى تورى بريطانى فى القرن العشرين «إيڤيلين واو»، ينطلق فى رحلة شهر العسل وفى حقيبته نسخة من كتاب أوزوالد شپنجلر «انحطاط الغرب» ويطلق على أولى رواياته عنوان «الانحطاط والسقوط» وازداد تشاؤمًا مع تقدمه فى العمر. وذات مرة صرح إينوك پاول، وهو من الساسة المحافظين بأن «حياة كل الساسة تنتهى بالفشل، لأن هذه طبيعة السياسة وتدبير شئون البشر». (١١) وعلى مدار ربع القرن الأخير، لا نجد إلا محافظًا أوروپيًا واحدًا يعلن أنه «ليس هناك بديل» ويقصد ما يقول فعلاً. ومارجريت ثاتشر تبدو فى حالة زيغ واضطراب بمرور الزمن ـ وهى محافظة أمريكية تصادف أن ولدت فى جرانتام بدلاً من هوستون.

وهناك العديد من المحافظين الأوروپيين يعارضون «روح التجديد» سواء بالمعنى التافه لحب التغيير لمجرد التغيير أو بالمعنى الأعمق بأن العالم يمكن صوغه من جديد. يقول ديزرائيلى: «هناك خطط عديدة ومشاريع كثيرة، وهناك أسباب عديدة لضرورة

ألا تكون هناك خطط ولا مشاريع».[١٢] ويقول آر. إس. سايس أحد نبلاء أوكسفورد من المدرسة القديمة «كل تغيير يحدث للأسوأ، حتى التغيير للأفضل».[١٣] وفى معرض تفسير معارضته أفكارًا جديدة لتطوير التعليم، قال لورد پيرسى من نيوكاسل وزير التعليم فى ثلاثينيات القرن العشرين: «هراء فى هراء؛ يجب تنشئة الطفل على توقع التعاسة».[١٤] وفى عهود أحدث، نجد مايكل أوكشوت الفيلسوف التورى يستخف بالتجديد باعتباره «مشروعًا مريبًا دائمًا يتداخل فيه الربح والخسارة لدرجة يصعب معها التنبؤ بالنتيجة النهائية؛ وليس هناك شىء اسمه تطوير تام».[١٥]

وحركة المحافظين الأوروپية يشوبها قدر كبير من الحنين للماضى. فكان من الحكماء، من أمثال بورك ولوى دى بونال، يرى المجتمع الصالح لا فى مستقبل مثالى ما، بل فى الماضى الوسيط بقوانين الفروسية الإقطاعية والإعجاب بالنبلاء والتدين الطاغى. أما فى أيامنا هذه، فلم يعد الساسة العمليون يحزنون على فوات أوان الإقطاع بالطبع، ولكنهم مع ذلك يشعرون بقدر من الحنين. فأفضل شعار لچون مايجر ابن لاعب الأكروبات بالسيرك الذى شق طريقه نحو قمة الحزب التورى هو «العودة للأساسيات». وحين طلب منه أن يتحدث عن إنجلترا، ترنم بكلمات أغنية عن أزواج صرار الليل فى الريف و «تردد العانس للقاء وسط ضباب الصباح».[١٦]

ومن المؤكد أن حركة المحافظين الأمريكية لا تزدرى التاريخ. فيشير لو كانون أفضل من كتب سيرة حياة ريجان، إلى أن أحد أسرار جاذبية الرئيس الأربعين قدرته على الحديث عن المستقبل بلكنة الماضى. ويعود چورچ بوش الابن إلى كراوفورد تكساس فى كل صيف ليذكر الناس بأنه على اتصال بالقيم الأمريكية الأصيلة. ومع ذلك فحركة المحافظين الأمريكية مفعمة بالتفاؤل. فكان رونالد ريجان (الذى لم يبد عليه الكدر فى حياته) مغرمًا بترديد قول توم پين المأثور «بوسعنا أن نبدأ العالم من جديد». وكان نيوت جينجريتش يؤمن بأن ما يجعل الجمهوريين منتصرين دائمًا استعدادهم لمعانقة المستقبل (تاركًا الديمقراطيين متشبثين بالاقتصاد القديم). وحركة المحافظين لا تزدهر فى المواضع التاريخية من أمريكا، بل فى أحدث بقاعها، فى الضواحى التى تنبت على حواف المدن الأمريكية لا سيما فى حزام الشمس. ولا غرو أن فكر پول ويريش تسمية مؤسسة «هيريتدج» عندما رأى لافتة على قطعة أرض فضاء كتب عليها «قريبًا: حى هيريتدج تاون السكنى».[١٧]

كانت التقنية فى عالم «واو» هى العدو؛ وكانت الآلة الوحيدة التى يحبها سماعة الأذن وعلى النقيض من ذلك كان جينجريتش يدين اليسار لرفضه «أى أمل فى الخلاص من خلال التجديد التقنى». وهذا الانبهار بالتقنية يبلغ عنان السماء حين يتعلق الأمر بالفضاء الخارجى. ويبدو أن استعداد المحافظين الأمريكيين لإنفاق المال العام على المشروعات له صلة عكسية ببعد هذه المشروعات عن سطح الأرض. وفى الأسبوع نفسه الذى تساءل فيه والتر موندیل عن تكاليف برنامج الفضاء، دعا ريجان لمواصلته قائلاً: «إن الشعب الأمريكى يفضل الوصول إلى النجوم عن الوصول إلى أعذار تبرر الأسباب التى تمنعه من ذلك». [١٨] وما كان چورچ بوش الابن ليسمح لمسألة تافهة كالعجز فى الموازنة أن تمنع أمريكا من التخطيط لإرسال إنسان إلى المريخ.

ولحركة المحافظين الأمريكية حافة پروميثية. يقول التورى الإنجليزى أوكشوت إن «المحافظ يؤثر المألوف على المجهول، ويفضل ما تم تجريبه على ما لم يجرب من قبل، يؤثر الحقيقة على اللغز، والحقيقى على الممكن، والمحدود على المطلق، والقريب على البعيد . . . والمناسب على الكامل، والفرح الآنى على النعيم المثالى». [١٩] وحركة المحافظين الأمريكية عكس عقيدة أوكشوت تقريبًا، فهى فلسفة فاعلة مفعمة بالمثالية. لا مكان فيها لتعلم العيش مع ما فى الحاضر من خلل؛ فلا يطيق المحافظون الأمريكيون رؤية خلل دون أن يحاولوا إصلاحه. ذات مرة ذكر جينجريتش الناس بأن عبارة «السعى لتحقيق السعادة» تتضمن فعلاً مبنيًا للمعلوم. «لا توجد صكوك (كوبونات) للسعادة، ولا وزارة للسعادة، ولا علاج يجلب السعادة. بل سعى لها». [٢٠]

ويؤمن المحافظون الأمريكيون بقدرة الإنسان على تغيير العالم للأفضل. ولا يتعاطفون مع انشغال حركة المحافظين القديمة بالجبر والندرة. ففى إحدى محطات حملته الانتخابية فى أوهايو فى سنة ١٩٨٤م، اتهم ريجان موندیل بأنه يبشر «بمستقبل من التشاؤم والخوف والقيود». [٢١] (فكل ما يدور من جدل ذكى حول كيفية التعامل مع محدودية الموارد يدور على اليسار فى أمريكا). وبعض من أكثر بقاع أمريكا تشبعًا بالفكر الجمهورى هى أيضًا بعض من أقل البقاع جاذبية ـ إذ تم إنقاذها من الطبيعة القاسية التى لا ترحم بقوة الإرادة الإنسانية وحدها. ولو كان أوكشوت عاش فى مكان منسى مثل واكو تكساس بدلاً من لندن لغير رأيه فى إيثار الفرح الآنى ولآثر النعيم

المثالى. ويشير إيرڤنج كريستول إلى أنه حين نشر طبعة أمريكية من كتاب أوكشوت «العقلانية فى السياسة ـ Rationalism in Politics» الذى استقى منه تلك الفقرة لم يبع منه سوى ستمائة نسخة.[٢٢]

إن محاولة وصف حركة المحافظين الأمريكية بأنها مجموعة فرعية من عقيدة عالم قديم ما أو آخر يعد جهلاً بنقطة مهمة، وهى أنها امتزجت بكاملها فى شىء جديد وأمريكى. فالعنصران الأساسيان فى حركة المحافظين الأمريكية ـ الغلو فى التقليدية والفردية ـ استثنائيان للغاية، فى رأينا. لكن ما يميز حركة المحافظين الأمريكية عن غيرها من العقائد، الطريقة التى امتزج بها هذا العنصران معًا.

غياب اليمين المتشدد

ينبغى أيضًا إضافة جانب واحد أخير من الاستثنائية المحافظة يجب أن يدين له حتى الليبراليين الأمريكيين بالعرفان، ألا وهو تهميش أقصى اليمين. وتعد حركة المحافظين الأمريكية أكثر تطرفًا من حركة المحافظين الأوروبية فى جوانب عدة؛ فهى أكثر صلابة وشعبية واستعدادًا لمغازلة النشطاء المتحمسين للأسلحة النارية والمعارضين لتمدد دور الحكومة. ومع ذلك فأمريكا أنجح من أوروبا ـ لا سيما الكتلة القارية الأوروبية ـ فى الإبقاء على اليمين الراديكالى تحت السيطرة.

فى الخمسينيات، أشاد ريتشارد هوفشتاتر بـ «نمط جنون العظمة والارتياب فى السياسة الأمريكية». إلا أن هذا «النمط» لم يفرز حركة فاشية كتلك التى ظهرت فى أوروبا. فكثيرًا ما يتهم الأوروبيون جورج بوش الابن بأنه يمينى متطرف. إلا أن بوش لا تتوفر فيه سمات الأيديولوچيا اليمينية الراديكالية. فهو يؤيد الهجرة (بجنون وفقًا لمعايير حتى المحافظين الأوروبيين المعتدلين). ففى أول خطاب كبير له عن السياسة الخارجية، حذر من أن الاستسلام لإغراء «بناء برج حصين من الحماية الوطنية والعزلة» من شأنه أن يعجل بالفوضى والركود.[٢٣] ولا مجال لاتهام حزبه بمعاداة السامية، إذ تعرض لكثير من النقد لمغالاته فى تأييد إسرائيل.

صحيح أن أمريكا أفرزت حركة ميليشيا قوية تحمل عداء الشعب لتمدد دور الحكومة والانبهار بالأسلحة النارية إلى آفاق جنونية. وصحيح أيضًا أن بعض عناصر الحزب

الجمهورى طغى عليهم جنون الارتياب من حين لآخر، ومن ذلك المكارثية وعقدة كلينتون. لكن النظام الأمريكى ذا الحزبين نجح فى تهميش أقصى اليمين بقدر ما نجح فى إخصاء أقصى اليسار.

وأعنف عناصر اليمين المتشدد الأمريكى ـ حركة الميليشيا ـ فى تدهور حاد. فانخفض عدد الميليشيات من ٨٥٨ فى سنة ١٩٦٦م إلى ١٤٣ فى سنة ٢٠٠٣م وفقًا لبيانات «مركز سوذرن بڤرتى لو سنتر» (الذى يتتبع أنشطتها)، والجماعات المتبقية مجرد ظلال ضعيفة ومشوشة وغير منظمة. وفى سنة ٢٠٠١م على سبيل المثال، انحلت «ميليشيا شمال ميتشيجان الإقليمية» (التى جذبت إلى اجتماعاتها تيموثى ماكڤاى وتيرى نيكولاس) لعدم وجود عضو ذى خبرة عسكرية كافية فيها لتولى قيادة التدريبات فى الأحراش. والعديد من أعضاء الميليشيا ملوا وسط الأسلحة الآلية وعلب الأطعمة المحفوظة وزجاجات الماء فى انتظار ثورة لا تجىء. وكان فشل Y 2K فى تحقيق انهيار الحضارة الغربية ضربة قاسية بشكل خاص.

ويبدو أن انهيار الميليشيات السريع تزامن مع ارتفاع فى نشاط النازيين الجدد. ويقدر «مركز سوذرن بڤرتى لوسنتر» عدد منظمات الكراهية حاليًا بسبعمائة، تضم أكثر من مائة ألف عضو، وهو أكبر رقم فى غضون عشرين سنة.[٢٤] ومع ذلك فحركة النازيين الجدد الأمريكية أقل دموية مما يوحى اسمها؛ وأعضاؤها كبار فى السن وضعفاء، وواجهت سلسلة من الإجراءات القانونية. وحركة النازيين الجُدد فى معظم التقديرات عدد من الأنصار فى كل من ألمانيا والمجر وپولندا وجمهورية التشيك والسويد أكبر مما لها فى الولايات المتحدة. ويقدر أن واحدًا من كل عشرة شبان سويديين يستمعون لموسيقى white power، وهناك حركات مماثلة ـ حليقو الرءوس، أنصار الثقافة الوطنية، المناهضون للسامية ـ فى كل بلد أوروبى.

ويحظى «المبشرون بالكراهية» فى أقصى اليمين، كما يسميهم كتاب صدر مؤخرًا، بنجاح انتخابى فى أوروبا أكبر مما يحظى به فى الولايات المتحدة.[٢٥] ففى سنة ٢٠٠٣م فاز حزب الشعب السويسرى بنسبة ٢٦,٦ ٪ من الأصوات الشعبية، وبالتالى حصل على عدد من مقاعد الغرفة الأدنى من البرلمان يفوق أيًا من الأحزاب الثلاث الأخر. وظهر أحد ملصقات الحزب الانتخابية وبه وجه أسود وتحته عبارة «السويسريون

يتحولون إلى زنوج». وتظل جبهة چان مارى لوپان القومية قوة لا يستهان بها فى السياسة الفرنسية؛ ففى الجولة الأولى من انتخابات ٢٠٠٢م الرئاسية، فازت بنسبة ١٨٪ من الأصوات، مما دفع لوپان إلى جولة حاسمة ضد چاك شيراك الذى حقق فيها فوزًا سهلاً. وفى ١٩٩٩م، جاء حزب الحرية بزعامة يورج هايدر فى المرتبة الثانية فى انتخابات العامة بالنمسا بنسبة ٢٧ ٪ من مجموع الأصوات، وأصبح جزءًا من الائتلاف الحكومى الحاكم فى النمسا. وفى هولندا، أبدى پيم فورتيون اليمينى المارق قلقه من قضاء المسلمين على إرث التسامح فى بلاده، وجاء فى المرتبة الثانية فى صناديق الاقتراع أيضًا ولكن بعد وفاته. وأفسح سيلڤيو برلوسكونى مجالاً فى حكومته لزعيم الفاشستيين السابقين چيانفرانكوفينى. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن پات بوكانان أكثر مرشحى الرئاسة يمينية فى السنوات الأخيرة (وهو معتدل إذا قورن بلوپان أو هايدر) لم يحصل إلا على ٠,٥ ٪ من الأصوات فى سنة ٢٠٠٠م.

مدينة فاضلة على طريقتهم

كتب سير لويس نيمير ذات مرة يقول: «أهم ما فى الأفكار السياسية ما يكمن فيها من مشاعر، فهى موسيقى لا تزيد الأفكار بالنسبة لها عن مجرد نصوص وغالبًا ما تكون على مستوى شديد التدنى». وهناك ما لا يحصى من الأسباب الأيديولوچية لاختلاف حركة المحافظين الأمريكية عن مثيلاتها فى العالم. إلا أن النزعة المحافظة شىء يتصل بالغرائز لا بالعقل. ومن السمات المميزة لحركة المحافظين الأمريكية الحديثة، ميل الأمريكيين من ذوى العقلية المحافظة التعثر فى البنى التى تلخص عقيدتهم، دون حتى أن يدركوا راديكالية أفعالهم. وما من مكان أفضل لسماع موسيقى حركة المحافظين الأمريكية من التجمعات المخططة سريعة الانتشار فى أرجاء البلاد.

إذا توجهنا إلى شمال فونيكس بولاية أريزونا، وسلكنا الطريق السريع آى ١٧، وتجاوزنا لافتات «طريق الوادى السعيد» ولافتة ـ أقل سعادة ـ تنصحنا ألا نتوقف لاصطحاب من يستوقف سيارة لأننا نمر أمام سجن اتحادى، وستطالعنا فى النهاية لافتة تشير إلى «ترنيمة دل وب ـ Anthem by Delwebb». تبدو أنثم أشبه بمنتجع فاخر منها ببلدة. فهى تشتمل على حديقة مائية بمنزلقات ديزنية الطابع وقطار للأطفال وملاعب

تنس وحائط لتسلق الصخور وملعبى جولف وعدد من الحدائق الأنيقة ومركز تجارى وكنيستين ومدرسة، ونادى أنثم الريفى لمن يرغبون فى المزيد من الأمن، فهو مجتمع له بوابة (عليها حراسة).

تم افتتاح أنثم التى خطط أن تضم ١٢٥٠٠ دار فى سنة ١٩٩٩م. وبيوتها وطرقاتها تبدو أنيقة. ومن أسباب ذلك أن كل من يبتاع داراً فى أنثم عليه أن يلتزم بعقود واشتراطات وقيود محددة، تتحكم فى كل شىء، بدءاً من لون دارك وانتهاءً بما إذا كان يمكنك أن تصف سيارتك خارجه (وفى الغالب لا يمكنك). ويبدو أن كل من يسكن أنثم من البيض باستثناء عمال البناء، ولكن المؤكد أنها ليست بلدة مغلقة مخصصة للأثرياء. وبعيداً خارجها يبدأ ثمن الدار بمبلغ متواضع قدره ١٥٥ ألف دولار. حتى نزلاء نادى أنثم الريفى ـ الذى من الصعب بمكان أن تبدو عليه الفخامة ـ يسخرون من القيود المفروضة مثل طول رحلة القطار إلى فونيكس، كجزء من ثمن الدار! . ما الذى دفع أمًا شابة للمجىء إلى هنا؟ «لأن المكان آمن، لأن هناك أنشطة، ولأنها مثلنا».

والحقيقة أن أنثم لا تمثل القمة في نزعة جديدة، بل تحاول اللحاق بالنزعة. ففى العديد من بقاع أمريكا سريعة النمو، لا سيما فى الجنوب والغرب، نجد أن التطور تدفعه «تجمعات مخططة» من نوع أو آخر. ونصف مبيعات الدور الجديدة بالمدن الكبيرة فى تجمعات ذات إدارة مشتركة. وهناك فى الإجمال ٤٧ مليون شخص ـ واحد من كل ستة أمريكيين ـ يعيشون فى ١٨ مليون دار فى ٢٣٠ ألف تجمع سكنى، ويدفعون حوالى ٣٥ مليار دولار رسومًا كل سنة. وتستعد هذه الصناعة حاليًا لحوالى ٧٠ مليون متقاعد من جيل الانفجار السكانى.

ومن الخطأ الزعم بأن كل التجمعات من هذا النوع محافظة. فهناك تجمعات ذات أسوار دعت نجوم موسيقى الراپ من الزنوج (فى باتن روج بولاية لويزيانا) ودعت الشواذ (فى مانيتوبا سپرينجز، فلوريدا). حتى تجمعات المتقاعدين قد تكون أكثر حيوية مما تبدو لأول وهلة؛ ففى سنة ٢٠٠٠م، كانت هناك أكثر من عشرين شكوى من ممارسة الجنس خارج البيت ضد إحدى جارات أنثم أريزونا وهى «سان سيتى وست» ومتوسط سن المشكو فى حقهم ٧٣ سنة.[٢٦] وعلى الرغم من انتشار الكلاب

والأسوار؛ فإن سكان التجمعات السكنية ذات البوابات لا يزيدون عن ثمانية ملايين. إلا أن النغمة السائدة تتسم بالمحافظة. والتجمعات المخططة تميل لأن تكون معاقل جمهورية (التصويت للجمهوريين فى أنثم يكاد يصل إلى اثنين إلى واحد). كما أنها تكن قدرًا من العداء للحكومة. وهو موقف يطفو على السطح، أحيانًا ما يكون ذلك شفافًا. ففى نيقادا، هناك تجمع تبلغ مساحته ٥٥ هكتارًا يسمى «فرونت سايت» به شوارع لها أسماء من قبيل «شارع التعديل الدستورى الثانى» و «طريق الشعور بالواجب» يتم تشييدها لأنصار الأسلحة النارية (من يشترون هكتارًا من الأرض يحصلون على حق استعمال ٢٢ ساحة للتدريب علي الرماية مدى الحياة ورشاش عوزى ورحلة سفارى فى إفريقيا). إلا أن الدافع بصفة عامة هو الانسلاخ أو الرغبة فى إنشاء مجتمع داخل المجتمع. وكثير ممن يسكنون التجمعات المخططة يكنون عدم ثقة بالغ فى الحكومة. وأكبر هواجسهم الأمن (ومن ثم كانت هناك كل هذه البوابات ولو أنه ما من دليل على أن التجمعات ذات البوابات أكثر أمنًا من غيرها). لكن هناك أيضًا اهتمامًا بالتعليم والرعاية الصحية والنقل وكل ما يفترض فى القطاع العام أن يتكفل به. فيفرض السكان على أنفسهم ضرائب لأداء الخدمات التى عادةً تتولى الدولة تقديمها. وبعض السكان يدفعون لصيانة الطرق والأرصفة وإنارة الشوارع ورعاية الحدائق والأمن.

وليس من قبيل المصادفة أن انطلقت الاتحادات السكنية فى كاليفورنيا فى سبعينيات القرن العشرين، أى العقد نفسه الذى شهد التصديق على الاقتراح ١٣ الذى يقضى بخفض الضرائب على المحليات. كما تزامن نموها مع انتشار المدارس الخاصة والحراسة الأمنية الخاصة؛ فتعداد الحراس الخصوصيين فاق عدد أفراد الشرطة «العامة» بنسبة ٤ إلى ١ فى جنوب كاليفورنيا. وهناك قطاع متنامٍ من الطبقة المتوسطة الأمريكية بدأ فى التخلى عن الدولة، حيث يعيشون على طرق خاصة ويرسلون أولادهم إلى مدارس خاصة ويتكفلون بأجور قوتهم الشرطية الخاصة ويلعبون الجولف فى أندية خاصة. فما الداعى لدعم الخدمات العامة إذا كانت الخدمات التى تحتاج تصلك بصورة خاصة؟ وبعض التجمعات المسورة الخاصة بالمسنين، صوتت بعدم السماح بوجود المدارس العامة داخل أسوارهم. وتمثل العقود والاشتراطات والقيود أحد أشكال خصخصة النظام القانونى. فمنها ما يحدد لك كيف تبيع دارك. ولكن يبدو أن اللوائح تزداد

تعقيداً. فهناك توجه بتحديد وزن الكلاب ـ ثلاثون رطلاً فى العادة. وتتفوق العقود والاشتراطات والقيود الخاصة على قانون البلديات إلى حد كبير (فى مجال عقود بيع العقارات مثلاً). بل إن أى تجمع سكنى يستطيع أن يضع لوائح تحدد من يسكنه. فهناك العديد من تجمعات المتقاعدين تشترط أن يكون واحد على الأقل من سكان كل بيت فوق الخامسة والخمسين من عمره ويشترط عدم وجود أطفال.

وانتشار المدن الفاضلة المنسلخة من مثيلات أنثم قد يجر على أمريكا كافة أشكال المشكلات الاجتماعية. فماذا عن الفقراء الذين تركوا فى المساكن العامة والمدارس العامة ووسائل النقل العام؟. لكنها فى الوقت نفسه مراتع لتنشئة قاعدة محافظة. فهى ليست مجرد مسألة مصلحة شخصية (لماذا تدفع للمدارس العامة إذا كان أبناؤك ملتحقين بمدارس خاصة؟)، بل مسألة أيديولوچيا. فالليبرالية الأمريكية مجدولة فى الحكومة؛ ومع ذلك فأسرع قطاعات سوق الإسكان نمواً يقوم على فكرة الانسلاخ عن الحكومة. إنها مؤامرة للإبقاء على أمريكا المحافظة بما يلقى اليأس فى قلب هيلارى بحق.

عقيدة أمريكية خالصة

من الحقائق الأساسية عن حركة المحافظين الأمريكية أنها ليست مجرد حركة محافظين بل أنها أمريكية. فحركة المحافظين فى أمريكا تبدو كمهاجر اندمج لدرجة أن لم يعد أقاربه الأوروبيون يعرفونه. وتتميز حركة المحافظين الأمريكية باستيعابها ثلاثًا من أكثر سمات البلاد انتشاراً، وهى التفاؤل والفردية والإيمان غير المعقد بالرأسمالية. وفى استيعابها هذه السمات الثلاث، رفضت ـ أو نسيت ـ بعضًا من معتقدات حركة المحافظين الأوروبية الجوهرية، أى الشك والتشاؤم والإيمان بالهرمية الاجتماعية.

فى سنة ١٨٩٠م، ذهب فردريك إنجلز إلى أن نجاح حركة المحافظين الأمريكية يكمن فى تحررها من شراك الإقطاع، فالأمريكيون فى رأيه «يولدون محافظين ـ وذلك لأن أمريكا تنظيم برجوازى صرف». [٢٧] والأحزاب المحافظة فى أوروبا اليوم أقرب إلى التعثر فى حبائل الديمقراطية الاجتماعية منها للإقطاع. أما المحافظون الأمريكيون فيظلون «غارقين فى برجوازيتهم» ويظلون على فخارهم الذى كانوا عليه فى تسعينيات

القرن التاسع عشر بالتنظيم البرجوازى للمجتمع. وهو ما يفسر اختلافهم عن المحافظين الأوروبيين ونجاحهم المتصل.

وأمريكا فى مزاج وطنى خاص فى اللحظة الراهنة فى ظل رواج خطبها الوطنية لحد السيطرة، وبزعمائها السياسيين ممن يرمون منافسيهم بالخيانة. ولكن من المهم أن نتذكر أن هؤلاء الوطنيين الساخطين يجمع بينهم أكثر مما يتصورون. وسبق أن رأينا أن حركة المحافظين تغيرت وتبدلت بسبب ما يمكن تسميته بالنزعة الأمريكية. ولا بد الآن من النظر إلى الطريقة التى يتم بها تحول الليبرالية تحت وطأة القوة نفسها.

***

الفصل الخامس عشر

صرخة الليبرالية الطويلة الحزينة

فى قصيدته الجميلة «شاطئ دوفر» يشكو ماثيو أرنولد من تراجع الدين فى إنجلترا على الرغم من ازدحامها بمن يدعون أنهم يؤمنون بالديانة المسيحية :

بحر الإيمان
كان فيما مضى دافقًا ويعلو شاطئ الأرض
وينام على ثنايا نطاق ملفوف
أما الآن فلا أسمع
سوى صرخته المنسحبة الطويلة الحزينة .

فالصوت الذى نسمعه فى خلفية الحياة السياسية الأمريكية طوال السنوات الثلاثين الماضية هو صرخة الليبرالية المنسحبة الطويلة الحزينة . وحتى لا يحدث أى لبس ، فنحن لا نقصد الليبرالية الكلاسيكية التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، بل نسخة الحكومة الأمريكية الكبيرة . المؤكد أن مثل هؤلاء الليبراليين الميالين لليسار موجودون فى الولايات المتحدة ، إلا أن عقيدتهم فقدت سيطرتها على البلاد ؛ بل إن عدم وجود أية حركة ليبرالية واضحة هو الذى يجعل أمريكا مكانًا فريدًا . ولا يتضح انتصار اليمين فى أجلى صوره إلا حين ننظر إلى ما ألم باليسار .

لا يزال هناك كثير من الميالين لليسار فى أمريكا . ففى سنة ١٩٨٤م حتى والتر مونديل الضعيف نجح فى الحصول على ٤١ ٪ من الأصوات . كما أن الليبراليين

لايزالون يسيطرون على العديد من أهم بقاع البلاد، ومنها الجامعات ووسائل الإعلام والمدن الساحلية التى تجتذب معظم الزائرين الأجانب. والليبراليون ـ باعتراف حتى بعض المحافظين ـ لهم الغلبة على أجمل البقاع الحضرية فى أمريكا، من برنتوود إلى شارع بليكر وكثرة من أروع المنتجعات من سوزاليتو إلى كيب كود، وحيثما يُعَرّف الخصر الجسد (الولايات الحمراء [اليسارية] تقف ضد كثير من الأشياء، لكن المساعدة الثانية ليست من بينها). ومكن الليبراليون مايكل مور من أن يحتل قمة قائمة أكثر الكتب مبيعًا، ومكنت لفترة هوارد دين من بلوغ صدارة المجموعة الديمقراطية فى سباق الرئاسة فى سنة ٢٠٠٤م.

وفى إحدى الساحات السياسية المهمة أصبح الديمقراطيون أكثر ليبرالية. فكما أصبح الجمهوريون بمجلس النواب أكثر محافظة منذ أواسط السبعينيات، اتخذ الديمقراطيون بمجلس النواب الاتجاه المعاكس. وفى سنة ١٩٧٢م، أعطى «اتحاد المحافظين الأمريكيين» الديمقراطيين بمجلس النواب متوسط مجموع نقاط قدره ٣٢؛ وفى سنة ٢٠٠٢م، لم يزد هذا الرقم عن ١٣ (انظر الملحق). وفى سنة ١٩٧٢م، أحرز ديمقراطى ولايات الجنوب فى چورچيا (متوسط نقاط ٨٣) وڤيرچينيا (٨٤) وميسيسيپى (٩٠) أعلى من معظم جمهوريى الشمال الشرقى. أما الآن فليس هناك سوى ولاية واحدة ـ كنتاكى ـ لها متوسط نقاط ديمقراطى أعلى من ٤١، وذلك لأن ديمقراطيى كنتاكى الأوحد المؤيد للأسلحة النارية والمعارض للإجهاض والمؤيد لشركات التبغ: كن لوكاس الذى يحصل على متوسط ٨٤، يعد جمهوريًا فى كل شىء إلا الاسم (لم يحضر المؤتمر الديمقراطى بلوس أنچيليس فى سنة ٢٠٠٠م لأنه لم يشأ أن يشتت «وحدة الحزب»).[١]

ومتأخرًا حتى الثمانينيات، كان المحافظون الجنوبيون لا يزالون يكتسحون معظم المواقع المهمة فى بنية الحزب الديمقراطى الهرمية بقوة الأقدمية. ويحل محلهم اليوم الليبراليون من حملة البطاقات من الساحلين الأيمن والأيسر من أمثال نانسى پيلوزى زعيمة الأقلية(*) بمجلس النواب التى سنتناول دائرتها سان فرانسيسكو فى الخاتمة. وفى مجلس الشيوخ نجد أن أسد الليبرالية تيد كنيدى ربما يعد أقوى أعضاء المجلس من الديمقراطيين. وتم انتخابه لأول مرة لعضوية مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٦٢م، وهو

(*) أصبحت بعد انتخابات ٢٠٠٦م زعيمة الأغلبية.

حاليًا أقدم أعضائه بعد روبرت بيرد، وهو ديمقراطي مخضرم آخر. وبعد تحليله السلوك الانتخابي للكونجرس السادس بعد المائة والذي انتهى في سنة ٢٠٠٢م، خلص جاري چاكربسون بجامعة كاليفورنيا بسان دييجو إلى أنه كان الأكثر انقسامًا من الناحية الأيديولوچية منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى.[٢]

تعكس هذه الروح الوطنية المتصاعدة بمجلس النواب انقسامًا متناميًا في البلاد ككل. فإذا كان لليمين شخصياته الكريهة مثل هيلاري كلينتون، فكذلك هناك من يكرهه اليسار. وكثير من الديمقراطيين المحدثين لا يختلفون مع جورج بوش الابن وحسب؛ بل يشمئزون من كل ما فيه، بدءًا مما يرونه فيه من شبه بالإنسان البدائي الأول وانتهاءً باتسامته المتكلفة. وبلغ متوسط تأييد بوش بين الديمقراطيين في ضوء ١١١ استطلاع أجريت حتى سبتمبر ٢٠٠٣ نسبة ٥١,٧ ٪ مقارنةً بنسبة ٩٤ ٪ بين الجمهوريين، إلا أن هذه النسب كانت قبل أحداث ١١ سبتمبر لدى الديمقراطيين ٣٠٪ في مقابل ٨٩ ٪ بين الجمهوريين.[٣] وما إن خبا بريق ١١ سبتمبر حتى عادت الفجوة سيرتها الأولى وبانتقام؛ ففي صيف ٢٠٠٣م كان بوش لا يزال يحرز أكثر من ٩٠ ٪ بين الجمهوريين، لكن الرقم بين الديمقراطيين تهاوى إلى أقل من ١٦ ٪ ـ تاركًا فجوة وطنية بين الرقمين أوسع حتى من تلك التي أحدثها بيل كلينتون[٤].

من ثم فلا شك أن هناك كثرة من الليبراليين في أمريكا. ولا شك أيضًا في أن هؤلاء الليبراليين يتحرقون لطرد الجمهوريين من السلطة. إلا أن الليبرالية كفلسفة حكم ماتت. وكان نجاح الليبرالية الأمريكية يقوم على قدرتها على حل المشكلات. فمثلاً «الصفقة الجديدة» لم تعالج الكساد الكبير وحسب، بل أوجدت جمهورًا للحكومة الفاعلة. وفي سنة ١٩٥٢م كان عدد الديمقراطيين المسجلين يفوق عدد الجمهوريين بنسبة اثنين لواحد. ويرى هاري هوپكنز أقرب مستشاري روزڤلت أن الحزب اكتشف المعادلة المثلى للقوة الأبدية: «الضرائب والإنفاق والانتخابات». إلا أن هذه المعادلة فشلت على مدار السنوات الثلاثين الماضية. فلم يعد الأمريكيون يحتشدون وراء معيار الحكومة الفاعلة كما كانوا يفعلون في الستينيات أو كما لا يزال يفعل الأوروپيون. والدليل انخفاض عدد الأمريكيين ممن يعتقدون أن الحكومة يمكن الاعتماد عليها في حسن التدبير (في سنة ١٩٩٤م، أعلن أحد المسئولين الديمقراطيين في مقاطعة مونتجومري بولاية ماري لاند خطة لإلغاء لفظ «حكومة» من الاستعمال الرسمي لأنه

يتسم «بالعجرفة»)[٥]. والدليل الطريقة التى ساعد بها كلينتون على تفكيك البرامج الحكومية[٦].

وليس هناك إلا قليل من الأمل فى إفلات الليبرالية الأمريكية من ذلك الحصار الخانق، وذلك بسبب ما يمكن تسميته حكم الثلثين؛ فلا تزيد نسبة الديمقراطيين فى أيامنا هذه عن الثلث، ولا تزيد نسبة من يصفون أنفسهم بالليبراليين من هؤلاء الديمقراطيين عن الثلث.[٧] (فى حين أن ثلثى الجمهوريين يصفون أنفسهم بالمحافظين.) واستولى الديمقراطيون الجدد على حكم ولايات محافظة مثل نيو مكسيكو وأريزونا وكانسس، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بالتضحية بليبراليتهم القديمة - بإبداء القوة كما فعل الجنرال باتن وباتباع التيار السائد كما فعل وال-مارت. وخرجت كل من چانيت ناپوليتانو (فى أريزونا) وكاثلين سيبليوس (فى كانسس) بحلول واقعية للمشكلات التعليمية والمالية. وفى نيو مكسيكو، خفض بيل ريتشاردسون ضريبة الدخل وضريبة مكاسب رأس المال فى الولاية. وفى ميتشيجان، تشبثت چينيفر جرانهولم بوعدها «لا ضرائب جديدة» واتخذت موقفًا قويًا حين واجهت عصيانًا مدنيًا. وكان رد فعل فيل بريدسون حاكم تينيسى الجديد إزاء عجز الموازنة فى ولايته فى سنة ٢٠٠٣م نموذجيًا، إذ جمع كافة مسئوليه وأمرهم بخفض الإنفاق بنسبة ٩٪ وبإيضاح سياساتهم فى ندوة عامة.

لِمَ كان كيرى ودين فى صفنا؟

على اليسار، هناك رد جاهز على ادعاء موت الليبرالية هذا، وهو: ماذا لو كان الديمقراطيون فازوا بالرئاسة فى سنة ٢٠٠٤م؟ كان هذا ممكنًا فى ظل القتل اليومى للقوات الأمريكية فى العراق والقلق السائد من انعدام الأمن الاقتصادى. ولكن هل انتصار الديمقراطيين سيبطل رأينا العام فى وجود حركة المحافظين فى قلب الاستثنائية الأمريكية؟ على العكس، فنحن نرى من جانبنا أنه سرعان ما كان سيؤكده. وحتى فى وجود ديمقراطى فى البيت الأبيض، تظل أمريكا أكثر محافظة من نظرائها فى الغرب.

كانت معركة الترشيح الديمقراطى لسنة ٢٠٠٤م فى حد ذاتها «صرخة منسحبة

طويلة». كانت البداية بعد ظهر يوم سبت حار فى أغسطس ٢٠٠٣م فى «فولز تشرش ـ Falls Church» بولاية ڤيرچينيا. كانت الطرق المحيطة بالضاحية مكتظة بالسيارات ولم يكن هناك من هو أسعد من چو تريپى. فقبل ذلك بسبعة أشهر، كان المستشار المخضرم يشن حملة رئاسية مع سبعة من المتطوعين ومبلغ هزيل فى المصرف لا يعدو المائة والخمسين ألف دولار. كان على تريپى أن يوفد مرشحه دون صحبة فى جولاته لتوفير ثمن تذاكر الطيران. والآن جاء ٤٥٠٠ شخص إلى إحدى ضواحى ڤيرچينيا ـ وكان تلقى ٣٥٠ ألف دولار عبر الإنترنت فى صباح ذلك اليوم.

كان بزوغ نجم هوارد دين حاكم ڤيرمونت السابق أحد أكثر الأحداث إثارة فى السياسة الأمريكية منذ سنوات. ولا يستغرب من منشق أن يسبب اضطرابًا غير متوقع لمن يحتل مكان الصدارة بين المرشحين فى الانتخابات التمهيدية؛ وهذا ما فعله چون ماكين بصورة مشهودة فى نيوهمپشاير فى سنة ٢٠٠٠م. إلا أن دين فى هذه المرة تحول إلى مكان الصدارة بين المرشحين. وفى أغسطس، تقدم على المرشح الأول لمؤسسة الحزب الديمقراطى چون كيرى بإحدى وعشرين نقطة فى نيوهمپشاير، وكان يجمع تبرعات أكبر من أى مرشح غيره. وفى ديسمبر بلغت حصيلة ما جمع ٤٠ مليون دولار إضافة إلى دعم آل چور وعدد من أكبر نقابات أمريكا.

كان تمرد دين شهادة لقوتين، أولاهما سطوة الإنترنت التى استعان بها فى جمع المتطوعين والتبرعات، والأخرى قوة النشطاء الليبراليين فى الحزب الديمقراطى. واختلس دين شعارًا للراحل پول ولستون يزعم فيه أنه يمثل «الجناح الديمقراطى من الحزب الديمقراطى» ـ الجناح الذى كان يستشيط غضبًا من قادته من أمثال كيرى لمسايرتهم چورچ بوش فى كل فعاله. وراق ذلك للديمقراطيين المتشددين الذين كانوا غاضبين من الانتخابات «المسروقة»، ومن خفض الضرائب، ومن قانون الوطنية، وفوق هذا وذاك من حرب العراق. وسرعان ما دق دين طبوله ضد ذلك النزاع أكثر مما فعل أى جيش يسانده.

كان هوارد براش دين من أغرب أبطال الليبرالية الأمريكية. وكان قادمًا من خلفية تشبه خلفية چورچ بوش الابن (بل إن جدة بوش كانت وصيفة لجدة دين فى عرسها). وكان أبوه مصرفيًا فى وول ستريت وجمهوريًا مخلصًا (كانت أولى تجارب دين الصغير مع السياسة القومية زيارة مؤتمر ١٩٦٤م القومى الذى رشح جولدواتر). وشب فى

شارع «پارك أڤينيو» و «لونج آيلاند». وتلقى تعليمه فى مدرسة پريسكوت بوش القديمة وفى جامعة ييل.

وكحاكم لأكثر ولايات أمريكا ليبرالية، وهى ڤيرمونت، لمدة إحدى عشرة سنة، لم يكن الطبيب الذى تحول إلى السياسة يساريّا بالمعايير الأوروپية؛ بل كان من الديمقراطيين الجدد البراجماتيين الذين يقاومون زيادة الإنفاق غير المسئول ويساندون المصالح التجارية ويتهمون متلقى إعانة البطالة بالافتقار للكرامة، وكرسوا كثيرًا من طاقاتهم لإسكات أقصى اليسار (ڤيرمونت من الولايات القلائل التى كان مثل هذا الكيان يمثل فيها قوة سياسية حقيقية، إذ كان بها عضو مجلس النواب الاشتراكى الوحيد وهو برنى ساندرز). وكان دين لا يقل محافظة فى القضايا الثقافية؛ فأحرز قمة التقدير من «اتحاد البنادق القومى» لمساندته حق حمل الأسلحة المخفية فى ڤيرمونت، وتحول لتأييد عقوبة الإعدام فى وقت كان فيه حتى الحكام الجمهوريين يعربون عن شكوكهم فيها.

حتى فى أثناء حملته الانتفاضية ظل على ولائه لبعض مبادئه المحافظة. فروج لنفسه باعتباره «صقر العجز الاقتصادى» و «عفريت الموازنة المتوازنة». وأخذ يباهى برغبته فى أن يكون مرشح «من يحملون أعلام الكونفيدرالية فى شاحناتهم» ولو أنه سحب هذه العبارة فيما بعد على أثر وابل من الانتقادات من منافسيه. وكانت خطته للرعاية الصحية أكثر اعتبارًا لمقتضيات السوق من خطة هيلارى كلينتون لسنة ١٩٩٤م وأرخص من خطة ريتشارد جيهارت لسنة ٢٠٠٤م (٨٨ مليار دولار فى مقابل ٢١٤ مليارًا). وفى مجال السياسة الخارجية، كان يذكر أنصاره بأنه يعارض حرب العراق، ولكنه سرعان ما أضاف أنه يؤيد حرب الخليج الأولى وحملة أفغانستان، ووعد فى فولز تشرش بأنه «لن يتردد» فى إرسال القوات الأمريكية «إلى أى مكان فى العالم دفاعًا عن بلاده». وكان يقول إن لأمريكا الحق فى شن هجوم وقائى على أى تهديد من أى نظام مارق لديه أسلحة دمار شامل؛ ولكنه كان يعتقد أن العراق ليست لديه أسلحة من هذا النوع.

كان للرجل الذى أحيا الجناح اليسارى فى أمريكا آراء فى كل ما كان يمكن أن يستبعده من سياسة يسار الوسط فى أوروپا. فكان بالمعايير الأوروپية من أكثر أنصار إسرائيل تشددًا.[٨] وكان يعارض معاهدة كيوتو ويؤيد التدخل فى ليبريا ويسخر من

لين بوش مع السعودية. بل إن دين قال إنه لو كان يعيش قبل ثلاثين سنة لكان جمهوريًا من نوعية أيزنهاور. وصرح لصحيفة نيويورك تايمز قائلاً: «إنه ليحزننى أن يقول البعض إنى المرشح الأكثر تقدمية على الساحة الذى يتحدث عن موازنة متوازنة ونظام رعاية صحية يديره القطاع الخاص. كنتُ ثلاثى الأبعاد قبل أن يكون كلينتون ثلاثى الأبعاد. أنا فى داخلى معتدل».[٩] واعترض سويدى من أنصار دين عمل معه فى أيوا بأن مرشحه لو كان فى السويد لاعتُبر «محافظًا وسطيًا».

نجح دين فى التحول إلى بطل اليسار الديمقراطى، لا بالتخلى عن آرائه الوسطية برمتها، بل بمقارعة إدارة بوش حول قضيتين أساسيتين ـ معارضته للحرب على العراق وإصراره على إبطال كافة التخفيضات التى أجراها بوش على الضرائب. وأدى إصرار دين على تقديم اختيار لا مجرد صدى إلى جذب معظم المرشحين الديمقراطيين نحو اليسار. فقال كيرى الذى يعد التجسيد الفعلى لمؤسسة الحزب الديمقراطى إن آخر ما تحتاجه البلاد «حزب جمهورى آخر». وأحيا چون إدواردز، وهو عضو مجلس شيوخ، من نورث كارولينا نزعة آل چور الشعبية ذات الصبغة الجنوبية مع جرعة مضافة ـ من الحمائية. وفجأة بدأ بوب جراهام ـ الذى يعد نموذجًا لكياسة نواب مجلس الشيوخ فى الحديث عن إتهام بوش قبل أن يرحل بسبب نقص الأموال. وانضم ويزلى كلارك إلى اللغط الدائر حول حرب العراق. ولم يصمد أمام رياح اليسار إلا چو ليبرمان(*).

وبدا الأمر لفترة كأن الترشيح جاهز لدين بمجرد أن يعلن موافقته. وانتشر آلاف من المتطوعين الشبان على الطرق السريعة والداخلية فى أيوا ونيوهمپشاير لحشد المؤيدين والترويج لرسالة إحياء الليبرالية. وصدرت مجلة «ناشيونال ريڤيو» وعلى غلافها مناشدة تقول «رجاءً رشحوا هذا الرجل». ولكن حين تحول اهتمام الناخبين عن تنفيس غضبهم إلى اختيار مرشح يهزم بوش، تخلوا بكل قوة عن النمط الذى يمثله دين من الليبرالية الغاضبة. وفى أواسط يناير، تبين من استطلاع أجراه معهد جالوپ أن واحدًا

(*) أمريكى يهودى، رشحه الحزب الديمقراطى نائبًا لجور فى انتخابات عام ٢٠٠٠م التى فاز بها بوش، وهو من أشد المؤيدين، إن لم يكن الداعين لغزو العراق. لهذا خسر ترشيح الحزب الديمقراطى له فى منتصف عام ٢٠٠٦م. فانفصل عن الحزب، وخاصة الانتخابات لمستقل وفاز فيها. وهو بالطبع من أشد مؤيدى إسرائيل.

فقط من كل أربعة ديمقراطيين يريد من حزبه أن يرشح «ليبراليًا».[١٠] ومع اقتراب مؤتمرات أيوا الحزبية، بدأت معارضة دين القوية لسياسة بوش الخارجية تحسب عليه. وجاء رفضه الاعتراف بأن اعتقال صدام حسين جعل أمريكا أكثر أمنًا بالإضافة لإصراره على استحالة اعتبار أسامة بن لادن مذنبًا إلا بعد محاكمة (دولية ربما) ليدعم الفكرة القائلة إن الديمقراطيين كانوا فى طريقهم لتكرار غلطة ١٩٧٢م ـ باختيار ماكجفرن آخر.

وتحولت مؤتمرات أيوا الحزبية إلى إهانة «للجناح الديمقراطى من الحزب الديمقراطى». وأحرز دين المرتبة الثالثة لا بعد كيرى وحسب، بل أيضًا بعد إدواردز الذى أيد مثل كيرى حرب العراق ورفض إلغاء جل التخفيضات الضريبية التى أجراها بوش. وبعد كل ما أبدوا من غضب وغيظ، أيد أربعة من كل خمسة ممن حضروا المؤتمرات، المرشحين الذين كانوا يؤيدون شرعية الضربة الأمريكية للعراق، على الأقل. وكانت ثانية الخسائر الناجمة من نصيب الليبرالى الكبير الآخر ـ ولو أنه فى هذه المرة كان ممثلاً لذوى الياقات الزرقاء لا اليسار الجامعى. تبنى ديك جيهارت رسالة شعبية تدعو لإقامة حواجز حمائية وزيادة الإنفاق العام على الرعاية الصحية ورفع الحد الأدنى للأجور. واعتزل النائب البرلمانى السياسة بعد أن جاء فى المرتبة الرابعة المهينة.

وكان مما زاد من انتكاسة دين فى أيوا خطاب غريب ألقاه بعد هزيمته اختتمه بصرخة تحد لم تؤد إلا إلى ترسيخ الانطباع بأن همه كان منصبًا على التنفيس عن غضبه لا على تولّى دفة الحكم. وفجأة سيطرت على الحملة مسألة «الأهلية للترشيح»؛ حيث سعت الليبرالية الأمريكية لتخمين أى المرشحين أقل عدوانية فى مهاجمة القطاعات المحافظة من الشعب ككل. وكرر كيرى نجاحه فى نيوهمپشاير؛ حيث فاز بأكثر من نصف أصوات من سعوا لاختيار المرشح الأرجح لهزم بوش. وحصل دين على اثنتى عشرة نقطة أقل من نائب برلمانى اشتهر بالتبلد كان تفوق عليه من قبل بعشرين نقطة قبل ذلك ببضع أسابيع فقط ـ فسارع بفصل تريپى من موقعه كمدير حملته.

كان إحراز ويزلى كلارك المرتبة الثالثة ـ البائسة أيضًا ـ بمثابة ضربة للجناح الليبرالى من الحزب. وحاول هذا الوافد الجديد على السياسة والجنرال الجمهورى السابق أن يقدم نفسه فى صورة نسخة قابلة للانتخاب من دين، وأخذ يستعرض أوراق اعتماده

العسكرية («انتصرتُ فى حرب») ويُرَوِّج المنطلق الليبرالى لحزبه. وجمع تأييد نشطاء من أمثال تد دانسن ومايكل مور (وأخفق بشدة فى التبرؤ من اتهام مور لبوش بالهرب من الجيش الأمريكى). ووافق على مبدأ حق المرأة فى الاختيار «حتى لو كانت رأس الجنين بدأت تخرج من الرحم». ومع ذلك فشل كل هذا فى أن يترجم إلى أصوات. فعلى الرغم من كل ما كان الناخبون الديمقراطيون يكنون من غضب على بوش، كانوا يريدون اختيار شخص معتدل جدير بالانتخاب، لا جمرة أيديولوچية متقدة ـ أو صورة طبق الأصل من جمرة أيديولوچية متقدة. وكان من الواضح أن هذا المعتدل الجدير بالانتخاب هو چون كيرى.

سارع المؤيدون المتحمسون السياسيون، لا سيما المحافظون فى حملة بوش ـ تشينى إلى الإشارة إلى أن عضو مجلس الشيوخ الصغير من ماساشوستس كان له سجل سياسى أكثر «ليبرالية» من دين (قبل أن يبدأ حاكم ڤيرمونت خوض انتخابات الرئاسة على الأقل). واندفع كيرى إلى الساحة السياسية بكل قوة فى صورة زعيم حركة مناهضة للحرب فى أوائل السبعينيات؛ حيث جمع البيت الأبيض فى عهد نيكسون مادة عنه كـ «معارض». وكان نائبًا لحاكم ماساشوستس مايكل دوكاكيس. وكعضو بمجلس الشيوخ اعتنق الآراء الليبرالية فى كل موضوع فى العالم، من إجهاض الولادة الجزئية إلى عقوبة الإعدام، وهاجم حتى حق أمريكا الإلهى فى النفط الرخيص بدفاعه عن زيادة قدرها نصف دولار إلى ضريبة البنزين؛ كما دعا لخفض تمويل «مكتب المباحث الاتحادى» ولفرض قيود على «هيئة الاستخبارات المركزية». وأعطى التنظيم الليبرالى الرائد «أمريكيون من أجل العمل الديمقراطى» لچون كيرى نسبة تأييد أعلى (٩٣ ٪) من تد كنيدى (٨٨ ٪). وقال إد چيلپسپى رئيس «اللجنة القومية الجمهورية» فى شماتة: «ومن ذا الذى كان يخمن ذلك؟ تد كنيدى هو عضو مجلس الشيوخ المحافظ من ماساشوستس!». وأكد جمهوريون آخرون أن كيرى ممثل آخر للجناح الأوروبى من الحزب الديمقراطى، بل اعتبروا أنه «يشبه الفرنسيين» بشكل مريب قال توم ديلاى زعيم الأغلبية بمجلس النواب أمام حشد من الجمهوريين المبتهجين فى أغسطس ٢٠٠٣م «صباح الخير ـ Goodmorning» أو: Bonjour كما قد يقول چون كيرى.

أخذ أنصار روف يلقون بهذه الاتهامات وأكثر منها بكثير طوال حملة ٢٠٠٤م على كيرى، فى محاولة لتصويره كأنه نسخة أخرى من دوكاكيس، ونجحوا فى ذلك إلى حد ما. إلا أن ليبرالية كيرى لا بد من تمحيصها فى نقطتين. الأولى فوزه بترشيح الديمقراطيين بتقديمه نفسه كبديل وسطى لدين: رجل أيد الحرب على العراق ويؤمن بالإبقاء على الأقل على بعض التخفيضات الضريبية التى أجراها بوش. وانقض دون هوادة على أهلية دين لتولى منصب القائد بعد أن قال الأخير إن جيش أمريكا لن يحتفظ بمكانته كأقوى جيوش العالم إلى الأبد. وادعى أن سياسته تدين لدعوة روزڤلت لإيجاد سوق معتدلة أكثر مما تدين للنزعة الشعبية اليسارية.[١١] وإذا كان دين الوسطى السابق اندفع إلى الساحة بجر حزبه إلى اليسار؛ فإن كيرى الليبرالى القادم من ماساشوستس فاز بالترشيح بإعادته إلى الوسط مرة أخرى.

ثانيًا نأى «نائب الحاكم» كيرى بنفسه عن ماضيه كمعارض للحرب ونافس بوش على أساس سجله كمحارب. وأخذ يذكر الناس باستمرار بأنه كان من محاربى ڤيتنام وجازف بحياته فداءً لزملائه الجنود فى دلتا نهر ميكونج، بل قام رفاقه فى السلاح بتقديمه فى مؤتمر بوسطن. وكان هذا يمثل فى بعض منه انتقادًا لإدارة بوش؛ فكان كيرى يرى أن من أسباب حماس الإدارة لخوض الحرب وجود العديد من «الصقور الجبناء» فيها ممن فروا من ڤيتنام. ونال قدرًا من الهتاف حين تباهى بأنه يعرف «بعض الأشياء فعلاً عن حاملات الطائرات». إلا أن الأمر كان أكثر من مجرد ضرب ضمنى على رأس بوش. فكان كيرى يود أن يبين أن لديه من القوة ما يكفى للتعامل مع عالم صعب من الإرهاب والدول المارقة. وما كان ليتهور بإلقاء القوات فى أتون الحرب كما فعلت إدارة بوش؛ ولكنه ما كان ليتردد فى ذلك لو كان ذلك ضروريًا لأمن أمريكا.

كان كيرى يدعم هذه النقطة بإحاطة نفسه بعمال الإطفاء والمحاربين القدامى وكل ما يجسد الفحولة الأمريكية، وبالتأكيد على حماسه للرياضات الرجولية كهوكى الجليد والتزلج على الماء وصيد البر.[١٢] وصرح فى حماس لصحيفة واشنطن پوست قائلاً: «أنا أحب الحمام. يمكنك أن تنظفه وتتركه. ويحتاج المرء لثلاثة منه أو أربعة فى الوجبة الواحدة. يمكنك أن تتناوله فى نزهة، مشوى وبارد».[١٣] ثم شرع فى وصف تفصيلى لكيفية تحضير غزال (تنتزع القلب ثم الأحشاء ثم تقطع اللحم).

لا يمكن لأوروبى أن يرى فى كيرى يساريًا (أو فرنسيًا). ولم يكن كيرى يبدد أى وقت فى إبلاغ الناس بأنه ما كان ليتردد فى إعدام الإرهابيين، ولديه هو أيضًا قائمة بدول لم يكن بوش يمارس بطشه بما يكفى معها. ويؤيد كيرى معظم الإجراءات العسكرية الأمريكية منذ حرب ڤيتنام ـ البوسنة وكوسوڤا وپنما والصومال وهايتى، وحرب العراق بالطبع.

كما صُدم الليبراليون الأوروپيون بشىء آخر فى كيرى، وهو ثراؤه الفاحش. فكيرى أحد أغنى النواب فى مجلس شيوخ يكتظ بالأثرياء؛ فهو من خاصة نيوإنجلاند ذوى الدماء الزرقاء (اسمه الأوسط فوربس) وورثت زوجته تيريسا هاينز ثروة تزيد عن نصف مليار دولار عن زوجها الأول چون هاينز الثالث الذى كان عضو مجلس شيوخ جمهورى والذى ورث ثروة من الصلصة (الكيتشپ). وتلقى كيرى تعليمه فى إحدى مدارس سويسرا الداخلية قبل الانتقال إلى مدارس سان پول الداخلية ثم إلى جامعة ييل (التى انضم فيها إلى «جمعية الجمجمة والعظام» مثل أجيال بوش الثلاثة). وفى أحلك أيام حملته الرئاسية، تمكن من مواصلة مسيرته برهن بيته فى بوسطن مقابل ستة ملايين دولار. فارق كبير عن معظم الأحزاب الاشتراكية الأوروپية التى كانت لا تضم سوى حفنة من العمال الكادحين. لكن قليلاً منها ما كان بزعامة أشباه ملياردیرات.

هذه الخلفية قد تفسر سبب اعتبار كيرى نمطًا غريبًا من الليبراليين. وبتفحص سجله الانتخابى عن كثب، يتبين أن حماسه للقضية كان يبدو شبيهًا بحماس چورچ بوش الأب لحركة المحافظين؛ مجرد وسيلة لغاية. كان كيرى يحرك قبضته يمينًا ويسارًا ولكن دون دليل على اشتباك فعلى. لم يكن يحاول أن يعيد التفكير فى الليبرالية كما حاول كلينتون أن يفعل حين كان مرشحًا فى أوائل التسعينيات، ولا سعى للتشبث بقضية ليبرالية محددة. بل كانت صلته بجماعات المصالح الكبرى على اليسار أشبه بصلة بوش الأب، مجرد ولاء سطحى يقطعه نباح اعتراض من حين لآخر ويعقبه تراجع سريع. ممثلاً فى مرحلة ما من التسعينيات، انتقد كيرى نقابات المعلمين لوقوفها فى طريق الإصلاح ودعا لإلغاء التثبيت الوظيفى «بصورته الراهنة»؛ وفى مرحلة أخرى كان يوحى للأقليات بأن العمل الإيجابى لم يعد يمثل حملة تقدمية كبرى. وفى كلتا الحالتين كان عضو مجلس الشيوخ الطموح يتراجع متخاذلاً.

وكلما أمعنا النظر إلى الديمقراطيين الذين سعوا للرئاسة فى سنة ٢٠٠٤م من منظور دولى، كلما بدا ميلهم لليسار أقل. فملحوظة دين بأنه أشبه بجمهورى من نوعية أيزنهاور منه بليبرالى متحمس كان يمكن أن يدعيها أى من كبار المرشحين. ولم يدعُ أى منهم إلى تمديد جذرى لحجم الحكومة؛ بل كان معظمهم يتخذون مواقف على يمين مايكل دوكاكيس، ناهيك عن چورچ ماكجڤرن. وكان إدواردز مليونير آخر يحصل على دعمه المالى من زملائه المحامين ـ وكان يركز على الجنوبيين البيض. وكان ليبرمان يحتل موقعًا إلى اليمين أكثر ـ فهو أخلاقى دينى يدين خطيئة بيل كلينتون ويؤيد حرب العراق، بل إنه أحدث بعض الجلبة حول صكوك التعليم. وكان كلارك جمهوريًا قبل التحول إلى ديمقراطى يسارى فى صقيع نيوهمپشاير. وكان يباهى بالتصويت لصالح ريجان، وألقى فى سنة ٢٠٠٢م خطابًا يثنى فيه على بوش ويحض الناس على دعم الحزب الجمهورى (من الصعب تصور حزب من يسار الوسط فى أوروپا يذهب إلى الجيش بحثًا عن قائد له).

حتى آخر أمل لليبرالية الأمريكية فى سنة ٢٠٠٨م، وهى هيلارى كلينتون، تبدو كمن بدأت رحلة عودة إلى الوسط. قد تظل أثيرة اليسار الأمريكى، ولكنها غيرت لهجتها منذ أن خاضت غمار السياسة بمفردها، فتخلت عن موقفها المؤيد للفلسطينيين، وبدأت تبدى تأييدها لسياسات متشددة فيما يخص إعانة البطالة، وأخذت تكسو نفسها بريش الصقور. وفى مجلس الشيوخ انضمت إلى «لجنة الخدمات المسلحة» بدلاً من التشبث بقضيتيها السابقتين الصحة والرعاية الاجتماعية؛ وهى تستغل هذا الموقف لدعم الحرب على الإرهاب وليس تقويضها. وعندما أدلى دونالد رامسفيلد بشهادته وراء أبواب مغلقة أمام اللجنة فى أحلك لحظات حرب العراق، نال دعمًا قويًا من السيدة الأولى السابقة، وقامت بزيارات دعائية كبرى للقوات المرابطة فى أفغانستان والعراق. وحتى مذكراتها المثيرة للغثيان، يمكن تفسيرها كعمل معقد عن السياسة الوسطية: فمن كانت فيما مضى تستهزئ بالزوجات اللائى يبقين فى بيوتهن ليخبزن الكعك لأزواجهن حادت عن طريقها لتقول إن زواجها كان تقليديًا ولم يكن مجرد اتحاد مصالح سياسى، وأخذت تتحدث عن ميثوديتها الكنسية وتعاطفها وهى صغيرة مع بارى جولدواتر. وهى مثل كيرى وبقيتهم تعرف أهمية التأهيل للانتخاب.

وعند تولى السلطة؟

أثبتت حملة چون كيرى أنه لم يكن يبشر بأن يكون رئيسًا «أوروپيًا». ولكن مرة أخرى نقول إنه لو فاز فربما كان سيحاول الاتجاه يسارًا. وما الذى كان يمكن أن ينجزه كيرى كرئيس ليبرالى حقيقى؟ الإجابة قليل جدًا.

إن أكبر قيد بالنسبة لأى رئيس ليبرالى من الطراز القديم هو سلطة الكونجرس الذى يرجح أن يظل تحت سيطرة الجمهوريين(*). ففى ٢٠٠٤م، زاد الجمهوريون أغلبيتهم الفعالة على الديمقراطيين فى مجلس الشيوخ من ٥١ ـ ٤٩ إلى ٥٥ ـ ٤٥؛ كما أضافوا بضع مقاعد لأغلبيتهم فى مجلس النواب. ولو كان كيرى فاز بالرئاسة لما حقق الجمهوريون ما حققوا؛ ولكن لا أحد توقع أن تتغير الأمور فى مجلس النواب فى سنة ٢٠٠٤م. وحتى فى مجلس الشيوخ الأكثر توازنًا، كان الديمقراطيون يدافعون عن تسعة عشر مقعدًا فى ٢٠٠٤م، أى أكثر من الجمهوريين بأربعة مقاعد. وكان عشرة من مقاعد الديمقراطيين فى ولايات فاز بها چورچ بوش الابن فى سنة ٢٠٠٠م، ومنها خمس فى الجنوب حيث كان الأعضاء الديمقراطيون يوشكون على التقاعد (زل ميلر عن چورچيا، وچون إدواردز عن نورث كارولينا، وفريتس هولينجز عن ساوث كارولينا، وبوب جراهام عن فلوريدا، وچون بروكس عن لويزيانا).

وثانى القيود على أى رئيس ديمقراطى يحيد إلى اليسار هو المال. ففى دورة ٢٠٠٠م الانتخابية تم إنفاق ما يقدر بثلاثة مليارات دولار على السباقين الرئاسى والبرلمانى ومليار آخر على انتخابات حكام الولايات. وما من دولة أخرى يحدث فيها ذلك. فتكلفة الفوز بمقعد بمجلس الشيوخ ـ ٧,٧ مليون دولار حاليًا ـ توازى نصف المبلغ الذى أنفقه حزب العمال برمته لكى يعاد انتخابه فى سنة ٢٠٠١م فى بريطانيا.(١٤) والديمقراطيون أقل إدمانًا على التبرع من محافظى شارع كيه فى رئاسة الحزب الجمهورى، ولكن على طريقة أن مدمن الكوكايين أخف وطأة من مدمن الهيروين. وهناك مناسبات ـ كما حدث فى تمرد دين ـ يمكن للساسة فيها أن يجمعوا مبالغ مالية كبيرة من التبرعات الصغيرة. إلا أن حالات التمرد بطبيعتها لا تحدث إلا فى حالة خرق القواعد العادية للسياسة. والحزب الديمقراطى كآلة يعتمد على التبرعات الكبيرة. لا شك أن الديمقراطيين يحصلون على المال من النقابات، لكن النقابات تأتى

(*) سيطر عليه الديمقراطيون بعد انتخابات ٢٠٠٦م.

فى المرتبة الخامسة على القائمة بعد عدد من المصالح التجارية كأباطرة السينما والمحامين وشركات العقارات والمصرفيين الاستثماريين. وإذا نحينا دين جانبًا، فإن الاتجاه ينحو نحو البحث الأعمق فى جيوب المؤسسات. ومن أعظم إسهامات بيل كلينتون لحزبه، أنه أثبت أن حزب الشعب يستطيع أن ينقب جيوب الأعمال بصورة لا تقل كفاءة عن الجمهوريين. ففى معركة «المؤمَّنين ضد المحامين» القديمة، حلب بيل كلينتون المحامين بصورة لا تقل كفاءة عن استنزاف الجمهوريين المؤمَّنين.

كل هذه الأموال السياسية تجر الديمقراطيين حتمًا إلى اليمين. وفى معظم الدول الأخرى، عادة ما تنحنى السياسة للصراع الماركسى الكلاسيكى بين رأس المال والطبقة العاملة؛ أما فى أمريكا فالسياسة صراع بين جزء من رأس المال ضد جزء آخر. وهذا لا ينفى أن الساسة يمكن أن يصوتوا فى بعض الحالات ضد مصالحهم المالية الأفضل ـ كما حدث حين صوت مجلس النواب لصالح السماح بإعادة استيراد الأدوية الرخيصة فى يوليه ٢٠٠٣م، على الرغم من سيل المال الذى أنفقته شركات الأدوية على الجانب الآخر ـ ولكن فى نهاية الأمر لا بد من أن يحصل المساهم فى المؤسسات على المقابل. ففى سنة ١٩٩٦م، كافأت إدارة كلينتون أحد أكبر متبرعيها، وهى صناعة الاتصالات، بنطاق بث مجانى بما يقدر بسبعين مليار دولار ـ وهى نفحة وصفها چون ماكين بأنها «إحدى أكبر حالات التدليس منذ فضيحة قبة أبريق الشاى «تيپُت دوم».[١٥] والحالة الوحيدة التى يتمكن فيها الديمقراطيون من الفكاك من سطوة أموال المؤسسات حين يجدون أناسًا لديهم من المال ما يكفى لخوض الانتخابات بمالهم الخاص. وهكذا أنفق چون كورزاين الرئيس السابق لشركة «جولدمان ساكس» ما يقرب من ستين مليون دولار من ثروته حتى يصبح عضو مجلس شيوخ عن نيوچرسى. وأنفق تونى سانشيز الذى جمع ماله من صناعة الطاقة والمصارف مبلغًا قريبًا من هذا حتى يصبح حاكم تكساس. ومن يستطيعون كسب هذا الكم من المال، نادرًا ما يجدون فى أنفسهم ميلاً لإعادة صوغ الرأسمالية.

وثالثة القوى التى تحبط أى رئيس ليبرالى، هى ما يمكن تسميته مؤسسة واشنطن الدائمة أى من يسكنون على ضفاف پوتوماك بصرف النظر عمن يحتل البيت الأبيض. ويعد التذمر من المؤسسة الليبرالية الدائمة جزءًا من حياة اليمين منذ سنوات. ولكن ولى الزمن الذى كان يرحل فيه المحافظون عن العاصمة متجهين إلى أعمالهم ومزارعهم بعد

فقدهم مناصبهم. فواشنطن الآن مستقر مؤسسة محافظة دائمة تستمد سطوتها من المال وتتسلح بالأيديولوچيا وقوامها منتديات فكر تستطيع الخَروج بانتقادات بارعة لأية سياسة فى لمح البصر، ومثقفون ينبحون على صفحات «واشنطن تايمز» وعلى شاشة فوكس الإخبارية على أى تجاوز ليبرالى. ولم تكن هذه المؤسسة المحافظة تكل عن ملاحقة بيل كلينتون الديمقراطى الوسطى؛ فما بالك بما قد تعمله مع ليبرالى حقيقى.

حزب «الليبراليون بالاسم فقط» LINO Party

تحركت معظم أحزاب يسار الوسط نحو اليمين فى السنوات العشر الأخيرة، ومن الأمثلة تحول حزب العمل فى ظل قيادة تونى بلير. ومع ذلك فلا يزال جدول أعمال الديمقراطيين يعد محافظًا بكل ما فى الكلمة من معنى مقارنة بأى من نظرائه خارج أمريكا. ولا يزال حزب اليسار الأمريكى يتخذ موقفًا فروسيًا إزاء المؤتمرات متعددة الأطراف فى الخارج، أما فى الداخل، فهو منهمك فى خفض حجم الحكومة وخفض دولة الرفاهية وخفض الضرائب، ويميل أكثر إلى الدين وتشديد العقوبات والأسلحة النارية. والسياسة الأمريكية فى أيامنا هذه رياضة يلعبها يمين الوسط أمام اليمين. والديمقراطيون حاليًا ليبراليون بالاسم فقط (Liberals in Name Only).

إن أوضح مثال على استثنائية الحزب الديمقراطى الأمريكى موقفه من عقوبة الإعدام. فتأييد عقوبة الإعدام فى معظم بقاع العالم المتحضر امتياز قاصر على الهامش المختل (وعلى اليمين المختل فى هذه الحالة). ويرفض الاتحاد الأوروپى الاعتراف بالدول ما لم تتبرأ من تطبيقها. وعقوبة الإعدام محظورة (باستثناء حالات قصوى كالخيانة) فى مائة دولة وعشر. والدول الوحيدة التى تطبق عقوبة الإعدام وفقًا للميزان الأمريكى هى الصين وإيران والسعودية والكونغو؛ والدولة المتقدمة الوحيدة الأخرى التى تصدق على عقوبة الإعدام هى اليابان. وتحظرها الديمقراطيات الناشئة كوسيلة لإثبات لياقتها للانضمام لمجموعة الدول المحترمة؛ فحين تولى نيلسون مانديللا السلطة فى جنوب إفريقيا، كان من أولى الإجراءات التى اتخذ إلغاء هذه العقوبة. ولطالما كان ولع أمريكا بالإعدام مصدرًا للخلاف مع سائر الدول المتقدمة، لأسباب أقلها الدفاع

الضعيف الذى يحظى به المتهمون. وهناك صحيفة سويسرية مهمة احتفلت بتولى چورچ بوش الابن السلطة بنشر كل ما عثرت عليه من صور للسجناء المائة والاثنين والخمسين الذين أعدموا فى عهده كحاكم تكساس. بل إن چاك لانج أحد أشهر ساسة فرنسا وصف بوش «بالقاتل».

لم لا يشعر الديمقراطيون الأمريكيون بهذا الإحساس لا سيما وأن معارضة عقوبة الإعدام يمكن اعتبارها جزءًا من تراث أميركى مجيد؟ ميتشيجان حظرت تطبيق هذه العقوبة فى سنة ١٨٤٦م حين كانت شائعة فى دول أوروپا. وكان التخلص من هذه العادة الجنوبية ـ التى يفترض أنها بربرية ـ أحد أكبر أهداف المؤسسة الليبرالية فى ستينيات القرن العشرين. كما أن آلية الموت الأمريكية خربة بشدة وفقًا للعديد من المعايير الموضوعية. والنظام يتسم بالتقلب لدرجة تدعو لليأس، مما يمثل فضيحة لحزب يضم بين أعضائه هذا العدد من المحامين. فاحتمالات أن يدفع المجرم فى تكساس الثمن الأقصى أكبر كثيرًا منها فى كاليفورنيا. وأكثر من مائة ممن وضعوا فى طابور الإعدام منذ إعادة إقرار عقوبة الإعدام فى سنة ١٩٧٦م ثبتت فيما بعد براءتهم. والنظام متحيز أيضًا ضد الفقراء والأقليات، وهم من يدعى الديمقراطيون أنهم يخوضون معترك السياسة لمساعدتهم. والاحتمال كبير فى أن يحصل المتهمون الفقراء على محامين غير أكفاء. ففى إحدى الحالات الشهيرة فى تكساس، غلب النوم محامى المتهم فى أثناء أدائه عمله؛ وفى حالة أخرى ثبت أن محامى المتهم غير متفرغ للمحاماة ويدير حانة.

على كل هناك دليل ثمين صغير على تغيير الديمقراطيين رأيهم. إذ كان أكثر ما ميز چون كيرى من سمات ليبرالية لا لبس فيها معارضته عقوبة الإعدام إلا للإرهابيين. ولكنه كمرشح رئاسى، كان يركز على الاستثناء لا المبدأ. والمثال الأوضح رود بلاچوويفتش الذى أصبح حاكم إيلينوى فى سنة ٢٠٠٣م ـ إذ سارع بالتنديد بقرار سلفه الجمهورى المارق چورچ راين بتخفيف ١٦٧ حكمًا بالإعدام (كان راين قلقًا لما يتسم به نظام المحاكمات من خلل). ويرتبط چورچ بوش الابن دومًا بعقوبة الإعدام، إلا أن بيل كلينتون شهد ارتفاع فى معدلات القتل [الإعدام] أكثر من أى رئيس غيره. ففى التسعينيات، زادت عدد عمليات الإعدام فى الولايات المتحدة خمس أمثالها

تقريبًا، وزاد عدد الولايات التى تطبق عقوبة الإعدام إلى أكثر من الضعف، من ١٣ إلى ٣٢. وفى ١٩٩٦م غداة تفجير مبنى أوكلاهوما، وقع كلينتون ما عرف بقانون «مكافحة الإرهاب وعقوبة الإعدام الفعالة». وفى انتخابات حاكم كاليفورنيا فى سنة ١٩٩٨م، عنف جراى ديڤيز خصمه الجمهورى دان لانجرين على فتور همته فى حالات الإعدام وقال: «لو أحسن رجالك عملهم لما أصبح لدينا تأجيلات لمدة خمس عشرة سنة من استئنافات أحكام الإعدام». وجعل تأييد عقوبة الإعدام شرطًا لتعيين القضاة. وهناك حكام ولايات ديمقراطيون حديثون غيره من أمثال دون سيجلمان حاكم ألاباما، حاولوا التعجيل بالإعدام. وحاولنا أن نجد حاكمًا ديمقراطيًا واحدًا يعارض عقوبة الإعدام بين أربعة وعشرين حاكمًا فلم نجد.

كان ذلك يرجع فى معظم الحالات لحسابات انتخابية لا لمبدأ. فالحزب الديمقراطى لا تزال تتملكه هواجس الهزائم التى منى بها أبرز داعيتيه لإلغاء هذه العقوبة، أى مايكل دوكاكيس، وماريو كومو الذى خسر فى انتخابات حاكم نيويورك سنة ١٩٩٤م أمام چورچ پاتاكى. بسبب ـ جزئيًا ـ اعتراضه اثنتى عشرة مرة على مشروعات قوانين لتطبيق عقوبة الإعدام. وتبلغ نسبة المؤيدين لعقوبة الإعدام من الأمريكيين سبعين ٪ وفقًا لاستطلاعات معهد جالوپ بعد أن كانت لا تزيد عن ٤٢ ٪ فى سنة ١٩٦٦م. حتى من يسمون أنفسهم معتدلين يؤيدون عقوبة الإعدام بهامش قدره ٥٢ ٪ فى مقابل ٤٦ ٪. ويرى فريق من الأمريكيين أن عقوبة الإعدام لا تطبق بشكل كاف. (تم إعدام واحد وسبعين شخصًا فى سنة ٢٠٠٢م من مجموع ٣٧٠٠ ينتظرون التنفيذ.) وعدد الديمقراطيين الذين يرون أن عقوبة الإعدام لا تطبق بالقدر الكافى (٤٠ ٪) يفوق من يرون أنها تطبق بقدر أكبر من اللازم (٣٦ ٪).

تعد عقوبة الإعدام من القضايا التى تحرز أصواتًا لدرجة أن احتمالات تطبيقها من قبل الولايات فى السنوات التى تشهد انتخابات الحكام تفوق احتمالات تطبيقها فى السنوات الأخرى. وأصبح الإعدام يرتبط بعملية أخذ الأصوات لدرجة أنه أصبح قضية شبه عامة من جديد. فحين تم إعدام تيموثى ماكڤاى فى سنة ٢٠٠١م، اختار حوالى ثلاثمائة شخص، معظمهم من أقارب ضحايا تفجير مدينة أوكلاهوما فى سنة ١٩٩٥م، مشاهدة الإعدام بأعينهم: ثلاثون منهم حضروا فى داخل السجن وشهدوا

الإعدام خلل ساتر زجاجى، والبقية شاهدوه على شاشات دوائر تليفزيونية مغلقة، وكانوا فى مجملهم أكبر جمهور يشهد إعدام أمريكى منذ آخر حالة شنق عام فى سنة ١٩٣٦م (حيث قضى عشرون ألف شخص يومًا لطيفًا خارج دورهم يشاهدون إعدام راينى بيثيا فى مدينة أوينزبورو بولاية كنتاكى).

أوضح رد الفعل تجاه تخفيف چورچ راين الجماعى لأحكام الإعدام، كم كان لدى الديمقراطيين حق فى أن يحذروا المسألة. وبدلاً من إعطاء دفعة لحركة الإلغاء كما تمنى راين، أيقظ الإجراء عملاق حقوق الضحايا من سباته. فسارع نقاد إجراء راين الجرىء إلى الإشارة إلى أنه كان من «العشوائية والتقلب» أن يتم إنقاذ الكل من الإعدام حتى من ثبتت عليهم التهم. وكان فيدل كافى وچاكلين ويليامز من بين من استفادوا من إجراء راين. وكانا قررا فى سنة ١٩٩٥م أن ينجبا طفلاً آخر (كان لدى چاكلين ثلاثة أطفال فعلاً)، فطعنا سيدة حاملاً وأردياها وأخرجا الجنين شبه المكتمل من بطنها. وإكمالاً للجريمة، قتلا معها طفلتها التى كانت فى العاشرة من عمرها وابنها ذا الثمانى سنوات.

وما قبول عقوبة الإعدام إلا جزء من تحرك ديمقراطيى أمريكا إلى اليمين. والليبراليون محقون فى الإشارة إلى انتصار رأيهم داخل الحزب فيما يتعلق بالإجهاض والعمل الإيجابى، لكن هناك كثرة من القضايا الليبرالية ينأى الحزب بنفسه عنها، كزواج الشواذ. وعلى الرغم من الظلم الذى يشوب الحرب على المخدرات فإننا نسمع عن إباحة المخدرات من «معهد كاطو» أكثر مما نسمع من الحزب الديمقراطى. وقام الديمقراطيون بتراجع إستراتيچى فى مسألة دولة الرفاهية، وخاضوا معركة ضعيفة حول تخفيضات بوش الضريبية الضخمة.

أما بالنسبة للدين، فالديمقراطيون ولا شك أكثر الحزبين علمانية؛ ففى ٢٠٠١م فاز آل جور بنسبة ٦١٪ من أصوات الأمريكيين الذين لا يذهبون إلى الكنائس.[١٦] ومع ذلك فإن جور نفسه من النوع المتدين. إذ درس اللاهوت بجامعة ڤاندربيلت، وباعتباره من المولودين ثانيًا مع تيپر فى السبعينيات، فهو دائمًا يعتبر الدين حجر الأساس فى حياته.[١٧] وصرح أمام جمع من طلاب هارڤارد فى يوم التخرج فى سنة ١٩٩٤م قائلاً: «أنا أؤمن بخدمة الله وبمحاولة فهم مشيئة الله فى حياتنا وبطاعته». وفى «القلوب المتصلة» كتب آل وتيپر يقولان: «إن عقائدنا الراسخة تشكل جوهر القيم التى

تجمع بيننا، وشعائر إرثنا الإيمانى تمدنا دومًا بإيقاع مطمئن يساعد على استقرار حياتنا الأسرية». وقالا إن دعاء الشكر قبل تناول الطعام مهم قدر الطعام نفسه، وإن دعاء قبل النوم أمر لازم. والذهاب إلى الكنيسة فى أيام الآحاد «أهم نشاط عائلى فى الأسبوع».[١٨] وكان جور لا يقل حماسًا عن چورچ بوش الابن فيما يتعلق بالاستعانة بالتنظيمات الدينية لتساعد فى حل المشكلات الاجتماعية. وكثير من الديمقراطيين الآخرين يراءون بالتدين. فكان بيل كلينتون وزوجته كلاهما يترددان على الكنيسة بانتظام، وكانت هيلارى من أتباع الكنيسة المنهجية مثل بوش. ولم يكن مستشار كلينتون الروحى چيسى چاكسون يجد غضاضة فى أن يقحم الدين فى الحياة العامة. وربما كان من أوائل الأشياء التى اكتشفها جمهور الأمريكيين فى چو ليبرمان أنه يهودى متدين. ويواظب كل من ريتشارد جيهارت وچون إدواردز وچون كيرى على ذكر اسم الله فى أحاديثهم بانتظام. وحتى هوارد دين أكثر المرشحين الديمقراطيين علمانية منذ مايكل دوكاكيس، وجد فى نفسه الحماس فجأة لحضور قداسات الكنائس بمجرد أن حمى وطيس الانتخابات الأولية.

عن هولى وود وهارڤارد

أين نجد ليبراليين متمسكين بمبادئ الليبرالية القديمة إذن؟ إذا سألتَ المحافظين فسيقولون إنهم موجودون فى أكبر معقلين لإفساد الشباب: الدوائر الأكاديمية وهولى وود. وليس منهما فى الحقيقة من يمكن اعتباره «أوروپيًا» كما قد نتوقع.

تعد مدن الدوائر الأكاديمية مراكز النشاط الليبرالى. وفى بعض الحالات، منها بيركلى أو هارڤارد أو كولومبيا، تتكيف الجامعة مع ثقافة اليسار المحلية. وفى حالات أكثر ـ مثل أوستون وأثنز وبولدر ـ تتحول الجامعة إلى جزيرة صغيرة غاضبة للثائرين الملتحين ومن يصففون شعرهم على شكل ذيل حصان، يحيط بهم عادةً بحر من الجمهوريين من أهالى تكساس أو چورچيا أو كولورادو. إلا أن هذا لا يمنع الدوائر الأكاديمية الليبرالية الأمريكية من أن تبدو أمريكية أكثر مما تبدو ليبرالية ـ على الأقل بالنسبة لمن عايش الأوساط الأكاديمية الأوروپية ولو لبعض الوقت.

فالجامعات فى أوروبا لا تمولها الدولة وحسب، بل تديرها أيضًا. ففى فرنسا، ليس هناك إزعاج التنافس على وظائف أعضاء هيئة التدريس، لأن الهرمية الأكاديمية تحددها الأعراف وقوانين الدولة. وفى ألمانيا تقرر الدولة أى الطلاب تقبلهم الجامعات (كل من ينجح من الطلبة فى امتحانات الدولة من حقهم الالتحاق بالجامعات المحلية) وتحدد رواتب الأساتذة. أما جامعات أمريكا البالغ عددها ٤١٠٠، سواء أكانت عامة اسميًا أو خاصة، فتخضع لأعراف السوق. تتنافس دون كلل فيما بينها على كل شىء، من نجوم أعضاء هيئة التدريس إلى الطلبة الواعدين. كما أن معظم الجامعات آلات لا تكل من جمع المال وفى حالة بحث دائب عن سبل تزيد من عوائدها وتضيف إلى أوقافها. وزادت مصروفات الأكاديميا بشكل أسرع كثيرًا من التضخم (فى سنة ٢٠٠٢ رفعت الكليات مصروفاتها بنسبة ١٠ ٪ تقريبًا). وهارڤارد التى تسبح على بحر من الأموال، لم يردعها ثراؤها الفاحش عن تسول التبرعات من خريجيها (ومنح أبنائهم ميزة طفيفة فى طلبات الالتحاق حتى تحفز سخاءهم).

ومن لا يعرف السباحة فى الوسط التنافسى للجامعات من الطلاب يترك ليغرق. فقط نصف طلاب أمريكا يتخرجون فى غضون خمس سنوات. وهى نسبة لا تزيد عن واحد من كل أربعة إذا حسبنا الطلبة من الأسر الفقيرة. وعندما يتعلق الأمر بحياتهم العملية، فإن الأساتذة لا يكلون من ممارسة اقتصاديات اللا مساواة. وتسعى الجامعات لتحسين وضعها فى الهرم الأكاديمى باستخدام نجوم الأساتذة. والأساتذة النجوم يسعون دون كلل لتحسين رواتبهم وصورهم بمغازلة المؤسسات المنافسة. واحتدمت الحرب على نجوم أساتذة الجامعات حتى بات على الجامعات أن تدفع رواتب أكثر من سخية للإيقاع بفرائسها: إجازات غير عادية ومساعدات بحثية ووظائف للأزواج والزوجات. بل إن جامعة كولومبيا منحت چيفرى ساكس ـ خبير الاقتصاد التنموى المتخصص فى دراسة الفقر ـ سكنًا فى بيت قيمته ثمانية ملايين دولار.[١٩]

وتعتبر جامعة تنزلتاون نفسها معبدًا لليبرالية. فظل لو واسرمان سمسار نفوذ ديمقراطى طوال نصف قرن. وأدى كل من بوجى وباكال دورهما مع أدلاى ستيڤنسون؛ وأبدت مارلين مونرو ورات پاك تأييدهما لكنيدى؛ وأخذ وارن بيتى يلقى الخطب تأييدًا لكنيدى فى سنة ١٩٦٨م، وخطط لچورچ ماكجڤرن فى سنة ١٩٧٢م وعمل مستشارًا لجارى هارت فى سنة ١٩٨٨م؛ وكان كلينتون يحظى بمجموعة من

الأنصار فى هولى وود منذ بداية عمله القومى بقيادة مايك ميداقوى الذى أصبح رئيسًا لترای ستار؛ وساعد روب راينر على استمرار حملة هوارد دين.[٢٠] والمحسنون الليبراليون من أمثال ستانلى شينباوم ونورمان لير يقصدهم أى مرشح ديمقراطى طموح. ويروق لليمين أن يتهكم على هؤلاء الممثلين بوصفهم بالضحالة. والحقيقة أن رأى هولى وود يأتى على درجات متفاوتة من الإقناع. فعلى القمة، هناك ما يشبه صالون اليسار. ويعد بيتى من ينابيع المعرفة فى السياسة الأمريكية، وراودته ذات مرة فكرة ترشيح نفسه للرئاسة. وتستطيع لورن باكال مهاجمة چورچ بوش الابن بصورة تذكرنا بمهاجمة آن ريتشارد لأبيه. ومع ذلك فليس ثم ما ينم عن أن هذه المهارات ورثها جيل الشباب. وهناك مرشح رئاسة ديمقراطى من الثمانينيات تصادف أن تولى حكم ولاية من الحجم المتوسط، شكا ذات مرة لأحدنا من اضطراره للاستماع لدروس من ووپى جولدبرج حول السياسة المالية. وهدد أليك بالدوين بالرحيل عن الولايات المتحدة إذا انتخب چورچ بوش الابن ولم ينفذ تهديده، وواصل تشبيه انتخابات ٢٠٠٠م بأحداث ١١ سپتمبر من حيث تأثيرها على الديمقراطية الأمريكية.[٢١]

ولكن إذا نظرنا إلى أسلوب تنظيم هولى وود، فسنكتشف صورة مختلفة تمامًا. فصناعة السينما الأوروبية مقيدة بشبكة من الدعم والحماية الحكوميين بدعوى الحفاظ على الثقافة وتعليم الجماهير. أما هولى وود فأنشأها مهاجرون لا يحلمون إلا بجذب المتبطلين إلى مقاعد دور السينما. وتتخذ الإستديوهات مواقعها فى قلب صناعة لا مركزية تقوم على السرعة والمرونة ومكرسة لتحقيق أقصى ربحية. وتسيطر أفلام هولى وود على كافة أسواق العالم تقريبًا. ويمكن لنجوم هولى وود أن يحصلوا على أجر يبلغ ٢٠ مليون دولار عن فيلم واحد. ويحتال الفاشل منهم على العيش بقبول أعمال محدودة الأجر. ويتم هذا كله دون أدنى تدخل من الحكومة.

وبغض النظر عن كونها نافذة للتحضر، فإن جل الليبراليين الأوروبيين ينظرون لهولى وود بمزيج من الرعب والاشمئزاز. ومهما كان كم المال الذى تجمعه جامعة تينزلتاون من أجل اليسار الأمريكى، ومهما كان حجم الازدراء الذى توجهه إلى چورچ بوش الابن، فإن معظم سكان العالم يعتبرونها ممثلاً لنوعية الثقافة التى يمثلها بوش ـ الجشع والدموية والتجبر الذى يفرض سيطرة بالغة على مقدرات العالم. وككثير من ديمقراطيى أمريكا، تعد هولى وود فى حد ذاتها مكانًا أكثر محافظة مما يتصور معظم من فيها أنفسهم.

obeikan.com

خاتمة

التعايش مع أمة اليمين

إن تأمل مستقبل أية أمة أمر تحفه المخاطر، وفى بلد بحجم أمريكا وبحجم تناقضاتها قد يعد ضربًا من الغرور. قد تقود أمة اليمين الولايات المتحدة، ولكنها تحوى العديد من أشكال المستقبل المحتملة. ومهما كان الأمر، فالنقطة التى يستحسن أن ننطلق منها هى الذراع الحكومى الذى أوجده المؤسسون ليكون الأقرب للرأى الشعبى - أى مجلس النواب - والشخصيتان اللتان تقابلان رئيس الوزراء وزعيم المعارضة فى أية دولة أخرى، أى الجمهورى دينيس هاستيرت رئيس مجلس النواب ونانسى بيلوزى وهى زعيم الأقلية الديمقراطية.[١](*)

يمثل هذان الصدام السياسى الذى تتبعنا فى هذا الكتاب. هاستيرت، وهو مدرب مصارعة سابق من الوزن الثقيل، محافظ واضح المعالم يعارض الإجهاض وزواج الشواذ ومعاهدة كيوتو، ويؤيد غزو العراق وعقوبة الإعدام. وبيلوزى، وهى امرأة ضئيلة الحجم كالعصفور، على الطرف الآخر من الطيف السياسى. أحرز هاستيرت مائة ٪ من تأييد «اتحاد المحافظين الأمريكيين» وقت كان يصوت بانتظام. (رئيس مجلس النواب الأمريكى فى وضع غريب، فهو يرأس حزبه بالمجلس بينما يعمل كزعيم لكلا الحزبين بالمجلس.) وأحرزت بيلوزى ٨ ٪ من تأييد الاتحاد نفسه فى سنة ٢٠٠٠م، وصفر ٪ فى سنة ١٩٩٩م. ويحظى كل منهما بمحبة زملائه فى كابيتول هيل، ولكن ليس من الغريب أن العلاقة بينهما تتسم بما هو أكثر قليلاً من التهذيب.

(*) كما ذكرنا سابقًا، أصبحت الأغلبية للديمقراطيين فى الكونجرس بمجلسيه: الشيوخ والنواب، وأصبحت نانسى بيلوزى الديمقراطية زعيمة الأغلبية، وأول امرأة ترأس المجلس.

والدوائر التى يمثلها هذان تكشف عن المزيد من الخلافات السياسية فى البلاد. فالدائرة التى تمثلها بيلوزى (الثامنة بكاليفورنيا) لها حدود مشتركة مع سان فرانسيسكو وهى أكثر مدن أمريكا ليبرالية. ولم تحول مثل هذه الحالة الذهنية دون النزعة الجمهورية فى الستينيات؛ بل إن كافة عمد سان فرانسيسكو منذ ١٩١٢م إلى أواسط الستينيات كانوا أعضاء بالحزب الجمهورى. أما فى أيامنا هذه، فلا تزيد نسبة الناخبين المسجلين الجمهوريين عن ١٣ ٪، وليس هناك مسئولون منتخبون من الحزب الجمهورى. والرئيس الحالى لمجلس مشرفى المدينة عضو بحزب الخضر، وكذلك ثلاثة من أعضاء المجلس التعليمى السبعة. وفى سنة ٢٠٠٣م، كادت المدينة تنتخب مات چونزالس الذى كان يبدو أنه لا يملك سيارة ولا ساعة، عمدة لها؛ ولكنه انهزم أمام چافن نيوسم الديمقراطى المحافظ، الذى شرع على الفور فى إصدار تصاريح الزواج للشواذ.[٢]

ومقارنةً بسائر الدوائر «الحمراء»، فالدائرة التى يمثلها هاستيرت (الرابعة عشر فى إيلينوى) تعد قرمزية داكنة. وهى تبدأ بالأحياء الواقعة على بعد ثلاثة عشر ميلاً غرب دائرة شيكاغو ثم تمتد عبر أميال من حقول الأذرة حتى نقطة لا تبعد عن حدود ولاية آيوا إلا بمسافة أربعة أميال. ويستغرق قطعها بالسيارة حوالى ثلاث ساعات. ويمكن القول بأن دائرة هاستيرت أكثر الدوائر جمهورية فى البلاد، على الأقل إذا ما جعلنا المعيار عنصر الولاء الحزبى. وعلى عكس «اليمينيين المحدثين» كولاية تكساس، تكتظ ولاية إيلينوى بالجمهوريين منذ أنشئ الحزب فى سنة ١٨٥٤م. وتضم الدائرة العديد من أبرز المعالم الخاصة بالحزب الجمهورى، من أنصاب تذكارية أقيمت تخليداً لذكرى جنود الاتحاد الذين لقوا حتفهم فى الحرب الأهلية، إلى مسقط رأس رونالد ريجان.

والفروق بين المكانين هائلة لدرجة يصعب معها تحديد نقطة البدء. سان فرانسيسكو جزء من أمريكا الممتدة رأسيّا، فهى مدينة ناطحات السحاب الشاهقة والكثافة السكانية العالية. ودائرة هاستيرت جزء من أمريكا الممتدة أفقيّا. وينطبق ذلك على أهلها أيضًا؛ فالبدانة فى ولاية إيلينوى دليل على الصحة. أما فى سان فرانسيسكو فحتى الطهاة يتميزون بالنحافة. وعمر سان فرانسيسكو من عمر أمريكا ـ مزيج غريب من ذوى الدم الأزرق والشواذ، مليونيرات الإنترنت والهيپيز المسنين. أما دائرة هاستيرت فهى

«عادية» تمامًا؛ حيث يعتبر مواطنوها أنفسهم أمريكيين أصلاء، ورؤيتهم الجغرافية تحدها السهول الكبرى المحيطة بهم.

وأهم الفروق بينهما تكمن فى الموقف من النمو. فسان فرانسيسكو من أروع بقاع الأرض؛ فإذا نظر المرء إلى جسر «جولدن جيت» حين يلفه الضباب فإنه يتخيل أنها الجنة. كما أن بها كل وسائل الراحة فى الحياة المتحضرة، من مطاعم فاخرة إلى متاحف رائعة. وعلى الرغم من كل هذا فالمدينة راكدة. إذ انخفض نصيبها من سكان «نطاق الخليج» من ٣٠٪ فى سنة ١٩٥٠م إلى ١٣٪ حاليًا. وكلما بدأ المكان ينشط كما حدث فى السبعينيات والتسعينيات، يطلع النشطاء المناهضين للنمو بمبادرات اقتراعية تكبحه. وهم يرون أن المدينة لا يمكن أن تنمو إلا على حساب جمالها الأسطورى؛ وأن ٧٧٧ ألف نسمة كافون بالنسبة لمنطقة تلالية لا تزيد مساحتها عن ٤٧ ميلاً مربعًا ويحيط بها الماء من ثلاثة جوانب. ولكن ليس من الضرورى أن تكون مستثمرًا عقاريًا حتى تتأكد من أن هذا محض هراء. ففى الخمسينيات، كان أهالى المدينة يتحدثون عن تعداد سكان لا يزيد عن المليون. أما الجانب الجمالى فلا تزال بقاع من سان فرانسيسكو على روعتها الأخاذة، إلا أن كثيرًا من مناطقها السكنية تتألف من بيوت غريبة الشكل وبعض الأحياء (لا سيما إلى الجنوب من شارع ماركت) تبدو شديدة البهرجة. ويبدو أن قطاعًا كبيرًا من الجماعة المناهضة للنمو يستخف بعالم الأعمال. واحتفل «أنصار الحفاظ على البيئة» مؤخرًا بمنع أحد المستثمرين من تجديد مستودع الأسلحة القديم الذى أصبح شبه آيل للسقوط.

أما دائرة هاستيرت المسطحة المملة فمغرمة بالنمو. تزحف البيوت فيها كجيش جرار باتجاه الغرب عبر السهول الكبرى من شيكاغولاند إلى بلدات الريف مثل يوركفيل (حيث كان هاستيرت يعمل مدرسًا) بل إلى ديكسون (حيث أمضى ريجان ردحًا من صباه). ووراء البيوت تقع كل تجهيزات فترة ازدهار الضواحى من مدارس ضخمة ومراكز تجارية كبرى. حجم المدرسة الثانوية التى كان هاستيرت يعمل فيها بالتدريس فيما مضى منذ خاض معترك السياسة فى سنة ١٩٨٠م. وتصطف الطرق الرئيسة بصفوف من المراكز التجارية (المولات)، اكتظ كل منها بمحلات ضخمة تبدو كأنها انحنت من جراء اختبار مبدأ الاقتصاديات الضخمة إلى أقصى مدى.

ويكمن الفارق الثانى الكبير بين الدائرتين فى الأهمية النسبية للحياة الأسرية. والوافدون على دائرة هاستيرت يأتون من أجل سبب واحد هو تنشئة أبنائهم. فهم يريدون مساحة لبناء بيوت كبيرة ـ يغطى العديد منها مساحة تتجاوز أربعة آلاف قدم مربع ـ والتحرر من سلبيات حياة الحضر، لا سيما الجريمة. وفى حى سان تشارلز الراقى، يمتلك ٨٥٪ من السكان بيوتهم الخاصة؛ وحتى فى حى إلجين حيث يأكل الناس اللحم والبطاطس [أى متوسطى الدخل] تبلغ نسبة امتلاك البيوت ما بين ٧٠ إلى ٧٥٪.

وسان فرانسيسكو لها توجه مختلف تمامًا. ففى النصف الأول من القرن العشرين كانت واحدة من أكثر المدن ترحيبًا بالعائلات فى البلاد، حيث كانت تضم حدائق كبيرة ومدارس وفائض فى البيوت العائلية. وكان البرنامج الإذاعى «أسرة رجل واحد» الذى اشتهر فى أواسط القرن، مقصد كل من ينشد تنشئة أسرة فى كنف جسر جولدن جيت. لكن المدينة تضم حاليًا أقل نسب فى البلاد من الأسر التى تعول أطفالاً (هناك نكتة محلية من أن سان فرانسيسكو بها كلاب أكثر من الأطفال). فحوالى ٧٠٪ من سكانها عزاب. وليس هذا لأن المدينة عاصمة الشواذ فى أمريكا وحسب، بل تضم عددًا كبيرًا من الشباب والمسنين ممن يعيشون وحدهم. وسوق العقارات ونظام المدارس كلاهما يثبطان الأسر. ولا تزيد نسبة من يمتلكون بيوتهم من أهالى سان فرانسيسكو عن ٣٥٪. وفى الوقت نفسه، فتنظيم الإيجارات يساعد على تجميد قطاع الإيجارات ويرسخ ذهنية العداء للنمو فى آن. ونظام المدارس العامة يجهده مزيج من ارتفاع نسبة الهجرة ـ نصف أطفال المدارس بالمدينة يتكلمون فى بيوتهم لغة غير الإنجليزية ـ وسوء الإدارة. فترسل أسر الطبقة المتوسطة أبناءها إلى مدارس خاصة أو يرحلون عن المدينة.

وهناك أيضًا فارق طبقى غريب إلى حد ما بين الدائرتين. فدائرة هاستيرت تضم أناسًا من الطبقة المتوسطة، وهناك عدد معدود من كبار المديرين يسكنون بيوتًا فاخرة ويرسلون أبناءهم إلى مدارس خاصة، إلا أن الأغلبية تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الأمريكية العريضة، ويتسوقون فى مراكز تجارية عملاقة واحدة، ويأكلون فى مطاعم تنتمى للسلاسل الكبرى (منها تشيليز وأيهوب) ويرسلون أبناءهم إلى مدارس عامة ضخمة واحدة. وتشير سو كلينكهامر عمدة سان تشارلز إلى أن منطقتها التعليمية المحلية كبيرة لدرجة تمكن محدودى الدخل من إرسال أبنائهم إلى المدارس نفسها التى يرسل المليونيرات أبناءهم إليها.

أما سان فرانسيسكو فأشبه بمجتمع أرستقراطى. فالمدينة يسكنها بعض من أغنى الناس فى البلاد، وكثير منهم كآل جيتى ورثوا ثرواتهم الضخمة ولم يصنعوها. كما أن بها نسبة كبيرة من المهنيين العزاب ممن يجنون دخولاً تمكنهم من العيش فى مستويات راقية. ومع ذلك فالمدينة تضم أيضًا إحدى أكبر نسب عديمى المأوى فى البلاد، حيث يبلغ تعدادهم ما بين ثمانية آلاف وستة عشر ألفًا، كثرة منهم من مدمنى المخدرات أو المرضى عقليًا ويعيشون فى الطرقات. إنها «مزيج من كارمل وكلكتا» حسب الوصف اللاذع لكثين ستار ـ أمين مكتبة ولاية كاليفورنيا ـ لمدينته.

ويمتد التناقض بين إيلينوى الطبقة المتوسطة وسان فرانسيسكو الأرستقراطية إلى نائبيهما. فكان هاستيرت يدرِّس التاريخ والسياسة ويتولى تدريب المصارعة بثانوية يوركفيل لمدة ست عشرة سنة (وزوجته چين كانت تدرِّس التربية البدنية بها لمدة ست وثلاثين سنة)، وهو مغرم بالسيارات القديمة والرياضة والزراعة. أما پيلوزى فهى أكثر أرستقراطية. وكان كل من أبوها وأخوها عمدة بالتيمور مدينتهم الأصلية، ثم انتقلت إلى كنف أسرة سياسية أخرى هى آل بورتن من سان فرانسيسكو. وزوجها أحد كبار رجال الأعمال بالمدينة، ويعد آل پيلوزى نموذجًا لمشهد سان فرانسيسكو الاجتماعى والثقافى.

والأقل غرابة أن الثقافة السياسية للدائرتين البرلمانيتين أشبه بالزيت والماء. فدائرة هاستيرت مكان يكنّ أهله حبًا لجورج بوش الابن حتى الديمقراطيين منهم. ودائرة پيلوزى مكان يمكن أن يوصف فيه مارك لينو عضو المجلس المحلى عن نصف المدينة الشرقى بالمحافظة، على الرغم من أنه شاذ يؤثر «حقوق المتحولين جنسيًا» وإباحة الحشيش للاستعمالات الطبية. إلا أن الفارق السياسى بين الدائرتين يتجاوز نطاق الأيديولوچيا، إذ أن سان فرانسيسكو مدينة النشطاء السياسيين؛ حيث نجد سيسيل ويليامز «قس التحرر» الذى يدير كنيسة جلايد التذكارية فى قلب حى المجون والرذيلة يباهى قائلاً: «نحن لا نقوم بمظاهرة واحدة هنا يا رجل، بل نقوم بكل المظاهرات». وشهدت المدينة بعضًا من أكبر المظاهرات فى أمريكا ضد حرب العراق. ويعزو النشطاء هذا الجانب إلى ارتفاع مستوى التعليم فى المدينة، فنصف سكانها من حملة الشهادات الجامعية أو العليا. ومعظم سكان المدينة يعملون فى الحكومة، وتعتبر سان فرانسيسكو معقل المؤسسات غير الربحية.

ومما يؤسف له أن الغرام بالسياسة لا يعوض بالضرورة عن حسن الإدارة. فالترتيبات السياسية لسان فرانسيسكو تتسم بالخلل. فالسلطة مقسمة بين عمدة ومجلس مراقبين يسود بينهم الخصام. والمراقبون الأحد عشر منتخبين فى دوائر مختلفة لا من قبل المدينة ككل؛ وهو أمر يرسخ ضيق الأفق. وإذا أضفنا إلى ذلك غرام المدينة بالمبادرات الاقتراعية، تبرز لدينا وصفة مثالية للارتباك الحضرى.

والموقف فى ولاية إيلينوى على العكس تمامًا. فناخبو هاستيرت سيتجهون للاحتشاد الدورى لإحياء ذكرى ١١ سبتمبر، مثلاً، ويشعر كثرة منهم بالغضب من ارتفاع نسبة ضرائب العقارات، ولكنهم غير مولعين بالسياسة. والعاملون بمزرعة هاستيرت التى تبلغ مساحتها مائتى هكتار ويتولون مسئوليتها فى أثناء غيابه يرفضون حتى الآن كل الدعوات للقيام بأولى زياراتهم لواشنطن العاصمة. ومع ذلك يبدو أن السياسة المحلية تسير على ما يرام؛ فالشوارع نظيفة والمدارس تعمل بنجاح. وأبلى عمدتا أورورا وإلجين العماليتين بلاء حسنًا فى عملية تجديد مدينتهيما.

وهناك فارقان آخران صارخان فى القيم. يتمثل الأول فى الموقف من الدين. فشريحة هاستيرت من أمة اليمين لا تعطى الإحساس بالنار والكبريت كشوجرلاند تكساس مثلاً (حيث يسيطر صديقه توم ديلاى على العرين)، إلا أن الدين له أهميته فيها. فالكنائس تشيد والقديم منها يتم توسيعه. وفى ضواحى شيكاغو تضم بعض الكنائس آلاف الأعضاء. أما سان فرانسيسكو فتغلق الكنائس فيها لسنوات. وجاء وقت كان أسقف الكاثوليك من أقوى الشخصيات السياسية فى المدينة. أما الآن فهو شخصية هامشية فى مدينة علمانية إلى حد كبير، مجرد صوت من أصوات دينية متنافرة تتراوح بين البوذية وأعضاء كنيسة الشيطان.

والفارق الآخر فى القيم يكمن فى المواقف من الخلل الاجتماعى. فدائرة هاستيرت منضبطة إلى حد كبير وتكاد تخلو من أمراض الحضر كالتشرد. تقول كلينكهامر عمدة سان تشارلز إنها تلقت مؤخرًا مكالمة تشكو من وجود بيوت للعنكبوت على أحد الجسور المحلية، فأمرت بإزالتها فى اليوم نفسه. أما فى دائرة پيلوزى فيصطف المتسولون فى الطرقات ويعيشون فى مداخل البيوت. وكان لا بد من تسوير نافورة الأمم المتحدة فى «سيڤيك سنتر» لأن المشردين يستعملونها كمرحاض عام. ومع ذلك فالمدينة

ذات الميول اليسارية قاومت محاكاة النهج المحافظ القاسى الذى اتبعه رودى چيلياني فى مدينة نيويورك. ويتلقى المشردون فى سان فرانسيسكو مصروفًا شهريًا من الحكومة وأطعمة مجانية من التنظيمات الدينية. وهناك مبادرة تقترح تقديم الرعاية بدلاً من النقود للمشردين، ولكنها فشلت لأسباب قانونية.

هل انتصرت حركة المحافظين؟

بالنظر إلى «بيلوزى» و «هاستيرت» لا يجد المرء صعوبة لكى يدرك سبب تحول دفة السياسة نحو اليمين. فإذا كانت السياسة الأمريكية أرجوحة فهى غير متوازنة. وإذا تصورنا دينيس هاستيرت على أحد طرفى الأرجوحة ونانسى بيلوزى على الطرف الآخر، فسنعرف أى الحزبين يجلس ورجلاه متدليتان فى الهواء. فهاستيرت هو المنتصر فى الحرب بين الفريقين.

لا بد من الإقرار بأن «انتصار» حركة المحافظين الأمريكية لا يزال أبعد ما يكون عن الاكتمال.[٣] فعلى الرغم من وجود رئيس جمهورى ومجلس النواب جمهورى ومشرعين جمهوريين فى المحليات بصورة أكبر من أى وقت مضى تنفق الحكومة الأمريكية الأموال جزافًا «مثل البحار الثَمل» على حد تعبير چون ماكين. أما بالنسبة للحروب الثقافية، فمعدل الطلاق صار ضعف ما كان عليه فى مطلع الستينيات، وأصبحت نسبة الأسر ذات العائل الواحد ثلاثة أمثال ما كانت عليه فى الستينيات. حتى سلاسل الفنادق مثل هوليداى تقدم الأفلام الإباحية عند الطلب. وبالطبع تظل أمريكا أمة مستقطبة يمكن أن تستغنى عن رئيسها المحافظ فى الانتخابات القادمة.

ومع ذلك، فحتى حين نأخذ هذه التحذيرات والشروط فى الحسبان، فهناك شىء غريب إلى حد ما يحدث فى السياسة الأمريكية. فمن ذا الذى كان يتصور أن تمثل انتخابات الرئاسة ٢٠٠٤م ما يشبه الفرصة الأخيرة بالنسبة للديمقراطيين؟ إلا أن تقدم حركة المحافظين يذهب إلى ما هو أعمق من المكاسب التى أحرزها الحزب الجمهورى على مدى نصف القرن الأخير أو التدهور المنتظم فى عضوية الديمقراطيين. من الواضح أن الزخم الأيديولوچى فى اليمين، كان له ما يماثله فى اليسار فى الستينيات.

وفى عهد بريسكوت بوش، عندما قرر چى. كيه. جالبريث أن كل شخص، وأى شخص عادى يعتبر ليبراليّا، كانت «حركة المحافظين» مرفوضة باعتبارها «نهجًا مختلاً» أو «مرضًا سياسيّا» أو «ارتباك فى الأوضاع». وفى مواجهة بارى جولدواتر فى الستينيات، هبط ريتشارد هوفستاتر إلى مستوى الطنطنة الكلامية: «متى حدث طوال تاريخنا أن بلغ أحد هذه المكانة بمثل هذه الأفكار الغريبة المهجورة والمخزية وعلى هذا القدر من البعد عن الإجماع الأمريكى الأساسى؟» ومع ذلك فإن الحركة المتميزة التى صنعها جولدواتر من سخط الجنوب وتفاؤل حزام الشمس ظلت تتسع وتترسخ. والطنطنة حول بعد أحد المرشحين عن الإجماع الأمريكى، قد تصدر فى أيامنا هذه عن طلاب الماچستير بهارڤارد فى مناقشتهم لسباق چون كيرى الرئاسى. وحين أعلنت صحيفة نيويورك تايمز فى يناير ٢٠٠٤م عن تعيين أحد صحفييها لتغطية «المحافظين» و«تفحص القوى المحافظة فى الدين والسياسة والقانون ووسائل الإعلام»، يمكن القول إن هذا يعد إقرارًا ضمنيّا من الصحيفة القومية العريقة بأنها فاتها أكبر خبر فى السياسة الأمريكية فى نصف القرن الأخير.

يتمثل مدى تحرك مركز الجاذبية فى السياسة الأمريكية نحو اليمين فى الرئيس الحالى وسلفه. فأولاً، جاء أول رئيس ديمقراطى يستمر لفترتين منذ الحرب العالمية الثانية ولم يحقق إنجازه هذا إلا بإدارة دفة الحكم كأنه جمهورى من طراز أيزنهاور. وجاء الآن حفيد بريسكوت بوش وخفض الضرائب ودعم اليمين الدينى وأدار دفة الحكم كأحد أباطرة رجال أعمال حزام الشمس. وهذا وضع يسبب ضيقًا لما هو أكثر من مجرد القطاع الليبرالى فى أمريكا، إذ قد يثير چورچ بوش الابن قدرًا من العداء لا يقل عما أثار أى رئيس آخر منذ ١٩٤٥م. لكن الغريب هو أن بوش إختزل الحزب الديمقراطى إلى مجرد حزب معاد لبوش: حزب القمر بدلاً من حزب الشمس. وبعد أن أعيد انتخاب بوش، بدا عازمًا على مواصلة جدول إعمال محافظ يعيد صوغ الأمن الاجتماعى ويرسخ تخفيضاته الضريبية ويصب المزيد من الأموال فى آلة أمريكا العسكرية. وحتى لو كان چون كيرى هو الذى فاز، كان سيقتصر على محاولة إعادة بناء الواقع السابق وعلى المزيد من الخفض الضريبى لصالح كبار الأثرياء وإصلاح العلاقات مع الخارج (إلى نقطة ما) ولكنه كان سيتعامل مع جدول أعمال يمليه اليمين.

فى سنة ١٩٥٥م، بدت مجلة «ناشيونال ريڤيو» كمن يحارب طواحين الهواء، حين حثت قراءها على الوقوف فى وجه التاريخ ووضع نهاية لأكبر تيارين فى العصر: سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، والعلمنة. ومع ذلك فإن هذين الوافدين الأوروپيين الماكرين تتم مكافحتهما اليوم بحماس بالغ. فأمريكا أكثر دول العالم الغنى تدينًا، حيث تكتظ الكنائس بالمصلين الإيڤانجليكيون يزحفون والكلى القدرة [الله] يتدخل بقوة فى كل السياسات العامة. أما سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج فلم تحقق انتصارًا. فكل من فى السياسة الأمريكية يتغنى بنشيد حرية السوق. والملكية الخاصة تزداد انتشارًا كما يتبين فى حالة دائرة هاستيرت؛ حيث يزداد عدد الأمريكيين الذين يتملكون بيوتهم، وتضاعف حجم هذه البيوت منذ الخمسينيات بفضل امتداد الضواحى.[٥] ومقارنةً بنظرائهم الأوروپيين، يسيطر الأمريكيون [الشعب] على تعليمهم وعلى الإنفاق الطبى وخطط التقاعد والاستثمارات بدرجة أكبر من معاصريهم فى الخارج. قد يكون الإنفاق الحكومى فى ازدياد؛ ولكن كذلك قدرة المحافظين على الانسحاب من الدولة، بدليل نمو ظاهرة التعليم المنزلى وانعزال التجمعات المخططة.

فى الخمسينيات والستينيات حين بدأت حركة المحافظين فى النهوض، بدا الأمر كأن أمريكا عازمة على أن تصبح أكثر أوروپية باتجاهها إلى زيادة حجم دولة الرفاهية وإحكام السيطرة على الأسلحة النارية وتعليق عقوبة الإعدام. واليوم وبفضل قوة أمة اليمين، تعيد الاستثنائية الأمريكية تأكيد نفسها وبقوة. والتوجهات الكبرى فى كافة الجوانب من الديموجرافيا إلى الإنفاق العسكرى توحى بأن الفجوة بين أوروپا والولايات المتحدة مرشحة للاتساع فى العقود القليلة القادمة.

إذن كيف حققت حركة المحافظين هذا التقدم؟ الإجابة البسيطة أنها ككل السلع الناجحة، كانت تلبى حاجة لم يكن أحد يدرك وجودها تمامًا. وفى الماضى اجتذبت حركة المحافظين الأمريكية التاريخ والاجتماع فى صفها. والولايات المتحدة كانت دومًا بلدًا محافظًا غارقًا فى الدين ويعشق الأعمال (البزنس) ويعادى الدولة. ومعظم النمو السكانى منذ الخمسينيات كان فى المناطق المحافظة من البلاد ـ فى الجنوب والضواحى لا فى المدن الديمقراطية أو الشمال الشرقى الليبرالى. وكل ما احتاجه عملاق حركة المحافظين النائم لكى يستيقظ، أن يميل الحزب الديمقراطى يسارًا.

ولكن كان نجاح حركة المحافظين يمثل أكثر من مجرد استجابة لمطلب كامن؛ حركة المحافظين ساعدت فى خلق سوقها.

هناك أمرٌ هيجلى فى حركة المحافظين الحديثة. فجاء أولاً المفكرون الذين تحدثوا عن أهمية الأسواق أو الدين. ثم جاءت بعدهم فيالق أنصار خفض الضرائب والإيڤانجليكيين المسيحيين الذين عبروا عن هذه الأفكار تعبيراً سياسيّا. فإذا نظرنا فيما مضى إلى فريدريك. هايك وويليام بكلى، أو إلى پول ويريش وإدوين فيولنر من بعدهما، لأدهشنا مدى التنظيم الذى تمتع به المحافظون ومدى تركيزهم على أهمية الأفكار. إذ عمل المحافظون بجد على بناء منظومة مضادة من منتديات الفكر وجماعات الضغط ونجوم وسائل الإعلام، كان القصد منها فى البداية إيجاد ثقل موازن أمام المنظومة الليبرالية، ولكنها تحولت الآن إلى منظومة مستقلة ذات حواف أصلب من غريمتها. وكل ما عمله الديمقراطيون أن احتالوا لإيجاد نسختهم الخاصة من «هيريتدج». وإذا لم تكن قسوة حركة المحافظين الأمريكية واضحة، فلننظر إلى معاملتها بيل كلينتون. ولكنها اتجهت على المدى البعيد إلى السياسة الفعالة لا سيما مع إحكام قبضتها على الحزب الجمهورى.

كان التغيير طاغيّا من الناحية الإستراتيچية. فالفلسفة التى «فقدت صوتها» فيما مضى، على حد تعبير راسل كيرك، باتت تتحدث بألف صوت. من المؤكد أن لها تناقضاتها وأوجه غرابتها، إلا أن اليمين يبدو حاليّا أنه انتصر على كل من طرفى الطيف. فهو الذى يصنع المناخ الفكرى بين النخب طوال معظم العقدين الأخيرين؛ ومن اللافت مدى انحسار أحسن المفكرين الليبراليين إلى مستوى رد الفعل أمام حجج المحافظين. وفى الوقت نفسه، أتقن اليمين الأمريكى فن التوجه الشعبى، فأعاد تعريف قوة كان يدفعها السخط الاقتصادى وغوغائيو اليسار ـ من أمثال ويليام چيننجز براين كتعبير عن الاحتجاج الثقافى ـ سخط الأمريكيين العاديين، على أباطرة النخبة الليبرالية ولغوهم.

وإذا كانت قصتنا هى قصة نجاح المحافظين، فهى أيضًا قصة فشل الليبراليين. فالليبرالية الأمريكية ككيان فكرى وكتحالف سياسى، ظل لذاتها السابقة. ففى الستينيات، كان الليبراليون يتصرفون كما لو كانوا يجرون عملية تجديد للبلاد. إلا أن

«المجتمع العظيم» وعلى الرغم من كل فوائده المؤكدة، تحول إلى تمرين ضخم على الدهاء محدثًا حركة ارتجاعية شعبية فى أعقابه. وتمزقت الليبرالية الأمريكية حاليًا إلى كتلتين: مجموعة من جماعات ضغط القضية الواحدة (نقابات المعلمين ونشطاء حقوق الإجهاض، إلخ) وحركة احتجاج يسارية بدائية غاضبة من تقدم أمة اليمين. فلم تعد فلسفة حكم واثقة من نفسها وقادرة على التسامى على المصالح الخاصة لجماعات الضغط هذه، أو على انغماس اليسار الغاضب فى ذاته. لذا فإن كلينتون أكثر ساسة جيله ذكاء، آل به الأمر لأن أدار دفة الحكم كجمهورى من طراز أيزنهاور؛ وللسبب نفسه فإن زوجته سيأول بها الأمر للشىء نفسه لو سنحت لها الفرصة.

ولهذا الانتصار انعكاسه على دائرتى هاستيرت وبيلوزى. فالصلة بين التحول المتواصل لسكنى الضواحى فى إيلينوى والتحول إلى المبادئ الجمهورية لا يتم تلقائيًا كما يحب الحزب الجمهورى أن يدعى. فإذا كانت دائرة هاستيرت تمتص المزيد من المهاجرين والمهنيين الشبان من شيكاغو مثلاً، فهى تزيد من عدد الديمقراطيين أيضًا. فعمدة بلدة ديكسون مسقط رأس رونالد ريجان ديمقراطى ولكنه صوت لصالح ريجان ويصف چورچ بوش الابن بأنه «إنسان عظيم». والصورة القومية التى تبين الاستطلاعات فيها إيثار سكان الضواحى لسياسات الجمهوريين بهوامش تصل إلى ١٥ نقطة تتكرر فى دائرة هاستيرت. وقد تنفر بعض الأمهات المُرَفهات من آراء هاستيرت «الجنوبية» حول الإجهاض، وقد يهب بعض رجال الأعمال ضد عجز بوش الاقتصادى، لكن معظم الأصوات تحتشد وراء رسالة الجمهوريين عن الضرائب المنخفضة وتشديد العقوبات على المجرمين وتقوية الأسرة واستعمال العصا الغليظة فى الأمن القومى.

ومرة أخرى لا ينبغى أن نفتتن بالشعارات الحزبية. فدائرة هاستيرت ستعانق الديمقراطى الذى يشذ عن المألوف ويوائم رسالته حتى تتوافق مع أولويات من يتملكون بيوتهم ويذهبون إلى الكنيسة كل أحد، ولكن من الصعب إعادتها إلى الطراز القديم من «الليبرالية الأوروبية» الذى يمثله فرع سان فرانسيسكو من الحزب الديمقراطى. فأرض البيوت الفارهة والمراكز التجارية والكنائس الضخمة لن تتحول

إلى تأييد تمدد دور الحكومة، أو بعث رسائل التعاطف إلى القنصلية الفرنسية أو التهاون إزاء غزو المتسولين أو إلى عمل أى من الأشياء التى تعتبر عادية فى سان فرانسيسكو.

وتظل مسألة ما إذا كانت أمريكا ستصبح أكثر جمهورية قضية معلقة؛ ولكن من الواضح أنها أصبحت بلداً أكثر محافظة وأقل أوروبية. وسيتحتم علينا التعايش مع أمة اليمين سواء شئنا أم أبينا. والسؤال هو: كيف؟

إجابة من الداخل

لنتأمل أولاً مشكلة غير المحافظين داخل أمريكا. يرى كثير من الليبراليين أن مسألة التعايش مع أمة اليمين أمر لا يحتمل. ونقولها صريحة: الليبراليون يكرهون چورچ بوش الابن. فهم يرون أن الرئيس الذى جاء بالصدفة لم يكن له الحق فى تحويل انتخابات متقاربة كهذه إلى منصة إطلاق لمثل هذه السياسات المحافظة الراديكالية ولا فى شن حرب على العراق ولا فى بناء هذا العجز الاقتصادى الضخم ولا فى حظر إجهاض الولادة الجزئية ولا فى أن يكون تكساسيّا إلى هذا الحد اللعين. ففى مقال له فى مجلة «نيو ريبپبليك» فى سنة ٢٠٠٣م، قالها چوناثان تشايت صراحةً إنه لا يكره بوش لسياساته، بل يكره كل ما يمت له بصلة حتى مشيته («انحناء كتفيه وامتداد كوعيه بعيداً عن جنبيه») وطريقته فى الكلام («ثقة متوعدة فى النفس مقنعة بلكنة شعبية زائفة»). وقال: «أكره حتى الأشياء التى يبدو أن الجميع معجبون بها».[٦] ويبدو أن كراهية بوش أصبحت تجارة سريعة النمو، وأباطرتها مايكل مور وآل فرانكن وپول كروجمان وكل كاتب يسارى فى البلاد يتوق إلى اقتحام السوق وتحقيق الانتشار. بل إن هناك دليلاً لمبغضى بوش دونه كاتب كندى حصل على الجنسية الأمريكية لمجرد التصويت ضده.[٧]

ووجه الشبه صارخ بين كراهية بوش اليوم وكراهية كلينتون بالأمس. أتتذكرون كيف اتهم اليمينيون كلينتون بالإتجار فى المخدرات والقتل؟ وهناك موقع bushbodycount.com على شبكة الإنترنت، أعد قائمة بأسماء من يقال إن أسرة بوش عادتهم، بدءًا من چون إف. كنيدى. أتتذكرون كم الأموال التى صبها ريتشارد

ميلون سكايف فى «مشروع أركانسو» لكى يتخلص من كلينتون؟ فى سنة ٢٠٠٤م، خصص چورچ سوروس ٢٧ مليون دولار للتخلص من بوش، وهى قضية يصفها بأنها «بؤرة تركيز حياتى». [٨] وهناك موقع اسمه counterpunch.com يشبِّه بوش بهيتلر بفارق واحد هو أن «بوش ليس خطيبًا مفوهًا مثل هيتلر».

ومن الناحية الانتخابية، تكاد هذه الإستراتيچية فى التعامل مع أمة اليمين تهزم نفسها بالضرورة. فتدل معظم الاستطلاعات على حب الأمريكيين بوش أكثر من حبهم سياساته. وكلما زاد إضفاء صفة الشيطان على الرجل، قويت قاعدته وإبعاد الناخبين المتأرجحين. وتحت غضب الليبرالية الأمريكية يكمن الخوف، خوف من أن يتحول الحزب الديمقراطى إلى حزب الأقلية، خوف من أن يغير بوش أمريكا تغييرًا جذريًا، وخوف من أن يصدق رأينا فى هذا الكتاب. فى الثلاثينيات، استعمل روزڤلت أغلبيته القوية فى مجلس النواب (والأقلية الهزيلة بالمحكمة الدستورية العليا) ليضع أساس دولة الرفاهية. وبعده بثلاثين سنة، استغل ليندون چونسون صدمة اغتيال كنيدى وانتصاره الساحق على جولدواتر فى بناء «المجتمع العظيم». وفى الثمانينيات، استغل رونالد ريجان ذكريات «وعكة كارتر» ليحول توازن الإنفاق العام من الرفاهية إلى دعم قوة أمريكا. واستغل بوش ـ فى رأى العديد من الليبراليين ـ أحداث ١١ سپتمبر ليدفع ببلاده فى اتجاه أكثر محافظة. لذا فإن كراهية بوش أكثر حدة من كراهية كلينتون ـ بل أكثر استماتة.

هل مقدر على الليبراليين الأمريكيين أن يقضوا حياتهم فى غضب أو يأس؟، أم يمكن أن يجدوا طريقة للتعايش مع أمة اليمين؟ من المفارقات أن أمرين من الأمور التى ساعدت حركة المحافظين كثيرًا فى الماضى ـ دستور أمريكا وحجمها الكبير المتنوع ـ يقدمان لليبراليين اليوم أسبابًا للأمل. فالليبرالية الأمريكية محمية بفصل السلطات. وربما كانت المحكمة الدستورية العليا هى التى وضعت بوش فى البيت الأبيض مثلاً، ولكنها منذ ذلك الحين أصدرت عددًا من الأحكام الليبرالية المتميزة التى تسمح بالعمل الإيجابى وتكسر الحظر على ممارسات الشواذ، بل توافق على سماع دعوى رفعها سجناء معتقلون بخليج جوانتانامو.

وبصورة أعم، يسمح النظام الاتحادى لليبرالية بالازدهار على مستوى محلى. فيمكن للعمد الليبراليين أن يحكموا مدنًا ليبرالية مثل سان فرانسيسكو، كما يمكن للحكام الليبراليين أن يحكموا ولايات ليبرالية مثل ڤيرمونت. كما يقدم النظام الاتحادى ملاذًا للجمهوريين المعتدلين. فچورچ پاتاكى وأرنولد شوارزينجر مثلاً من الصعب أن يبزغ نجمهما فى الحزب البرلمانى المتشدد الحالى، إلا أن لهما سطوة سياسية كبيرة باعتبارهما حاكمى نيويورك وكاليفورنيا. وفى معظم الدول الأخرى، ليس هناك إلا سلم سياسى واحد يمكن صعوده ـ من خلال البرلمان فى وستمينستر مثلاً ـ وبالتالى فكبار الحزب هم كل ما يهم. أما فى أمريكا، فيمكن للمارق أيديولوچيًا أن يبنى مستقبلاً عمليًا ناجحًا على مستوى الولاية.

هذه المرونة تدعمها الجغرافيا، وبقوة. ففى بلد كبير كهذا، يصعب على أى فريق ـ حتى إن كان على درجة من التنسيق تضارع ما لحركة المحافظين الحديثة ـ أن يسيطر على أمانى غيره. وهى مسألة تتعلق فى جزء منها بالسياسة العملية؛ فعلى الرغم من نمو الحياة الحزبية، فلا يزال هناك وسط معتدل فى أمريكا يستحيل على أى رئيس جمهورى أن يتجاهله. فربما صدق بوش على مشروع قانون يحظر إجهاض الولادة الجزئية، ولكن حتى وهو يقدم على ذلك غمغم بحديث عن ميل البلاد إلى عدم حظر كافة أشكال الإجهاض.

إذا عدنا إلى ماضى أمريكا، نجد المؤرخ روبرت ويب يعلق قائلاً إن «ما أبقى على وحدة الأمريكيين قدرتهم على العيش منفصلين. فالمجتمع يعتمد على التجزئة». فمن يختلف مع جيرانه يمكن ببساطة أن ينتقل إلى مكان آخر ويعيش كما يحلو له. فالصاحبيون(Quakers)(*) رحلوا عن بوسطن المتزمتة إلى فيلادلفيا. ورحل المورمون(**) عبر البلاد ليستقر بهم المقام فى يوتاه. وفى فترة لاحقة، هاجر الشواذ إلى

(*) الصاحبون ـ Quakers: طائفة پروتستانتية ظهرت فى إنجلترا فى مطلع القرن السابع عشر، وهم يهتزون عند ذكر الله، من فرط تقواهم. هاجروا إلى الولايات المتحدة، فاضطهدهم البيوريتانز، مثلما اضطهدتهم الكنيسة الأنجليكية فى بريطانيا. وهم مسالمون، يدعون للعدالة الاجتماعية، وكانوا من أشد معارضى الرق.

(**) المورمون ـ Mormons: طائفة مسيحية أسسها چون سميث عام ١٨٣٠م، بصفته نبيًا، وله كتاب مقدس هو كتاب المورمون، يعتقدون أنهم الطائفة المسيحية الوحيدة الصحيحة، ويتركزون فى ولاية يوتا عند بحيرات الملح العظمى. عددهم فى أمريكا حوالى ٦ مليون، وهم معروفون بالجدية والانضباط فى =

مدن مثل سان فرانسيسكو، بل داخل تجمعات سكنية مسورة خاصة بهم. والتقنية تدعم هذه الاختيارية. فحتى عهد قريب لم يكن أمام الأمريكيين سوى ثلاث قنوات تليفزيونية يختارون بينها ـ وثارت ثائرة المحافظين الاجتماعيين لأنها جميعًا كانت تحت سيطرة الليبراليين. أما اليوم، فمع انتشار القنوات مدفوعة الأجر وثورة الإنترنت، لم يعد هناك سبب لأن يشعر أحد بالحرمان من حق من حقوقه. فالليبراليون والمحافظون أمامهم فرصة للعيش معًا بالعيش منفصلين.

تميزت أمريكا منذ وقت طويل بتراث من الأخلاقية الفيدرالية جعل «التعايش» أمرًا سهلاً نسبيًا. فبذل الآباء المؤسسون كل جهد لإبقاء الحكومة الفيدرالية بعيدًا عن الحياة المدنية. يقول چيمس ماديسون فى «الأوراق الفيدرالية ـ Federalist Paper»، (٥٦) إن الفئات المختلفة تتطور بسرعات متفاوتة. ويقول الكساندر هاملتون (فى الورقة، ١٧): إن أية محاولة لفرض أخلاقيات مركزية سيكون «أمرًا عسيرًا بقدر ما هو باطل». وهذا التراث من الأخلاقية الفيدرالية له صلة مباشرة بموضوعنا. فمن بين الأسباب التى تدفعنا لنقد چون أشكروفت بهذا الشكل فى هذا الكتاب، أنه يخالف التزام أمريكا الفطرى بالتنوع ـ وهو أمر لا يخدم القضايا التى يعمل من أجلها. وليس معنى هذا إنكار أن الحكومة الفيدرالية ينبغى أن تتدخل من حين لآخر لحماية حقوق الفرد والحقوق الدستورية. وهناك قلة تشكك حاليًا فى أحقية الحكومة الفيدرالية فى استعمال قوتها لإبطال التمييز العنصرى فى الجنوب. إلا أن الحكومة الفيدرالية ينبغى أن تتفادى التدخل فى القضايا التى يمكن للناس أن يختلفوا حولها، ومنها زواج الشواذ. وعليها أن تعترف بأن الفئات المختلفة لها آراء متباينة فى السياسة والأخلاق (انظر كيف صوتت المدن الكبرى لصالح جور بنسبة ٧١ ٪ فى مقابل ٢٦ ٪، فى حين صوتت البلدات الصغيرة والمناطق الريفية لصالح بوش بنسبة ٥٩ ٪ فى مقابل ٣٨٪). [٩] وعليها أن تسعى قدر الإمكان للسماح لهذه الفئات باتخاذ قراراتها بنفسها بدلاً من إرغامها على الخضوع لواشنطن. فالاتفاق على عدم الاتفاق، يتيح للبلاد

= العمل والأخلاق، ومنهم رجال أعمال أثرياء ـ مثل ماريوت وعائلته، أصحاب سلسلة فنادق ماريوت، وأساتذة بالجامعة. وهم لا يشربون الخمر ولا السجائر ولا حتى الشاى القهوة، ويحافظون على العائلة بشكل متين، ويؤمنون ويمارسون تعدد الزوجات إلا حين تمنعهم قوانين الدولة.

أفضل فرصة لتفادى حرب ثقافية لا نهاية لها يستعين، فيها كل طرف بالحكومة الفيدرالية لفرض آرائه على غيره.

المشهد من الخارج

إن مشكلة التعايش مع أمة اليمين فى الداخل صعبة بما يكفى، ولكنها لا تعد شيئًا إذا قورنت بالمشكلة التى تمثلها خارج حدود أمريكا. فليس هناك فى الخارج من يرضى عن سيطرة أمة اليمين على أمريكا. فإذا كان بوش تمكن من تفتيت الرأى العام فى الداخل، فإنه وحَدَه فى الخارج ـ ضده فى الغالب. فلا يؤيد السياسة الخارجية الأمريكية فى سوى ١٠ ٪ فى فرنسا، و١٥ ٪ فى ألمانيا.[١٠] ووقف تونى بلير إلى جانب بوش فى حرب العراق رغم أنف المعارضة الداخلية الشرسة. وفى نوفمبر ٢٠٠٣م، نظم عشرات الآلاف من الإنجليز مسيرات احتجاج على مجرد زيارة لجورج بوش لبلادهم. وحين سئلوا عن السمات التى يرون فى ضيفهم وحليفه أجاب ٦٠ ٪ من الإنجليز بعبارة الحكومة «خطر على السلام العالمى» وأجاب ٣٧ ٪ بكلمة «أحمقان» و٣٣ ٪ «متناقضان»، ولم يصفهما بالذكاء سوى ١٠ ٪، ووصفه ٧ ٪ بأنه زعيم عالمى كفء ـ هذا فى البلد الذى يثنى عليه بوش باعتباره «أقرب صديق فى العالم».[١١]

وليس هناك أيضًا خارج أمريكا من يدرك أن حركة المحافظين وجدت بها لتبقى. فكان الرأى السائد فى الخارج عن فترة رئاسة بوش الأولى على العكس تمامًا، أى أن أمة اليمين ستختفى ما أن تعود أمريكا إلى عقلها وتلفظ بوش. وفى ٣ نوفمبر ٢٠٠٤م، كان معظم غير الأمريكيين فى الحالة الذهنية التى كانت فيها پولين كايل فى سنة ١٩٧٢م حين قالت الناقدة السينمائية بمجلة «نيويوركر»: «لا أدرى كيف أمكن لريتشارد نيكسون أن يفوز. أنا لا أعرف أحدًا صوَّت له».[١٢] واستيقظ معظم الليبراليين فى أمريكا على حقيقة فحواها أن هناك بلدًا محافظًا كبيرًا مختبئًا فى البرارى والقفار بين نهر هدسون وپاسادينا. هذا فى حين أن معظم الأجانب لا يعرفون إلا أمريكا كايل وپيلوزى. فسان فرانسيسكو معروفة من الأفلام أو حتى من تجربة شخصية (تمثل السياحة أكبر صناعة منذ أوائل الستينيات)، وبنية سان فرانسيسكو المدمجة وسياستها اليسارية وجوها المتسامح، يشعر الأوروپيين بأنهم فى بلادهم. أما أمريكا

هاستيرت فلا يزورونها. لذا فإنهم ظلوا طوال أربع سنوات يفترضون أن بوش مجرد نشاز. بدا الأمر كأن صديقًا عاقلاً اتخذ لنفسه عشيقة لا تليق به. وربما كانت العبارة التى وضعت أسفل صورة السياسة الخارجية لكل من فرنسا وألمانيا فى الفترة من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٤م هى «فى انتظار نهاية الكابوس».

وإلى أن يدرك بقية العالم جوهر أمريكا المحافظ، فإن التوترات ستزداد دون شك. وإذا كان التطور التقنى يسمح لأمريكا الليبرالية والمحافظة بأن يعيشا منفصلين، أيضًا يجعل أمريكا قوة ذات حضور طاغ فى بقية العالم. فأينما سافرتَ تجد العاصمة الأمريكية تتصدر الأخبار. الناس فى بقية العالم يشعرون أن علاقتهم بأمريكا تزداد تشابكًا، وتدل استطلاعات الرأى والمظاهرات وطوابير الدبلوماسيين على أن بقية العالم لا يعجبه هذا الوضع. فكلما وقفت أمريكا فى وجه العالم، ازدادت «نشاطًا إشعاعيًا» حسب تعبير توم فريدمان معلق الشئون الخارجية بصحيفة نيويورك تايمز.

هل الأمر بهذا السوء؟ هناك خطر يتمثل فى الاستسلام لما سماه أحد زملائنا «وهم براءة ما قبل هبوط الإنسان إلى الأرض». [١٣] لم يكن هناك عصر ذهبى قبل بوش يتعامل فيه برلمان البشر مع مشكلات العالم بحكمة محسوبة. فالتسعينيات مليئة بالأمثلة على فشل الغرب فى التدخل حين كان عليه أن يتدخل (لوقف الإبادة الجماعية فى رواندا مثلاً) وعلى التدخلات التى فشلت (سريبرينيتشا والصومال) وعلى حالات النجاح التى لم تحظ إلا بمباركة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (كوسوفا). وفشل الغرب فى التعامل بشكل منفرد مع صدام حسين وكوريا الشمالية والشرق الأوسط.

قبل مجىء بوش، كان التحالف الغربى أكثر وحدة مما هو حاليًا. ولا تزال هناك كثرة من الموضوعات تعمل عليها أوروبا والولايات المتحدة معًا بارتياح، منها اللجان الفرعية الاستخباراتية وهيئات الملكية الفكرية. ولا يزال هناك كم كبير من القضايا للعالم الغربى مصالح مشتركة فيها. ولكن لا بد من قيام تحالف دولى لا مجرد حلفاء يعملون معًا ما كان كل منهم سيسعد بعمله منفردًا. قد نتفق أو نختلف على أن بوش كان محقًا فى أن يتوقع من فرنسا أو ألمانيا أن تسايره فيما يتعلق بالعراق كما فعل بلير، ولكن على الأقل كان للرئيس حق فى أن ينتظر من حلفائه أن يحجموا عن الاتفاق ضده على أمر يهم أمريكا إلى هذا الحد سواء، عن صواب أو عن خطأ. فكما قال بلير

لمجلس العموم فيما يوصف بأنه أفضل خطاب فى المأساة برمتها: «الشركاء ليسوا خدمًا ولكنهم ليسوا غرماء أيضًا». [١٤] وبالمنطق نفسه ومن منظور أوروبى، قد لا تكنّ إدارة بوش إعجابًا بالمحكمة الجنائية الدولية التى يعتز بها الأوروبيون كثيرًا، ولكن بما أنها آثرت الخروج منها؛ فإنها لا تكون حليفًا إذا التفت حولهم وسعت لإرغام الدول الأخرى على عدم الانضمام لها كما سعت أمريكا. يقول أحد الدبلوماسيين الأوروبيين: «كل ما نريده من الولايات المتحدة الإهمال الحميد. فهل هذا كثير علينا؟» [١٥]

ما العمل؟ هذه نقطة بدء تمثل سلوكًا أكثر نضجًا من الطرفين، لا سيما حين يتعلق الأمر بالكلام. فمن الصعب تصور ما كان دونالد رامسفيلد يظن أنه سيجنى من الاستخفاف بحلفائه بوصفهم بعبارة «أوروبا العجوز» كما فعل فى ٢٢ يناير ٢٠٠٣م، فضلاً عن تشبيه ألمانيا بليبيا وكوبا كما فعل بعد ذلك بأيام قلائل. لا بأس فى أن يلقى نواب تكساس بمجلس النواب الإهانات على الفرنسيين، ولكن فى بقاع كلبنان، أثبت الفرنسيون خبرتهم وشجاعتهم كقوات حفظ سلام. وعلى الشاطئ الآخر من الأطلنطى، تنشر بعض صحف أوروبا مثل جارديان ولوموند رسومًا هزلية تساوى تصوير الزنوج تتخلل أنوفهم عظام، ووصف الأمريكيين بالبدانة والجلافة والتعطش للدم. وهناك أيضًا جهل بدائى طوعى يقترب من الحقد. فيتعرض بوش بانتظام فى أوروبا للهجوم لعدم توقيع معاهدة كيوتو ورفض المحكمة الجنائية الدولية دون ذكر أن بيل كلينتون أيضًا لم يكن راضيًا عن أى منهما. ونادرًا ما يعترف الأوروبيون ببوش كرجل زاد موازنة المعونة الأمريكية بنسبة ٥٠ ٪، أو أول رئيس أمريكى يقر رسميًا بقيام دولة فلسطينية. واللوم على معارضة السياسات الأمريكية فى أمريكا المحافظة يلقى دومًا على الخائن چاك شيراك دون إدراك أن غالبية حلفاء أمريكا عارضوا حرب العراق. وحتى فى «أوروبا الجديدة»، التى يفترض فيها الولاء فى زعم رامسفيلد كانت نسبة ٧٠ إلى ٨٠ ٪ من المجريين والپولنديين والتشيك تعارض حرب أمريكا على العراق. [١٦]

وإذا نظرنا إلى ما هو أبعد من تشويه السمعة، سنجد أن حالة التحالف الغربى أفضل كثيرًا مما تبدو لأول وهلة وأسوأ كثيرًا فى آن معًا. هى أفضل لأن المأساة الحزينة فى

العراق علمت أمة اليمين درسًا صعبًا عن أهمية القوة الرخوة. ففلسفة «دعهم يكرهوننا طالما أنهم يخافوننا» لا معنى لها بالنسبة لبلد يسعى لشن حرب عالمية على الإرهاب. ذلك أن مكافحة الإرهاب مسألة كسب «قلوب وعقول». وعلى الرغم من كل قوتها، فأمريكا لا تضم سوى ٥ ٪ من هذه القلوب والعقول، ولا يفيدها أن تدفع بقية العالم للنظر إليها بارتياب. والهياج الأمريكى أمر أثبت العراق صعوبة تهدئته، والهياج الأمريكى جعل حشد التأييد الدولى أمرًا أصعب أيضًا. وبعد أن تأدبت (لن تعترف بذلك) إدارة بوش، اتبعت منذ ذلك الحين موقفًا أكثر جماعية فى إدارة السلام. كما أنها تعيد التأكيد على الجماعية فى التعامل مع إيران وكوريا الشمالية.

ومع ذلك، فإذا كانت البراجماتية قد تجمع بين الشركاء الغربيين على المدى القصير فهناك أمران آخران سيفرقان بينهم على المدى البعيد. أولهما الفجوة فى القوة الخشنة بين أمريكا وحلفائها، وهى مرشحة للتنامى مع حلول الأزمة القادمة. فكما تزداد أمة اليمين قوة داخل أمريكا، تزداد أمريكا قوة فى العالم على اتساعه. وسبق أن أشرنا إلى الهوة الهائلة فى الإنفاق الدفاعى بين أمريكا ودول العالم؛ لكن هذا الإنفاق تدعمه القوة الاقتصادية والسكان. فأمريكا التى تمثل أكثر من ٣٠ ٪ من إجمالى الناتج العالمى، و٤٠ ٪ من حجم الإنفاق العالمى على البحث العلمى والتطوير، تبدو كأنها الدولة الكبرى المتقدمة الوحيدة القادر اقتصادها على النمو السريع والوحيد الذى يتميز بسكان من الشباب.[١٧] ففى ٢٠٥٠م، سيظل متوسط الأعمار فى أمريكا حوالى ست وثلاثين سنة فى حين سيرتفع هذا المتوسط فى أوروبا من ثمانى وثلاثين إلى ست وخمسين، وأية مشكلة عالمية ستظل مشكلة أمريكية.

وثانى أسباب التشاؤم فيما يتعلق بحالة التحالف الغربى، هو الحرب على الإرهاب. فعلى الرغم من كل ما يدور حول الحرب على الإرهاب من كلام بأنها كفاح مشترك، فهناك حاليًا حالة تباين أساسية. فكان تحالف الأطلنطى إبان الحرب الباردة يوحده تهديد مشترك معترف به بالدمار المشترك. ولم يعد الأمر كذلك. كان «المتساهل أو المتسامح مع العدو، مطيب الخواطر» فى رأى وينستون تشرشل هو من يتمنى أن يبدأ التمساح بالتهام غيره. لكن الأوروبيين فى نظر القاعدة ليسوا كالأمريكيين؛ ويظن الكثيرون أنهم سيأمنون إذا أحجم قادتهم عن مواجهة الإسلام الراديكالى كما تواجهه أمريكا. فحين ضربت القاعدة ضربتها فى مدريد فى مارس ٢٠٠٤م، أسهمت فى

تغيير نتيجة الانتخابات، لأن بعض الناخبين الإسبان قرروا أن حكومتهم أضعفت بلادهم بتأييدها غزو بوش العراق. وكثير من الأوروبيين لا يرون داعيًا لاتباع أمريكا فى حرب جديدة يعتبرون أنها جرتها على نفسها.

هناك اثنان من أكبر الدمامل فى التحالف الأطلنطى يمثلان «مبدأين» يختبئ الأوروبيون وراءهما حين يتطلب الأمر تبرير إحجامهم عن اتباع خطى أمريكا فى حربها على الإرهاب. أولهما حرب العراق. أمدت أخطاء واشنطن ـ تهويلها فيما يتصل بأسلحة الدمار الشامل وما إلى ذلك ـ الأوروبيين بمبرر آخر للتنحى جانبًا. والمبرر الآخر الأقوى كثيرًا هو مأزق الفلسطينيين. فكثير من الأوروبيين يرون أنه طالما ظلت أمريكا على موقفها المنحاز من أعمق تظلمات العرب، فمن الصعب أن تصل لأى شىء فى المنطقة. فإسرائيل الجسورة التى تبجلها أمة اليمين ليست فى نظر بقية العالم سوى وحش جائع للأرض يلقى بمستعمراته على أرض شعوب غيره ويقصف مدنًا مزدحمة بالسكان وبالصواريخ وينكر حقوق الإنسان الأساسية. وفى ٢٠٠٣م، مثلت إسرائيل أكبر تهديد للسلام العالمى فى استطلاع أجرى فى أوروبا. ويُعتبر الوضع فى الشرق الأوسط مصدر لتسميم العلاقات داخل التحالف الغربى. ففى حين يشتكى أحد شاطئى الأطلنطى من زمرة من اليهود تدير السياسة الخارجية الأمريكية، يرد الشاطئ الآخر باتهامات بمعاداة السامية. ولا غرو أن تونى بلير السياسى الذى يعد أكثر من جاهد فى سبيل الإبقاء على التحالف، كرس من وقته الكثير لدفع بوش نحو النزاع الإسرائيلى الفلسطينى. وأعلن فى خطابه الملتهب أمام مجلس العموم عن الغرماء والشركاء قائلاً: «لا أظن أن هناك قضية أخرى أقدر على إعادة توحيد المجتمع العالمى من تحقيق تقدم فى قضايا إسرائيل وفلسطين». (١٨)

التحدى الأوروبى

ماذا يمكن للأوروبيين أن يعملوا لتسهيل التعايش مع أمة اليمين؟ هناك أولويات أربع تعرض نفسها ـ ثلاث إيجابية والرابعة سلبية. الأولى سد الفجوة فى القوة الخشنة. لن يتمكن الأوروبيون والأمريكيون من إقامة علاقة ناضجة إلا حين يبدأ الأوروبيون فى تولى مسئولية أكبر عن دفاعهم. كان الإنفاق العسكرى الأوروبى

الغربى إبان الحرب الباردة يمثل حوالى ٦٠ ٪ من الإنفاق الأمريكى؛ ويبلغ حاليًا حوالى ٤٠ ٪.[١٩] وأوروبا حاليًا طفيل على القوة العسكرية الأمريكية. وهو أمر يثير السخط فى أمريكا، ويؤدى لفقدان الإحساس بالمسئولية فى أوروبا.

ومسألة القوة لا ينبغى أن تقتصر على الدبابات والبوارج الحربية. ففى الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٩٠م، لحقت اقتصاديات أوروبا بالاقتصاد الأمريكى: فارتفعت متوسطات الدخل فى أوروبا الغربية من ٥٠ ٪ من المستويات الأمريكية فى سنة ١٩٥٠م إلى أكثر من ٨٠ ٪ (الدول الأغنى حققت مستوى مماثلاً)[٢٠]. إلا أن فشل القارة فى الإصلاح الهيكلى كلفها الكثير. ومنذ ١٩٩٥م، جاء حوالى ٦٠ ٪ من النمو الاقتصاد العالمى من أمريكا. وعمال أمريكا أعلى إنتاجية من عمال أوروبا - وهم يعملون بمتوسط زيادة ٣٠٠ ساعة فى السنة عن نظرائهم الأوروبيين. فكل خمس ساعات يعملها العالم الألمانى يقابلها أكثر من ست يشتغلها العامل الأمريكى.

والأولوية الثانية تتعلق بالطموح. فافتقار أوروبا للقوة الخشنة غذى ضعفًا أعمق فى السياسة الخارجية. وتشوشت أدوار الشركاء بصورة ما. ومنذ ربع قرن مضى، كان اليسار الأوروبى المثالى هو الذى خرج علينا بخطط حالمة لتغيير وجه العالم وثارت ثائرته على السياسة العملية الكيسنجرية. واليمين الأمريكى حاليًا هو الذى يخرج علينا بخطط حالمة عن تحويل الشرق الأوسط إلى الديمقراطية، واليسار الأوروبى هو الذى يتحدث عن ضرورة عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى ذات السيادة.[٢١] وتبلور هذا الموقف الذى ملخصه «الشيطان الذى تعرفه أقل خطرًا من الذى لا تعرفه» فى وعد بذله چاك شيراك فى ١٠ مارس ٢٠٠٣م بالتصويت بحق النقض على أى قرار يخص الحرب على العراق فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة «مهما كانت الظروف».[٢٢]

والأولوية الثالثة هى الحاجة لإعادة هيكلة الأمم المتحدة. فإذا أصر الأوروبيون على التزام أمريكا بالنظام الجماعى، فلا بد أن يضمنوا إعادة هيكلة هذه المؤسسات الجماعية للتعامل مع خطر الإرهاب العالمى. ولا بد أن يساعدوا بصفة خاصة فى إيجاد آلية جماعية يعتمد عليها لاستعمال القوة الوقائية. وأحسن كوفى أنان إذ حذر فى أكتوبر ٢٠٠٣م قائلاً: «إذا حطت الدول من شرعية الأمم المتحدة وشعرت بأنها تستطيع ويتحتم

عليها أن تلجأ لاستعمال القوة من جانب واحد وبصورة وقائية؛ فإن العالم سيصبح أخطر». [٢٣] لكن هناك أمرين يصعب تجاهلهما، الأول أن سياستى الاحتواء والردع التقليديتين لا تجديان فى التعامل مع إرهابيين لا دولة لهم مثل القاعدة أو مع دول مارقة مثل كوريا الشمالية؛ والآخر أن اللجوء للقوة الوقائية أمر يصعب عمله من خلال منظومة الأمم المتحدة. فاللجوء للقوة غير مسموح به حاليّا إلا فى حالتين ـ الدفاع عن النفس كما ورد فى المادة ٥١، وبتفويض من مجلس الأمن. وهناك بعض الجوانب الجديدة المتجسدة فى المادة ٥١ لا بد من التوافق حولها. كما أن على الأوروبيين أن يلبوا الحاجة لإعادة هيكلة مجلس الأمن، ذلك الأثر الباقى من الحرب العالمية الثانية ـ بمنح مقاعد دائمة ـ مثلاً وبدون حق النقض ـ لدول كاليابان وألمانيا والهند والبرازيل.

والأولوية الرابعة والأخيرة تنطبق على أمريكا بقدر ما تنطبق على أوروبا، وهى الحيلولة دون امتداد الخلافات السياسية فى التحالف الغربى إلى الاقتصاد. فحين يتعلق الجدل السياسى بالحرب والأسلحة النووية، فقد تبدو رسوم استيراد الصلب والخشب والنحاس تافهة بعض الشىء. لكن هناك خطرًا يتمثل فى تنامى الهوة بين أمريكا وبقية دول العالم ويهدد الأسس السياسية لنظام حرية التجارة العالمى. ويتمثل الخطر فى أن تؤدى الخلافات حول السياسة إلى نشأة تكتلات تجارية أو انقلاب القلعة الأوروبية على القلعة الأمريكية ـ وهى مأساة لا على شعوب هاتين القلعتين وحدها بل على من قد يُترك خارج كلتا القلعتين من دول العالم النامى.

أمة الحق والصلاح

وماذا عن أمة اليمين أنفسهم؟ هل يمكنهم أن يجعلوا التعايش معهم أسهل؟ هناك أرضية للحلول الوسط، ولكنها أقل مما يريده بقية العالم.

إن قائمة المناسبات التى اتسمت إدارة بوش فيها بالفظاظة بلا داعٍ، طويلة. والأخطاء بدأت مبكرًا: فهل كان ثم داعٍ لعدم إبداء أى ندم على موت معاهدة كيوتو؟ أما كان من الأفضل إرجاع المسألة برمتها لاستحالة التوصل لاتفاق فى مجلس الشيوخ؟ لكن الضرر الحقيقى وقع فى السنتين الأوليين بعد حادث ١١ سبتمبر. وبأى

مقياس من المقاييس، فوتت إدارة بوش ـ أو بددت فى رأى الكثيرين ـ كمًا هائلاً من حسن النوايا الدولية فى وقت قصير جدًا. ومهما كانت عيوب أوروبا «القديمة» فالصدع الذى أصاب التحالف الغربى لم يكن قدرًا محتومًا. فبعد ١١ سبتمبر، احتشدت أوروبا فطريًا وراء أمريكا. فأعلنت صحيفة لوموند: «كلنا أمريكيون الآن». وفعَّل حلف شمال الأطلنطى المادة الخامسة معلنًا لأول مرة أن الحلف كله تعرض لهجوم فى حين لم تلق عروضه بالمساعدة فى أفغانستان إلا التجاهل.

وحتى حين تعلق الأمر بالتعامل مع صدام، كان هناك اتفاق واضح بين الحلفاء على الحاجة لعمل شىء، بدليل القرار الذى صدر بالإجماع عن مجلس الأمن بمساندة أول قرار لأمريكا فى نوفمبر ٢٠٠٢م. وهناك أسباب عديدة للخلل الذى سارت به الأمور فى الأشهر القليلة التالية، ومنها ما يتصل بالمشاكسات التى لم يكن لها داعٍ من جانب الدول الأوروبية كما سبقت الإشارة. إلا أن هياج أمريكا كان أقوى. فعندما آن أوان الترويج للقرار العراقى الثانى فى فبراير ومارس ٢٠٠٣م، كان يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها فى حالة طغيان لدرجة أنها لم تتمكن حتى من إقناع حلفاء كالمكسيك وتشيلى بمساندة موقفها من إزالة نظام صدام حسين، ومن بين الخمسة عشر الآخرين الأعضاء بمجلس الأمن، لم تتمكن أمريكا إلا من اجتذاب بريطانيا وإسپانيا وبلغاريا إلى جانبها.

هل كان من الحكمة أن تطالب الإدارة «بتغيير النظام» فى العراق حتى قبل اللجوء للأمم المتحدة؟ هل كان من العقل أن يرفض تشينى ورامسفيلد التفتيش بوصفه عملية صورية حتى قبل إتاحة الفرصة لإجرائه؟ هل كانت ثلاثون يومًا أخرى من تفتيش الأمم المتحدة ستكفى للفوز بأغلبية فى مجلس الأمن؟ من التحذيرات الشهيرة التى قالها المرشح بوش فى المناظرة الرئاسية الثانية فى وينستون ـ سالم: «لو كنا شعبًا متغطرسًا لاستاءوا منا». ومع ذلك؛ فإن الفعل المفضل للرئيس بوش كما يشير فريد زكريا سرعان ما أصبح «أتوقع» ـ كما فى قوله إنه «يتوقع» من الفلسطينيين أن يطيحوا بعرفات أو «يتوقع» لتركيا أن توافق على ما تريده منها أمريكا.[٢٤] هذا الموقف فشل فى إقناع المتوقع منهم، بل إنه لم يفلح مع أناس كانوا سيتحمسون لأمريكا فى الأحوال العادية. يقول يورجى كاستانيدا الذى ظل وزيرًا لخارجية المكسيك حتى ٢٠٠٣م:

«معظم المسئولين فى أمريكا اللاتينية ليسوا من النوع المعادى لأمريكا. فنحن تعلمنا فى الولايات المتحدة أو عملنا فيها. ونحن نجل أمريكا ونفهمها، ولكن يضايقنا غاية الضيق أن تعاملنا بهذا الازدراء». (٢٥)

يلاحظ أن أمة اليمين لا تزال تثير ألد العداء فى الخارج عندما تتخلى عن المبادئ الأمريكية الأساسية التى تريد إعلانها. فمثلاً، ليس هناك ما أضر بصورة أمريكا فى الخارج من معاملتها «لأعدائها المقاتلين» فى معتقل جوانتانامو. ففكرة أن المشتبه بهم - حتى من اعتقل منهم فى أفغانستان - يمكن حرمانهم حقوقهم فى توكيل محامين والزج بهم فى نظام محاكمة لا استئناف فيه إلا لبوش (الذى قرر سلفًا أن كل من كانوا فى معتقل جوانتانامو «رجال أشرار للغاية») أثارت غضب الكل حتى بريطانيا المحافظة - على الأقل لأن «الطالبانى الأمريكى» چون واكر ليند (وهو كاليفورنى أبيض) قدم لمحاكمة مدنية سليمة. وهناك إنجاز وحيد يمكن لدونالد رامسفيلد أن يدعيه وهو تصميم نظام قضائى جائر بصورة سافرة، دفعت ديلى ميل الصحيفة البريطانية اليمينية لأن تصرخ مطالبة بالعدالة نيابة عن اثنين من مسلمى بريطانيا من السود ممن كانت ستتجاهلهما فى ظروف غير هذه.

مع ذلك هناك حد لاستعداد أمة اليمين لاسترضاء منتقديهم. فالمحافظون الأمريكيون، كما رأينا فى الفصل الخاص بالمحافظين الجدد، يميلون إلى الفردية والتصرف الأحادى. وهم دائمًا يرتابون فى المتحذلقين الذيى يديرون مؤسسة السياسة الخارجية فى واشنطن وفى أدوات الديپلوماسية الدولية - لا سيما الأمم المتحدة. ويصف أحد العاملين فى داخل الخارجية الأمريكية رامسفيلد بأنه يتبع سياسة عداء متعمدة تجاه حلفاء أمريكا، بل تجاه العديد من أعضاء إدارته نفسها.

ولكن المسألة ليست عنادًا وحسب؛ فرفض الحلول الوسطى يرتبط بشىء أنبل. أبدى آرثر شليزنجر الصغير ذات مرة ملحوظة قائلاً: «السياسة الخارجية هى القناع الذى ترتديه الدولة أمام العالم». (٢٦) وقال إن لأمريكا دومًا وجهين. فهى من ناحية شعب عملى يؤثر الواقع على النظرية، والتجربة والخطأ على المنطق الاستدلالى. ومن ناحية أخرى فإن لديهم نزوع قوى نحو المثالية. وهذه النزعة المثالية ظلت نشطة منذ البدايات الپيوريتانية الأولى للبلاد إلى دعوة چون فوستر دالاس لشن حرب مقدسة

على الشيوعية. والحافة الأخلاقية للسياسة الخارجية لإدارة بوش - التى تقسم العالم إلى «معنا أو ضدنا» والقضاء على الأشرار ومحاولة إدخال الديمقراطية إلى الشرق الأوسط وما إلى ذلك - تلائم نسبه العريق.

بجانب ذلك، فعلى الرغم من كل المشكلات التى تسببها الاستثنائية الأمريكية لبقية العالم، فهى سبب رئيس لنجاح الدولة. فإذا نظرنا إلى القيم التى يستهزئ بها بقية العالم، لوجدناها تساعد فى تعليل سبب كون أمريكا فى الصدارة. فمثلاً حماس أمريكا المتقد للرأسمالية يساعد فى تعليل تقدم الإنتاجية الأمريكية على إنتاجية أوروبا. ومنذ عشرين سنة كان النموذج الأوروبى بتأكيده على التضامن الاجتماعى وارتفاع مستوى التعليم العام يبدو ناجحًا. والنموذج الأمريكى الآن أفضل فى التعامل مع الأسواق الزئبقية للاقتصاد بعد الصناعى. وماذا عن ذلك التدين الاستثنائى؟ كان ماكس ڤيبر قبل قرن من الزمان يرى صلة بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. أما اليوم فيبدو أن انتصار العلمنة فى أوروبا يقترن بتدهور أخلاقيات العمل، تمامًا كما يقترن بقاء الدين فى الولايات المتحدة ببقاء أخلاقيات العمل.[٢٧] ففى الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٩م، زاد متوسط عمر سنة العمل فى أمريكا بمقدار خمسين ساعة أى ما يقرب من ٣٪. وتقلص متوسط عمر سنة العمل فى ألمانيا بنسبة ١٢٪. كما يتقاعد الأوروبيون فى سن أصغر وينفقون أكثر على إعانة العاطلين ويُضربون أكثر. يشير نيال فيرجوسون، وهو إسكتلندى يعمل بالتدريس بجامعة هارڤارد، إلى أن تدهور ساعات العمل فى شمال أوروبا يقترن بتدهور حاد فى التقيد بمبادئ الدين.[٢٨]

وكلما أمضيت وقتًا أطول مع أمة اليمين، صدمت بإحساسهم الفائق باليقين. يروى عن بيلى جراهام(*) الرجل الذى أنقذ جورج بوش الابن فى شبابه من حياة

(*) بيلى جراهام: أهم الدعاة الإڤانجليكيين فى الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين. ولد عام ١٩١٨م ونشأ فى الكنيسة المشيخية، ولكن تحول عنها لكنيسة المعمدانيين الجنوبيين عام ١٩٣٨م. علاقاته حميمة بعدد كبير من رؤساء الولايات المتحدة، بدءًا بأيزنهاور وچونسون ونيكسون وإنتهاء بعائلة بوش، وكلينتون. وقد اعتبره جورج بوش الابن من هداه للمسيح من جديد. له مؤلفات وبرامج تليفزيونية وإذاعية عديدة. وكثيرًا ما أيد التشدد - إلى درجة شن الحرب - فى السياسة الخارجية، ضد الاتحاد السوڤييتى، وقصف ڤيتنام الشمالية وكمبوديا، حتى أن البعض اعتبر نصائحه للإدارة فيها انتهاك لمعاهدات چينيڤ، والبعض الآخر قال إنها تشكل جرائم حرب.
مع تأييده الدائم لإسرائيل، كشف تسجيل له مع الرئيس نيكسون حوارًا مفاده انزعاج الاثنين - الرئيس=

المجون، إنه قال ذات مرة ببساطة: «أنا أعرف من أيت أتيتُ، وأعرف سبب وجودى فى الدنيا، وأعرف إلى أين أمضى». هذه الثقة يتردد صداها لدى كثرة ممن التقينا فى هذا الكتاب ـ من داستن وموراً فى «كولورادو سپرينجز» إلى أهالى دائرة هاستيرت. إنها تسكن فى قلب أمة اليمين؛ فالمحافظون الأمريكيون على يقين من أنهم «على حق». وهذه الثقة فى أنهم على حق، تساعد على تعليل التناقض الظاهرى للولايات المتحدة والذى ذكرنا فى المقدمة: أى ما يجعل أمريكا أكثر الدول شعبية فى العالم، وأكثرها تلقيًا للعنات فى آن؛ لماذا يُهلل لها باعتبارها رمزًا للنجاح والفرص والتقدم، وفى الوقت نفسه رمزًا للتعصب وللظلم وانعدام المساواة. هذا التناقض الظاهرى سيبقى ما بقى أمة اليمين أنفسهم.

***

= والداعى الإيڤانجليكى الأكبر ـ مما يفعله اليهود فى أمريكا، وخاصة بسيطرتهم على وسائل الإعلام؛ حتى أن البعض اعتبر ذلك معاداة للسامية، فأسرع جراهام بالاعتذار عن ذلك.
اعتزل بيلى جراهام التبشير، وترك المهمة لابنه فليكس، والذى صرح مرارًا وتكرارًا، وعلنًا، أن الدين الإسلامى دين كله شر. وقد أرسل العديد من المبشرين لبغداد مع القوات الأمريكية الغازية لتنصير المسلمين. وجدير بالذكر أن جراهام الأب كان يتداول ما يقرب من المليار دولار سنويًا فى أعماله التبشرية.

obeikan.com

ملحق

كيف انتصرت حركة المحافظين؟

ذات مساء ربيعى ريفى بحرم جامعة أوهايو الحكومية، وقبل ١٨٦ يومًا من انتخابات نوفمبر ٢٠٠٤م، تجمع خمسون طالبًا وكلب حول تمثال من الورق المقوى بالحجم الطبيعى لجورج بوش الابن، وعدة فانلات رياضية سوداء كتب عليها «استشارى ليبرالى وجوهر محافظ». وعلى صدور معظمهم أزرار عليها فيل الحزب الجمهورى فى أوضاع عديدة تنم عن الابتهاج بالنصر. ودمية بائسة لحمار الحزب الديمقراطى تتدلى على حبل من غصن شجرة.

فى الثامنة والنصف، يلتف الطلبة حول هاتف يصغون لمكالمة مع ديك تشينى كجزء من أمسية وطنية أطلق عليها اسم «حفل من أجل الرئيس». ويهتفون حين يهتف نائب الرئيس بأن صدام حسين أصبح فى السجن، ويهللون فى فرح حين يثنى على فوكس الإخبارية لدقتها. حتى هؤلاء المحاربون المحافظون يبدو عليهم قدر من الإحراج حين يتلقى تشينى نداء يطلبه بالحفاظ على «تراث رعاة البقر» من طالب سمى تشينى تكريمًا له. ولكن يعود المزاج الفرح حين يقفز الكلب وينهش دمية الحمار.

والمكالمة جزء من مشهد من «أسبوع المحافظين» بجامعة أوهايو، وهو أسبوع يشمل بيع كعك لصالح أبناء المقاتلين وحشد لتأييد «عهد الولاء» ويوم المرح بالمسدسات. يضم جمهوريو الحرم الجامعى ثلاثمائة عضو حصلوا على توقيعات ستمائة طالب للقيام بأعمال تطوعية لصالح حملة بوش. شاب ديمقراطى يدعى هيث، وهو أحد ثلاثة طلاب يتجسسون على الوقائع، يعترف بأن الجمهوريين أفضل تنظيمًا فى الحرم من الديمقراطيين.

وفى فترة لاحقة من تلك السنة، تحققت أسوأ مخاوف هيث حين فاز چورچ بوش الابن بولاية أوهايو وفاز بالفترة الثانية. وكان فوز بوش فى أوهايو ضئيلاً، حصل على ١١٨٥٦٩ صوتًا ـ وبدونها لما فاز بالمجمع الانتخابى. ولكنه فى سائر أرجاء البلاد هزم چون كيرى بهامش كبير، حيث حصل على أصوات أكثر مما حصل عليه أى مرشح رئاسى فى تاريخ أمريكا. وزاد من هامشه فى الولايات الجمهورية «الحمراء» بينما حصل على أجزاء من الهامش الديمقراطى فى الولايات «الزرقاء». وتزامن انتصاره مع ـ وساعد فى تحقيق ـ اكتساح جمهورى للمجلس بفرعيه. وزاد الجمهوريون عدد مقاعدهم فى مجلس الشيوخ إلى ٥٥ مقتربين من الستين صوتًا اللازمة لكسر أية حجة لتعطيل التصويت. كما سلخوا داشل زعيم الأقلية عن مقعده فى ساوث داكوتا. وفى الوقت نفسه زاد الجمهوريون أغلبيتهم فى مجلس النواب، ولو أن هذا تم بفضل تقسيم شائن للمناطق الانتخابية. على أى فالجمهوريون الآن يتمتعون بأقوى فترة لهم فى السلطة فى واشنطن منذ ١٩٢٨م حين تم انتخاب هربرت هوڤر.[١](*)

كانت النتيجة ضربة ماحقة لليبرالية الأمريكية؛ ولكنها ضربة ترددت أصداؤها فى الخارج أيضًا. فكان رد فعل صحيفة جارديان «يا إلهى!» وتساءلت صحيفة ديلى ميرور «كيف يتسنى لـ ٥٩,٠٥٤,٠٨٧ مليون شخص أن يكونوا بهذا الغباء؟» والصحيفتان البريطانيتان هما، أقرب حلفاء أمريكا. واعترفت صحيفة فرانكفورت ألجماينه: «جن جنون الناس فى كل من ألمانيا وفرنسا». ووجد كل من چاك شيراك وجيرهارد شرويدر صعوبة فى إخفاء خيبة أملهما. وهما فى ذلك كانا يعكسان إرادة شعوبهما. فهناك استطلاع أجرى على ٣٤ ألف شخص فى خمس وثلاثين دولة فى صيف ٢٠٠٤م، ولم يفز بوش إلا فى ثلاث منها هى پولندا والفيلپين ونيچيريا.[٢] وبين العديد من أهم حلفاء أمريكا لم يفز بوش إلا بأقل نصيب من الأصوات ـ ٥٪ فى فرنسا و٦٪ فى هولندا و٧٪ فى إسپانيا و١٠٪ فى ألمانيا و١٦٪ فى بريطانيا.

لم يؤد فوز بوش إلا لتعميق الشكوك فى أمريكا فى الخارج. وبين ليلة وضحاها شرع النقاد الأوروپيون أنفسهم الذين أمضوا السنوات الأربع السابقة فى وصف بوش

(*) كما ذكرنا سابقًا، عكست انتخاب ٢٠٠٦م ذلك الوضع، فأصبح للديمقراطية الأغلبية فى المجلسين.

بالمتطفل الذى سرق انتخابات ٢٠٠٠م فى مواجهة بديل أشد إزعاجًا، وهو أن بوش يمثل الشعب الأمريكى فعلاً.

نهش الحمار

هناك بضعة أشياء تسبب إزعاجًا أكثر من مؤلفى كتب يعلنون أن الإرادة الشعبية أثبتت صحة فرضيتهم. ومع ذلك فانتخابات ٢٠٠٤م كانت إثباتًا صريحًا للرأيين الذين قام عليهما هذا الكتاب، وهو أن حركة المحافظين هى القوة المهيمنة على السياسة الأمريكية، وأن حركة المحافظين تساعد على فهم سبب اختلاف أمريكا.

قمنا بتحديث جوهر هذا الكتاب ليعكس نتائج ٢٠٠٤م وما بعدها بقليل. إلا أننا لا زلنا نعتقد أن الأمر يستحق أن نستعمل ما بعد هذه النتائج لنقيس فرضية هذا الكتاب فى ضوء انتخابات ٢٠٠٤م. قد يدهش بعض المحافظين للسبب الذى يدعو لتبرير الانتصار، ولكن لا شىء فى السياسة حاسم تمامًا. قد يكون انتصار أمة اليمين هو الحقيقة الساطعة فى ٢٠٠٤م، لكنك إذا نظرت تحت السطح لوجدت صورة مختلفة قليلاً. فهل يؤكد فوز بوش تبدل السياسة الأمريكية فعلاً؟ هل يمثل فوزه انتصارًا لحركة المحافظين؟ لكننا سنبدأ بالتساؤل الرئيس: كيف فاز؟

الفوز من اليمين

من المناسب أن نبدأ أى تحليل لانتخابات ٢٠٠٤م بملحوظة متواضعة، هى أن معظم المعلقين السياسيين (بما فى ذلك مؤلفا هذا الكتاب) لم يكونوا يتصورون ما وقع فى ذلك اليوم. ففى أول استطلاع، ظهر تفوق چون كيرى بفارق معقول فى كل من أوهايو وفلوريدا. وعلى متن طائرة الرئاسة فى طريق عودتها إلى واشنطن من تكساس أفصح مساعدو بوش بأن الأمور تسير على غير ما يرام. وبدأت مواقع الإنترنت المحافظة لعبة إلقاء اللوم (الإجماع العام: المحافظون الجدد الذين شنوا حرب العراق لا بد أن يلقوا جزاءهم). وفى وقت العصر، كان المعلقون الليبراليون من أمثال مورين داود وسيدنى بلومنثال يتبجحان بالنتيجة على شاشة بى. بى. سى. (حيث كانوا أكثر

تحررًا مما لو كانوا على الشبكات الأمريكية). كان الشاهد الحاسم أن هناك انتصارًا قياسيًا للديمقراطيين. وحين فرغ چون كيرى من إعطاء سلسلة من التصريحات عبر الفضائيات لحشد أنصاره، أمسك بوب شدوم مستشار حملته بعروة سترته، كان يريد أن يكون أول من يناديه بلقب «السيد الرئيس».

لم يكن الأمر بالطبع: أن الجمهوريون تفوقوا عدديًا على الديمقراطيين وأن الحزب تعرض لأقسى هزيمة له منذ عقود من السنين. بل إن لمحة النصر التى بدت فى ذلك اليوم تساعد على تفسير سبب تعجيل العديد من المعلقين من ذوى الميول الديمقراطية بالحط من شأن فوز بوش. فقالوا إن هامش انتصاره لم يكن ساحقًا، ولم يثبت أى شىء عن تغير اتجاهات السياسة الأمريكية، وأن المسألة انتهت بتفاهات كالشخصيات والتكتيكات، أما التوجهات السياسية الأساسية فلم تتغير.

وتباينت قائمة الأعذار التى ألقاها اليسار عن فوز بوش من جنون الشك (الجمهوريون تلاعبوا بآلات الاقتراع فى أوهايو) إلى الغرابة (فى عرض لكتابنا ذهب أحد علماء الاجتماع إلى أن كثيرًا من الناس صوتوا لصالح بوش لأنهم لم يكونوا يدركون أنه محافظ).[٣] كما تم إلقاء التبعة على عدد من كباش الفداء ومنهم هوارد دين الذى أمعن فى جر الحزب إلى اليسار فى الانتخابات الأولية، ومارجريت مارشال رئيس قضاة ماساشوستس التى أدى تصويتها المتأرجح إلى إباحة زواج الشواذ فى تلك الولاية. إلا أن التطويريين الليبراليين يلخصون الأمر فى ثلاث نقاط: أن المعركة مالت لصالح بوش (فالرؤساء الذين هم فى سدة الحكم فعلاً ورؤساء أوقات الحروب يعاد انتخابهم عادةً)؛ وأن چون كيرى لم يكن بحجم المهمة؛ وأن الجمهوريين لم يحققوا انتصارًا باهرًا. يقول چون چوديس وروى تايكسيرا مؤلفا كتاب «الأغلبية الديمقراطية الناشئة»: «فاز چورچ بوش بفترة ثانية بهامش أصغر من بيل كلينتون أو رونالد ريجان أو ريتشارد نيكسون أو دوايت أيزنهاور ـ وأمام خصم ديمقراطى شديد التصدع».[٤]

وهناك قدر من الحقيقة فى بعض من هذه النقاط أكثر مما يريد المحافظون الاعتراف به بدون شك. وهنا يكمن خطر خداع اليمين لنفسه (وهى من النقاط الأساسية فى كتابنا هذا). فبدأ بوش سنة ٢٠٠٥م بأدنى نسب التأييد لأى رئيس أعيد انتخابه، وباقتناع لدى غالبية الأمريكيين بأن غزو العراق كان غلطة. لكن المدافعين الليبراليين لا يزالون

يفهمون المسألة بالعكس. فربما لم يحقق بوش انتصاراً كاسحًا ولكنه فاز بصورة لافتة؛ فحصل على ٥١ ٪ من الأصوات ـ وهو إنجاز لم يحققه ديمقراطى منذ ١٩٦٤م ـ كما أنه فاز فى مناخ سياسى معاد تمامًا. أما الديمقراطيون فكانت مشكلتهم أعمق من مشكلة النائب القادم من ماساشوستس.

مالت الكفة بالكاد لصالح بوش فى معركة ٢٠٠٤م، على الرغم من وجوده فى سدة الحكم. فالرؤساء فى سدة الحكم يمكنهم فى بعض الأحيان الإفلات من حرب خاسرة أو من اقتصاد مراوغ؛ وكان على بوش أن يفلت من كليهما. فكان غالبية الناخبين فى سنة ٢٠٠٤م يؤمنون بأن البلاد تسير فى اتجاه خطأ. وأشار الديمقراطيون مراراً إلى أن بوش أول رئيس منذ هربرت هوفر يخوض معركة إعادة انتخاب وفى جعبته دمار كامل لفرص العمل ـ وجاء الألم الاقتصادى الناجم من الغرب الأوسط الذى يعد من دعائم الانتخابات. وفكانت المصانع المهدمة والبيوت الخربة والناقمون على الإدارة لسماحها بتسرب فرص العمل إلى الخارج، هى السمات الواضحة فى أوهايو ٢٠٠٤م. وفى السنوات الثلاث الأولى من رئاسة بوش، فقدت الولاية سدس فرص العمل الصناعية بها. وضمت أوهايو ثلاثة من المناطق العشرين التى واجهت أسوأ نتائج «اقتصاد بوش»، وهى ليما التى فقدت ٢٢,٩ ٪ من فرص العمل فيها، وهاملتون ـ ميدل تاون (١٨,٧ ٪) وتوليدو (١٥,٦ ٪). وفى سائر أرجاء البلاد، كانت غالبية الناخبين فى سخط على سياسة بوش الاقتصادية، وفيما يتعلق بالحل الذى آثره الرئيس ـ خفض الضرائب ـ قال اثنان من كل ثلاثة ناخبين أن الخفض إما جاء بنتائج سلبية على الاقتصاد (١٧ ٪) أو لم يؤد إلى شىء (٥١ ٪). (٥)

وكانت أوهايو أيضًا تمثل تحديًا لا يقل عن العراق بالنسبة لبوش. فربما أدى سقوط بغداد إلى ارتفاع شعبية بوش فى الاستطلاعات قليلاً وإلى حين، إلا أن ما أعقب هذا السقوط من أخبار سيئة أدى إلى تآكل ما تحقق له من شعبية. كانت أوهايو كغيرها من مناطق البر الأمريكى يجتاحها شعور وطنى فى أعقاب ١١ سبتمبر حتى أن الناس زينوا الجسور بالأعلام الأمريكية. إلا أنها تلقت ضربة أيضًا؛ فمدينة دايتون هى مقر أكبر قاعدة جوية فى البلاد، وتضم أوهايو أيضًا إحدى أعلى نسب جنود الاحتياط المنتشرين فى الخارج. وفى نوفمبر، كانت الحرب على العراق تسير على غير ما يرام منذ شهور،

فتم خوض الانتخابات على خلفية عمليات الاختطاف وضرب الأعناق والخسائر العسكرية. وبدلاً من تشبيه بوش بريجان، صار يستحسن تشبيهه بليندون چونسون، وهو رئيس تكساسى آخر غاصت قدماه فى مغامرة خارجية، وخرج چونسون من سباق ١٩٦٨م قبل الانتخابات التمهيدية.

إذن لم لم يتمكن الديمقراطيون من إعادة بوش إلى تكساس بعيداً عن واشنطون؟ فإذا فكرنا فى كافة الأعذار التقليدية التى يطلع بها الديمقراطيون لفقدانهم الانتخابات ـ من أن الحزب كان ممزقًا بسبب التناحر الداخلى، وأن جمهور الناخبين كان يركز على الصغائر، أو أن الاقتصاد كان فى حالة جيدة على غير العادة، أو أن الجمهوريين كان لديهم أموال أوفر، أو ذهاب الناخبين لصناديق الاقتراع كان منخفضًا لدرجة مريعة ـ نجد أن أيّا من هذه الأعذار لم يكن ينطبق على انتخابات ٢٠٠٤م. فالديمقراطيون توحدوا فى توقيت مبكر وبصورة حماسية وراء چون كيرى. ودارت الانتخابات حول قضايا كبرى كالإرهاب والعراق وخفض الضرائب. ومن هذا المنظور كانت الانتخابات جاهزة لچون كيرى كى يفوز بها، فلماذا لم يفعل؟

وفى هذه النقطة يركز التطوريون الديمقراطيون على العيوب التى اعتورت تكتيكات كيرى وشخصيته، لا على أى شىء جوهرى ذى صلة برسالة حزبهم. فما من أحد يمكنه الزعم بأن كيرى كان المرشح الأمثل. فلم يكن كيرى يضاهى بوش فى قدراته فى حملته. وفى مناطق مثل أوهايو، فاجأ بوش معظم الناس بصورة الشخص «العادى» أكثر من كيرى بزوجته الأجنبية وجذوره الشمالية الشرقية وقصوره المتناثرة فى أرجاء البلاد وولعه بالرياضات الغريبة كالتزلج على الأمواج (آخر ثلاثة ديمقراطيين فازوا بأوهايو كانوا جميعًا من أمة الجنوب). وكان كيرى أيضًا دائم الهزيمة تكتيكيّا. فهو كرجل يبنى تاريخه على سجله فى حرب ڤييتنام وعلى قاربه السريع، أخفق فى الرد على اتهامات تتعلق بهذا السجل. وبينما تشبث بوش برسالته بصورة صارمة أخذ كيرى المتأرجح يؤخر رجلاً ويقدم أخرى، مما جعل الناس فى حيرة من الفكر الذى يمثله. وأسوأ ما روجه الحزب الجمهورى عن كيرى، هو قول كيرى: «لقد صوت لتخصيص ٨٧ بليون دولار للعراق، قبل أن أصوت ضد ذلك».

ومع ذلك فإذا لم يكن كيرى مثل بيل كلينتون فإن بوش لم يكن رونالد ريجان؛ فهؤلاء

«الطبيعيون» لا يأتون إلا مرة فى كل جيل. كان كيرى مرشحًا جيدًا بمقاييس عديدة. فقد فاز باثنتين من المناظرات الثلاث التى حظيت بعدد قياسى من المشاهدين والمستمعين - بمنظره الأقرب لسيما الرؤساء من خصمه الأدق حجمًا. وكان مزيج سجله العسكرى وخبرته فى الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ يعنى أنه نجح فى أهم اختبار يتعرض له ديمقراطى بعد ١١ سبتمبر: إلا وهو اختبار القائد العسكرى. والصحف الواحدة والأربعون التى ساندت بوش فى سنة ٢٠٠٠م أيدت كيرى فى ٢٠٠٤م.

أما من حيث التنظيم، فكان الديمقراطيون أبطأ حركةً. ففى وقت مكالمة تشينى فى أوهايو، كان لدى بوش مكتب حملة فى كولمبس مع ثلاثة عشر من مساعديه المتفرغين، و٣٥٠٠ مدير بولاية أوهايو و٢٤ ألف متطوع مسجل؛ وكانت الحملة تقيم تحالفات مع مختلف جماعات المصالح المحلية وأهمها المزارعون والمسيحيون الإيڤاجليكيون؛ وكانت هناك أيضًا فرقة من راصدى أوهايو بمقر قيادته القومى فى أرلنجتون بولاية ڤيرچينيا. هذا فى حين لم يكن لدى كيرى ولو مكتب صغير فى الولاية.

على كل، فما أن حل الثانى من نوفمبر حتى أصبح من الصعب القول بأن الديمقراطيين لم يبذلوا غاية جهدهم. ففى أوهايو، تمكن كيرى من التقدم سريعًا بفضل اللجوء لتنظيمات ديمقراطية قديمة كنقابات العمال وهيئات الحقوق المدنية، وباللجوء إلى قوة جديدة تمامًا على ساحة السياسة الأمريكية وهى تنظيمات «الـ ٥٢٧». هذه الهيئات الدفاعية (المسماة برقم أحد بنود قانون الضرائب) كانت فى الأساس طريقة للاحتيال على قوانين تمويل الحملات الانتخابية: حيث سُمح لهم بتسجيل الناخبين وتعبئتهم طالما أنهم لم يطلبوا منهم التصويت لأحد المرشحين. فاستغل اليسار المعادى لبوش، والذى احتشد فى البداية حول هوارد دين، ثم حول طاقاته إلى كيرى هذه الثغرة أحسن استغلال. (كان للمحافظين تنظيمات من هذا النوع أيضًا، ومنهم التنظيمات المعادية لكيرى، إلا أن الليبراليين تفوقوا عليهم بنسبة ٣ إلى ١). فدفع المتبرعون الكبار من أمثال چورچ سوروس، وستيڤ بينج ملايين الدولارات لتنظيمات «الـ ٥٢٧» وأشعلوا حملة القاعدة الجماهيرية للديمقراطيين. فمع أن كيرى لم يكن له مكتب فى أوهايو فى الربيع، فقد كان لتنظيم «الأمريكيون يتحدون» عشرين مكتبًا يعمل بها ٤٥٠ موظفًا. وكان هناك تنظيمان ٥٢٧ آخران يغطيان الولاية بإعلانات قوية. وظل المتطوعون

يتوافدون من أعماق الولايات الزرقاء مثل نيويورك وكاليفورنيا على أوهايو (وغيرها من الولايات المتأرجحة) طوال الربيع والخريف.

وفى يوم الانتخابات، كانت تنظيمات «الـ ٥٢٧» قد سجلت حوالى ثلاثمائة ألف ناخب جديد فى أوهايو. وادعت إحدى هذه التنظيمات أنها قرعت ٣,٧ مليون باب وأجرت ١,١ مليون حوار على أعتاب البيوت فى الولاية (ما زاد من انتشار حملة كيرى ـ إدواردز إلى ستة أمثال).[٦] وفى يوم الانتخابات، أرسلت تنظيمات «الـ٥٢٧» مئات من الدعاة المتجولين مدفوعى الأجر، وحوالى عشرين ألف متطوع لتذكير الناس بالخروج للإدلاء بأصواتهم. والأهم على المستوى القومى، أن تنظيمات «الـ٥٢٧» كانت ساعدت الديمقراطيين على ضرب ميزة بوش الرسمية فى جمع التبرعات. فجمع الرئيس ٤٠ مليون دولار أكثر مما جمع كيرى، لكن تنظيمات الـ٥٢٧ ذات الميول الديمقراطية أنفقت ١٨٠ مليون دولار أكثر مما أنفق خصومها الجمهوريون، وأنفقت نقابات العمال ١٧٠ مليون دولار أكثر مما أنفقت جماعات رجال الأعمال. وهكذا فإن الديمقراطيين رشقوا بوش بكل ما كان فى جعبتهم.

هذه الحملة الديمقراطية الشعواء نجحت بصورة من الصور. فكان التصويت الشعبى لصالح كيرى أكثر مما حصل عليه آل جور بنسبة ١٢ ٪. المشكلة أن الجمهوريين كانوا فى وضع أفضل؛ فقفز التصويت الشعبى لصالح بوش بمقدار الخمس. واعترف هوارد دين قائلاً: «نحن أدرنا أفضل حملة جماهيرية رأيتها فى حياتى، وأدار الجمهوريون حملة أفضل».

فاز بوش بحشد أمة اليمين ـ وهم نوعية من الناس الذين ينتظرون المكالمة الهاتفية فى أوهايو. واتخذت حملة بوش الموقف المضاد من الديمقراطيين. فبدلاً من الالتفاف على الحملة الجماهيرية واللجوء إلى الدعاة المتجولين مدفوعى الأجر (دفعت النقابات أجور خمسة آلاف شخص للعمل مع كيرى وحده) اعتمدت آلة الجمهوريين على المتطوعين المحليين، أى من وضعوا ثقتهم فى الرجل وفى رسالته، ومن كانت لهم جذور فى المجتمع المحلى. وفى نوڤمبر مثلاً، لم يكن لدى بوش سوى مائتى موظف مدفوع الأجر فى أوهايو، ولكن كان لديه ثمانون ألف متطوع، وهو رقم يتجاوز ١,٤ مليون شخص على المستوى القومى، وكان لذلك تأثير حاسم. فتبين أن الجيران

مدافعون أفضل من الوافدين من خارج الولاية (كانت حقيقة أن بعض الوافدين مع كيرى فى الغرب الأوسط من الممثلين من أمثال مات ديلون وشان بن لم تؤد إلا إلى تعزيز الشعور بأن الديمقراطيين قادمون من عالم آخر). وكانت هناك مزايا أخرى أيضًا. فهؤلاء المتطوعون المحافظون كانوا يعملون فى ظل الرادار الديمقراطى: ولم يكن العاملون مع كيرى يعلمون عددهم. وانتشر جيش المتطوعين الجمهورى فى أنحاء البلاد، لا سيما «الهوامش» أى ضواحى الضواحى، فيما وراء متناول أية آلة حزبية عادية. فكانت مقاطعات أوهايو العشر ذات أعلى نسب تصويت كلها من نصيب بوش - ولم يسجل أى منها نسبة أقل من ٧٥٪.[٧]

كما كانت رسالة بوش تركز على أمة اليمين إلى حد غير عادى. فمعظم مرشحى الرئاسة يزيدون أصواتهم بتعزيز قواعدهم أولاً ثم الانتقال إلى الوسط. واعتنق كارل روف كبير مساعدى بوش الإستراتيچيين مبدأ عكسيًا: فشحن القاعدة المحافظة كان أهم من الوصول إلى الناخبين المتأرجحين. وربما كان هذا أمرًا محتومًا نظرًا لشخصية الرئيس؛ وحين بدأ السباق الفعلى فى أوائل ٢٠٠٤م، كان بوش يحظى بتأييد ٩١٪ من الجمهوريين وما لا يزيد عن ١٧٪ من الديمقراطيين، وهى أكبر فجوة فى تاريخ استطلاعات جالوپ. ولكن كان يبدو أن بوش يستسيغ فكرة أن انتخابات ٢٠٠٤م كانت الاختيار الأيديولوچى الأكثر تحديدًا من عشرات السنين.

تحاشى بوش إستراتيچية رونالد ريجان بالإبقاء على غموض الأمور («الصباح فى أمريكا») وإستراتيچية كلينتون بتفتيت السياسات إلى لقيمات (كحماسه للزى المدرسى ورقائق ٧). وتغاضى عن النصيحة بأن يغلف سياساته بالسكر ليستسيغها المعتدلون. بل على العكس، ففى كافة القضايا العاطفية - من الحظر الدستورى لزواج الشواذ إلى حظر الأسلحة الهجومية، ومن الالتزام الطويل المدى بالعراق إلى تقييد التمويل الاتحادى لأبحاث الخلايا الجذعية - تبنى سياسات يرفضها معظم الناخبين. فكان من الحمق أن يصوت الناخب لصالح بوش على افتراض أنه جمهورى وسطى أو ليبرالى متخف. فركزت إستراتيچية روف على أمرين، أولهما حشد مختلف فرق جيش المحافظين - المتحمسون للأسلحة ونشطاء حقوق الملكية والمسيحيون الإيڤانجليكيون؛ والآخر الرهان على أن القضايا نفسها التى كانت تعجب المحافظين ستغوى الناخبين

المتأرجحين أيضًا لتحقيق الفوز لبوش. ونجحت هذه الإستراتيچية لأن المحافظين فى أمريكا أكثر كثيرًا من الليبراليين. وبين استطلاعات سى. إن. إن. النهائية أن ٨٤٪ من المحافظين يؤيدون الرئيس بقوة، أى أقل بمقدار نقطة واحدة من نسبة الليبراليين المؤيدين لكيرى. لكن المحافظين بلغت نسبتهم ٣٤٪ من مجموع الناخبين، فى حين أن ٢١٪ كانوا يعتبرون أنفسهم ليبراليين. كان معنى هذا أن بوش كان يمكن أن يخسر «المعتدلين» الباقين بنسبة ٥٤ إلى ٤٥٪، ومع ذلك يفوز.

الإرهاب والقيم والتفاؤل

هذه الإستراتيچية التى تتلخص فى شحن القاعدة واجتذاب الناخبين المتأرجحين يمكن رؤيتها فى شعارات حملة بوش الثلاثة الكبرى ـ الحرب على الإرهاب، والقيم، والتفاؤل. وكان أهمها الحرب على الإرهاب. ففى حين انقسم الديمقراطيون حول الأمن (موقف كيرى المائع من العراق يصبح مفهومًا حين نعرف أنه يرأس حزبًا يتكون من نشطاء معادين للحرب وعمالاً مولعين بالحرب) توحد الجمهوريون حول بوش. ففى مؤتمر الجمهوريين الذى أقيم فى نيويورك بعد ثلاث سنوات تقريبًا من حادث ١١ سپتمبر، اصطف المتحدثون من كافة قطاعات الحزب، ومنهم الحكام الجمهوريون الليبراليون من أمثال أرنولد شوارزينجر وچورچ پاتاكى ليذكروا الأمريكيين بأن أمن البلاد ازداد فى عهد بوش.

كما اجتذبت الحرب على الإرهاب بعض الديمقراطيين. ومن الأهمية بمكان معرفة أن أقسى هجوم على كيرى فى المؤتمر جاء من ديمقراطى من أمة الجنوب هو زل ميلر. (قال بعد استعراض عادة كيرى بالتصويت ضد الإنفاق العسكرى: «هذا رجل يريد أن يكون رئيس أركان القوات المسلحة لولاياتنا المتحدة. بم تتسلح القوات الأمريكية؟ كرات البصاق؟»). والغريب أيضًا أن «أمهات الأمن» حللن محل «الأمهات المُرَفهات» بالنسبة لناخبات ٢٠٠٤م المتأرجحات. فمنذ ١٩٧٠م كان معظم النجاح السياسى الذى تحقق للديمقراطيين يعزى للمرأة. ولكن فى ٢٠٠٤م استغل الجمهوريين

قضية الأمن للحد من مزية الديمقراطيين بين الناخبات من ١٦ نقطة فى سنة ١٩٩٦م إلى ما لا يزيد عن ثلاث.

الشيء نفسه حدث مع القيم. فمن كل أرقام الاستطلاعات صباح يوم ما بعد الانتخابات، لم يكن هناك أغرب من أن أعلى رقم للناخبين فى استطلاعات نهائية أن (٢٢ ٪) منهم اختاروا «القيم الأخلاقية» كأهم قضاياهم. ولم يتمكن المحافظون الاجتماعيون من إخفاء سرورهم. فكتب القس بوب چونز الثالث رئيس جامعة بوب چونز خطابًا بليغًا لبوش يفسر فيه انتصاره قال فيه: «الرب أنقذ، مؤقتًا، أمريكا ـ ولو أنها لا تستحق ـ من أچندة الوثنية. لقد مُنحتَ تفويضًا... ضع جدول أعمالك على الموقد الأمامى ودعه يغلى. أنت لا تدين لليبراليين بشيء. إنهم يستهزئون بك لأنهم يستهزئون بمسيحك».

كانت هذه مبالغة. فكان «الأخلاقيون» فى انتخابات ٢٠٠٤م أقل عددًا من غوغاء الأمن القومى، إذا أضفت المؤيدين لحرب العراق (١٥ ٪) والحرب على الإرهاب (١٩٪). ومع ذلك فمن المهم أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء «الأخلاقيين» (أربعة من كل خمسة) صوتوا لصالح بوش. هذا الرقم يشمل كثرة من المسيحيين الإيڤانجليكيين ممن تم إغوائهم للإدلاء بأصواتهم بمبادرات تسعى لحظر زواج الشواذ، إلا أن الإيڤانجليكيين البيض كانوا يمثلون ما لا يزيد عن ٢٣ ٪ من الناخبين. ويبدو أن المزيد من الناس صوتوا لصالح بوش لأسباب أكثر غموضًا ـ لأنهم كانوا يظنون أنه يمثل كل القيم الأمريكية، كالإيمان بالأسرة والوطن. وكان من أكثر عباراته شعبية حين سخر من زعم كيرى لقوله أن هولى وود تمثل قلب أمريكا وروحها.

ومنحت القيم لبوش قضية أخرى شحنت قاعدته الجماهيرية على الفور واجتذبت ناخبين متأرجحين. ومهما كانت الحقيقة وراء ادعاء روف بأن انتخابات ٢٠٠٠م لم تكن بهامش ضيق لهذا الحد إلا لأن أربعة ملايين من الإيڤانجليكيين قعدوا فى بيوتهم، فقد أقنع بوش المحافظين الاجتماعيين فى ٢٠٠٤م بأنه واحد منهم؛ ففى أوهايو وبپنسلڤانيا تخلت طائفة الأميش(*) عن حيادها المعهود لتصوت لصالح بوش. إلا أن

(*) طائفة پروتستانتية تتمسك ببعض تقاليد العصور فى معيشتها، من لباس إلى منازل، ولا يستخدمون السيارات.

قضايا كزواج الشواذ والإجهاض أغوت حتى الديمقراطيين. ففى أوهايو مثلاً، فاز بوش بنسبة ١٦ ٪ من أصوات الزنوج (مقارنةً بنسبة ١١ ٪ فى غيرها). وكان من أسباب ذلك حملة شنها الجمهوريون «لتوعية» القسس الزنوج بتأييد الديمقراطيين لزواج الشواذ، وهو موضوع يقف منه العديد من الزنوج المتدينين موقفًا حازمًا (بعد الانتخابات بفترة قصيرة، قادت ابنة مارتن لوثر كنج حشدًا يدين تلك الممارسة). وساعدت قضية الإجهاض بوش مع الناخبين الكاثوليك أيضًا. فمن الأساقفة من أدان كيرى لمحاولة الادعاء بأنه مؤمن تقى بينما يؤيد حقوق الإجهاض، بل ودار حديث عن حرمانه المشاركة فى العشاء الربانى. وفاز بوش بأصوات الكاثوليك بخمس نقاط لأنه أحرز تفوقًا قدره ١٧ نقطة بين من يترددون على الكنيسة كل أسبوع.

وهكذا لم يكن موضوع القيم بالبساطة التى يريدنا أناس كالقس چونز أن نتصور. فواصل معظم الأمريكيين تأييدهم فكرة الإجهاض المشروع ومعارضة التعديل الاتحادى الذى يحظر زواج الشواذ؛ وكان بوش نفسه حريصًا على الدعوة للتسامح فى القضيتين ومع ذلك فإن الفكرة القائلة إن بوش كان يمثل سدًا أمام ارتفاع مد الإباحة جذب جموع الناخبين للالتفاف حول الجمهوريين.

وكانت ثالثة القوى التفاؤل. فبعد الانتخابات، حاول الديمقراطيون التعديليون الترويج لفكرة أن بوش دفع للتصويت لصالحه عن طريق التخويف. ولا شك أن الجمهوريين استفادوا من مخاوف الناس لا سيما فيما يتصل بالأمن القومى؛ وكاد تشينى أن يقول إن التصويت لصالح كيرى سيزيد من فرص حدوث هجوم إرهابى جديد، وبث الجمهوريون إعلانًا يبيع الخوف، يبين قطيعًا من الذئاب تجول بحثًا عن فريسة («چون كيرى والليبراليون صوتوا للحد من عمليات أمريكا الاستخباراتية . . . الضعف يجذب من يتربصون بأمريكا»). لكن ذلك كان لا بد من موازنته بشيئين. الأول أن الديمقراطيين لعبوا لعبة الخوف بشكل لا يقل ضراوة؛ فكانوا يحذرون الناخبين من أن التصويت لصالح بوش سيترك أمريكا وحدها فى يد رجل مخبول. والآخر أن بوش نفسه كان يصور نفسه كمتفائل ومرشح المستقبل لا الماضى.

لعل التفاؤل فيما يتعلق بكل من العراق والاقتصاد كان حيلة كلامية ضرورية؛ إذ لم يكن لديه الكثير مما يقدمه. ولكنه مثل قدوته، رونالد ريجان، كان يربط هذه الرؤية المتفائلة للعالم بالراديكالية الحقيقية. ففى الداخل كان يركز على فكرة «مجتمع الملكية»

- وهو موضوع كرس له فى مؤتمر الجمهوريين وقتًا لا يقل عما كرس للأمن القومى. وكان يريد أن يصلح كلاً من الأمن الاجتماعى والنظام الضريبى، وأن يحرر التجارة من القيود المزعجة ويعيد وعد أمريكا التقليدى بالحراك لأعلى من خلال إصلاح التعليم. وفى الخارج تمكن، من اتخاذ صورة المتفائل فيما يتعلق بالإرهاب، حيث وعد بتجفيف مستنقع الإرهاب عن طريق تحقيق الديمقراطية فى الشرق الأوسط. أما كيرى، فقد بدا كشخص خائف من المستقبل. ، لا يكل من التركيز على كل شىء كان سيئًا فى أمريكا - من تقلص الدخول إلى ارتفاع تكاليف الرعاية الصحية - دون اقتراح حلول واضحة. أما بالنسبة للإصلاح، فكان يسعده أن يصور نفسه كمدافع عن الأمر الواقع - حتى نظام التأمين الاجتماعى البالغ من العمر سبعين سنة.

ساعدت هذه الراديكالية بوش على شحن قاعدته وعلى اجتذاب الناخبين المتأرجحين. وكان لدى الجمهوريين من ذوى العقليات التحررية كل أسباب الارتياب فى حركة بوش المحافظة المصحوبة بتمدد دور الحكومة. ولكن مقارنةً بكيرى، ظهر بوش كرجل يريد أن يفعل شيئًا لبرامج الالتزام الكبرى. وفى الوقت نفسه فإن نغمته المتفائلة بدت منسجمة مع المناطق الجديدة من أمريكا. وربما أدى موقف الرئيس فى هذا الصدد إلى قلق مجلس العلاقات الخارجية ونمط الاقتصاديين الذين يرفضهم أرنولد شوارزينجر (وهو متفائل آخر) باعتبارهم «جبناء»، إلا أنه لمس وترًا فى الضواحى والمراكز التجارية التى تسكنها أمة اليمين وتتسوق فيها. وفاز بوش بتسع وسبعين من المقاطعات المائة الأسرع نموًا فى أمريكا وبهوامش كبيرة. وربما كان فوز بوش فى فوينكس الكبرى، وهيوستون الكبرى، وأطلنطا الكبرى، أمرًا متوقعًا. ولكنه فاز أيضًا فى البقاع الأسرع نموًا من الولايات الزرقاء، كالمنطقة الداخلية من كاليفورنيا التى تحقق معظم ما تشهده الولاية من نمو حاليًا.

ومرة أخرى ساعدت رسالته المتفائلة على الفوز بجمهور ديمقراطى آخر هو المهاجرون. ففاز بوش بأربعين ٪ من أصوات اللاتين وفاز فى نيومكسيكو، وبذلك تحقق له اكتساح فى الغرب غير الساحلى. فقال أحد الحكام الديمقراطيين المحليين: «عندما سعينا معًا لدفع اللاتين للخروج إلى صناديق الاقتراع للإدلاء بأصواتهم لم نكن ندرى أن كثيرًا منهم سيصوتون للرجل الخطأ».

إعادة التمحور؟

إلى أى مدى يوحى إعادة انتخاب جورج بوش بوجود نية لإعادة هيكلة السياسة الأمريكية؟ تمادينا فى كتابنا هذا وقلنا إن هناك تغييراً هائلاً فى الطريق يشبه ما بدأه مارك هانا فى سنة ١٨٩٥م. وحذرنا أليستير كوك من خطر التنبؤ بنتائج انتخابات رئاسية قبل إجرائها بستة أشهر. ونتيجة انتخابات ٢٠٠٤م تعزز فكرة إعادة التمحور، ولو أنها عرضة للقلق من زيادة امتداد المحافظين كما أسلفنا فى الفصل العاشر.

يشير المعتذرون الديمقراطيون ـ ومعهم حق ـ إلى أن بوش ٢٠٠٤م أخفق فى هندسة إعادة تمحور سياسية بحجم ما فعل ريجان فى الثمانينيات (حين تخلى العمال البيض عن الديمقراطيين). كما يقارنون مكاسب الجمهوريين الهزيلة فى مجلس النواب فى ٢٠٠٤م والتى تحققت نتيجة لتفتيت دوائر تكساس، بثورة نيوت جينجريتش الجمهورية فى سنة ١٩٩٤م. إلا أن بوش وروف ليسا بحاجة لتكرار هذه التحولات العتيقة من أجل تحقيق أغلبية جمهورية. فكل ما يحتاجان هو أن يعززا مكاسبهما الراهنة وهما ينهشان المزيد من دوائر الديمقراطيين. فمثلاً، تخلت چوانا سيكسپاك عن الديمقراطيين بالطريقة نفسها التى تخلى بها چو عنهم منذ عشرين سنة؛ فجاء كيرى بعد بوش بثلاث وعشرين نقطة بين نساء البيض غير الجامعيات. وقد يدين الجمهوريين ببعض ما حققوا من تقدم فى مجلس النواب لإعادة تقسيم الدوائر الانتخابية. ولكن نظراً لقيمة التواجد فى سدة الحكم وحجم أغلبية الجمهوريين فى المجلس (ثلاثون مقعداً) فقد يستغرق الأمر سنوات حتى يستعيد الديمقراطيون الأغلبية. أما مجلس الشيوخ فسيكون على الديمقراطيين أن يدافعوا عن المزيد من المقاعد الهشة فى سنة ٢٠٠٦م.

يتحول الجمهوريون بسرعة إلى حزب أمريكا الكبير الشامل. فهم يحظون بانتشار جغرافى أوسع من الديمقراطيين؛ إذ شهدت انتخابات ٢٠٠٤م إحكام قبضتهم على الجنوب المحافظ، فى حين تباهوا بتولى مناصب الحكام فى بعض من أكثر ولايات البلاد ليبرالية، مثل نيويورك وكاليفورنيا. وهم أفضل فى اجتذاب المتحولين؛ ففى مسح أجرى فى مؤتمرى الحزبين، تبين أن ١٤ ٪ فقط من الوفود إلى الديمقراطيين تحولت إلى جانبهم، مقارنةً بـ ٢٨ ٪ من وفود الجمهوريين تحولوا لجمهوريين. اختاروا

نصب خيمتهم فى تربة أكثر خصوبة. فكانت نسبة الخصوبة فى ولايات بوش أعلى من ولايات كيرى بنسبة ١٢ ٪. وفاز بوش بخمس وعشرين من الولايات الست والعشرين ذات أعلى معدلات الخصوبة؛ وفاز كيرى بالولايات الست عشرة الأدنى خصوبة.

إيجاد أغلبية جمهورية هو دائمًا عملية وليس ضربة مفاجئة، وعملية مخطط لها لمدة طويلة فى هذا الصدد. وتوحى نتائج انتخابات ٢٠٠٠ و٢٠٠٤م بأن الجمهوريين بنوا آلة سياسية قادرة على حصد أصوات الضواحى وهوامش الضواحى (يشبهها المعلق المحافظ مايكل بارون بقوة ثورية أخرى بالضواحى هى سلسلة محلات «وال ـ مارت»). والآن وقد أصبح الجهاز السياسى للبلاد فى أيديهم، فلدى الجمهوريين فرصة لإنزال أضرار بطريقة منهجية بالحزب الديمقراطى، وكلها باسم الإصلاح. وإصلاح ـ الضرر قد يضعف المحامين وهم مصدر تمويل ضخم بالنسبة للديمقراطيين. وإصلاح التعليم قد يضعف نقابات المعلمين. وإصلاح الأمن الاجتماعى قد يوسع مجتمع الملكية ويقطع الصلات التى ظلت تربط الأمريكيين الفقراء بالدولة منذ «الصفقة الجديدة».

ليس معنى هذا أن هناك شيئًا تلقائيًا فى هيمنة الجمهوريين. ففى وقت تدوين هذا الكتاب، بات واضحًا أن قاعدة الجمهوريين لن تكون ثانوية كما كانت فى فترة بوش الأولى. ويشير جوناثن راوتش إلى وجد تواز بين الجمهوريين ومحافظى مارجريت ثاتشر. ففى الثمانينيات، بدا الأمر كأن المحافظين التوريين قدر لهم أن يصبحوا الحزب الحاكم الدائم (وكان من الشائع فى ذلك الوقت على ألسنة الناس أنهم لن يروا حكومة عماليةأخرى فى حياتهم.) واليوم نرى حزب المحافظين مجرد ظل للحزب الذى كان، وحزب العمال هو الذى يبدو كأنه حزب حاكم دائم.

ومع ذلك فالمقارنة بالليدى ثاتشر يؤدى فى الحقيقة لتوكيد قوة ضخمة للجمهوريين. فحين تولت ثاتشر رئاسة الوزراء (٧٩ ـ ١٩٩٠م) ترأست على تنصيف عضوية حزب المحافظين، بينما كان بوش يعمل على تجديد شباب حزبه؛ وما كانت ثاتشر لتستطيع أن تعتمد على حركة محافظين لدعمها (إلا إذا كنتَ تعتبر منتدى فكر أو اثنين حركة) فى حين أن حركة المحافظين الأمريكية تنتقل من قوة إلى قوة منذ عشرات السنين.

من الموضوعات الثابتة فى هذا الكتاب أن نتائج الانتخابات أقل أهمية من إيقاع الأفكار. وعندما يتحول الموضوع من نجاح الحزب الجمهورى فى سنة ٢٠٠٤م إلى نجاح حركة المحافظين الأمريكية، فإنك تصادف المزيد من المتشككين ـ ومعظمهم فى هذه المرة على اليمين. فبعد أسبوعين من الانتخابات، شارك أحدنا فى مناظرة عن «تفويض بوش» فى «مؤسسة مستقبل أمريكا». قد نتوقع أن يكون المزاج السائد تفاؤليّا. و«مؤسسة مستقبل أمريكا» تنظيم صمم ليكون منتدى لجيش واشنطن المتنامى من المحافظين الشبان (بعضهم تم استخدامهم فى حملة بوش الانتخابية الأخيرة). وكان بوش يعمل على تطوير جدول أعمال نشط لرئاسة الفترة الثانية، يتضمن إصلاح التأمين الاجتماعى وتبسيط قانون الضرائب.

إلا أن المزاج العام بين كل من مديرى المنصة والضيوف كان كئيبًا. فاشتكى أحد المخضرمين من تنامى الإنفاق الحكومى فى عهد بوش، وهو موضوع ترددت أصداؤه لدى كل متحدث تقريبًا. وأبدى صحافى شاب، يؤكد المرونة الفائقة للنظام الليبرالى القديم، ملحوظة مفادها أن مكتب واشنطن لـ«شئون إنسانية» وهى إحدى المحلات المحافظة ذات المكانة يقع فى الطابق الذى يعلو مباشرةً مكاتب «سلطة وادى نهر تينيسى»، وهى هيئة من نتاج «الصفقة الجديدة» كان ينبغى أن تكون انحلت منذ عشرات السنين. وكان أكثر الناس يعتبرون أن المحافظين كانوا يخسرون الحروب الثقافية.

كان هناك ما هو أكثر من تشاؤم محافظ صحى يتفاعل هنا. وليست هناك صلة تلقائية بين فوز الحزب الجمهورى وتقدم حركة المحافظين؛ فمن عادة الأحزاب أن تكسب العالم ولكنها تخسر نفسها. وكما أسلفنا فى هذا الكتاب، أمضت إدارة بوش فترتها الأولى فى تمديد حجم الحكومة بدلاً من تقليصه. ولم يكن أنجح شعارات انتخابات ٢٠٠٤م ـ إقرار حظر دستورى على زواج الشواذ ـ إلا جهدًا وقائيًا للدفاع عن إحدى أقدم أعراف المجتمع من محاولة واضحة لتغيير معالمها.

إلا أن المتشائمين يغالون فى قضيتهم. فأمريكا بلد أشد محافظة من أى من حلفائها الأوروبيين ـ بحكومة أصغر حجمًا وحياة دينية أكثر حيوية ـ ويشير العديد من التيارات بعيدة المدى إلى تحولها إلى مزيد من المحافظة. والحركة المحافظة لحكومة بوش

الكبيرة قد تتسم بالطيش، ولكنها كما أشرنا فى الفصل العاشر تطمح إلى لى الحكومة لكى تنصاع لغايات المحافظين. وتظل دولة الرفاهية الأمريكية هزيلة بصورة ملحوظة بمقاييس سائر الدول المتقدمة. صحيح أن هولى وود لا تزال على ليبراليتها المعهودة (كان أشهر برنامج تليفزيونى بعد الانتخابات مسلسل «زوجات يائسات»). لكن الرأى العام يتحول يمينًا فيما يتعلق بإحدى أكثر القضايا الثقافية حساسية، أى حق الإجهاض. والمهم أن أمريكا اختارت أن تعيد انتخاب رجل يلبس نزعته الثقافية المحافظة، رجل يبدأ يومه بالصلاة ويقضى عطلاته فى كراوفورد بولاية تكساس، التى تفتقر إلى أى طابع جمالى (شتان بينها وبين الترف الكلينتونى فى كرمة مارثا) ويزين شجرة عيد الميلاد بالبيت الأبيض بنسور بدلاً من الحمام.

ومرة أخرى، فالمقارنة بين حملتى بوش وكيرى تبين مدى ما أحرزت حركة المحافظين من مكاسب. فالرئيس خاض الانتخابات بنفسه كمرشح محافظ دون مواربة، يمثل تأكيد القوة الأمريكية فى الخارج وتحدى «محور أبناء عرس» الأوروبى، والدفاع عن القيم الأمريكية التليدة فى مواجهة نخبة هولى وود. أما چون كيرى فشن حملته بعكس ذلك، أى بإخفاء جذوره كليبرالى من ماساشوستس. وأمضى أشهرًا يغرى النائب چون ماكين عضو مجلس الشيوخ بالانضمام إليه كنائب للرئيس (وحين فشل فى ذلك طلب من هذا المحافظ الأريزونى أن يكون وزير دفاعه). وأعلن أنه من كبار مشجعى القيم المحافظة ممن يعارضون الإجهاض وإن أيده من باب السياسة العامة. كل ما عليك هو أن تتخيل بوش يعلن أنه من مشجعى «القيم الليبرالية» ويغوى تيد كنيدى بأن يكون رفيقه فى الانتخابات، حتى تدرك أين يكمن مركز الجاذبية فى السياسة الأمريكية ـ ومدى بعدها عن مسايرة السياسة فى كل مكان آخر. وربما صور بوش غريمه الديمقراطى بأنه يقف «على الضفة اليسرى من السياسة الأمريكية»، فى حين أن كيرى ـ متعدد الملايين وأحد قدامى محاربى ڤيتنام، ويتردد على الكنيسة، وأقام الدنيا على توازن الموازنة، مع موافقته على معظم تخفيضات بوش للضرائب، ويرفض التوقيع على معاهدة كيوتو، ويساند أرييل شارون ـ كان سيبدو على أقصى الضفة اليمنى فى أية دولة متقدمة أخرى.

فى فترة بوش الثانية، يستغل الحزب الجمهورى نفوذه أيضًا فى توكيد توجهه المحافظ. فوعد البيت الأبيض بالإبقاء على تلجيم الإنفاق العام، بل يسعى لإضعاف

دعائم «المجتمع العظيم» من خلال خصخصة التأمين الاجتماعى. وإذا أضفنا إلى ذلك أن البيت الأبيض سيتمكن من تعيين عدد وافر من القضاة المحافظين ـ ومنهم قضاة المحكمة الدستورية العليا ـ لأدركنا سبب سعى الديمقراطيين الدءوب لإخراج بوش من البيت الأبيض فى سنة ٢٠٠٤م.

إضافة إلى ذلك، وهذه أهم نقطة، فإن الأفكار التى سيطرت على انتخابات ٢٠٠٤م كانت كلها قادمة من اليمين. رغم أنه كان هناك انفجاراً فى النشاط حدث على اليسار فى ٢٠٠٤م ـ أنصار دين وتنظيمات «الـ٥٢٧» والأموال الضخمة التى صبت فى قضايا الليبراليين. وربما بعد عقدين من السنين، سيشير المؤرخون إلى انتخابات ٢٠٠٤م باعتبارها توازى انتخابات ١٩٦٤م بالنسبة لليسار (حين ولدت حركة المحافظين الحديثة على الرغم من الهزيمة النكراء التى منى بها بارى جولدواتر). لكن چون كيرى يبدو كمسخ هزيل لجولدواتر. كان جولدواتر يمثل مجموعة جديدة من الأفكار؛ وكان كيرى يحارب على أرض حددها اليمين. كان أنصار جولدواتر يخفون راديكاليتهم فى مجموعة من المؤسسات؛ وكانت مراكز الفكر والمؤسسات الديمقراطية مجموعة هزيلة.

وحده أخيراً

هذا الكتاب لا يدعى أن الأمريكيين جميعًا محافظون. فأمريكا أمة يسودها انقسام عميق، وليس أدل على ذلك من ردود الأفعال التى أحدثها هذا الكتاب. ففى السنة الماضية، تعرضنا للنقد فى العديد من المنتديات بأننا تحرريون علمانيون واشتراكيون أوروپيون (شكراً يا راش) وكاثوليك من المحافظين الجدد، وعبدة بوش، ووكلاء عن كيرى ومتعاطفون مع بلير، وتوريون من المدرسة القديمة، وجاحدون.

هناك نقطة ملتوية فى هذه القصة. ففى أمريكا وجدنا أنفسنا مصنفين كمحافظين وكليبراليين بالقدر نفسه. وفى خارج أمريكا، كان استعدادنا لأخذ حركة المحافظين الأمريكية على محمل الجد معناه أننا محافظون (أو «محافظون جدد» عادةً). وبالنسبة للعديد من الأوروپيين، لم تكن حركة المحافظين الأمريكية مجرد حدث عارض، بل شذوذ عن أمريكا الحقيقية. ومن أسباب تهافت الأوروپيين على كتب مايكل مور أنها

تقدم رؤية مطَمئنة لرئاسة بوش، ترى أن أمريكا مكان ليبرالى فى الأساس ـ كأوروبا الليبرالية اللطيفة ـ وأن البيت الأبيض استولى عليه مغفل تكساسى لفترة وجيزة. هذه الفرضية ساعدت على تحويل مور إلى شخصية ذات ثقل كبير فى أوروبا، وأخذ يحقق أفضل المبيعات فى بلد بعد آخر، ومنح جائزة «السعفة الذهبية» فى مهرجان كان عن فيلمه «فهرنهايت ٩/١١». ومرة أخرى، فمن أسباب اعتناق الأوروبيين هذه الرؤية، أن أمريكا الحضرية الساحلية التى يزورون تتسم بالليبرالية فعلاً. فمن كل خمسة زوار أجانب لا يزور أوهايو إلا واحد؛ فى حين أن ثلثى الزوار الأوروبيين لا يغادرون كاليفورنيا أو نيويورك أو نيوإنجلاند أو فلوريدا (أى أورلاندو وميامى).[٨] وأقل من ذلك من يقترب منهم من الضواحى التى فاز بوش بالانتخابات فيها. وليس هناك قناصل أوروبيون فى الولايات الحمراء، ونادرًا ما يذهب الساسة الزائرون إلى ما بعد مانهاتن. ويعترف الآن أحد قادة فرنسا قائلاً: «لم نلحظ وجود ثورة تحدث. إن أمة اليمين الذين تتحدث عنهم من بلد غريب بالنسبة لنا».

أثبت فوز بوش فى نوفمبر سخف قراءة مور ضيقة الأفق لأمريكا. وسارع الأوروبيون لتصوير أمريكا كأنها أمة من الإيڤانجليكيين. ومع ذلك، فهل هناك دولة متقدمة أخرى كان يمكن أن تعيد انتخاب رجل يؤمن بأن المرء لا يمكن أن يكون رئيسًا إلا إذا كان «على صلة بالرب»؟ هل هناك دولة أخرى كانت ستقلق من التوجهات اليسارية لرجل مثل چون كيرى؟ هل كان أى حزب من يمين الوسط سيتمكن من إفراز نوعية التنظيمات الموجودة فى ولاية أوهايو؟ أو «مؤسسة مستقبل أمريكا»؟ إن إعادة انتخاب چورچ بوش أضاف دليلاً جديدًا على أن أمة اليمين هى القوة الصاعدة فى السياسة الأمريكية؛ ولكنها أثبتت، بما لا يدع مجالاً للشك أن أمريكا أمة يمينية على المسرح الدولى.

يمنح «اتحاد المحافظين الأمريكيين» كل نائب بمجلس النواب درجة سنويًا تحدد مستوى تأييده لقضايا المحافظين (http://acuratings.com). وتتراوح الدرجات بين صفر (موقف شديد الليبرالية) ومائة (موقف محافظ للغاية) وتقوم على توجهات تصويت النائب فى مجموعة من ١٠ إلى ٢٠ تصويت. ويبحث «اتحاد المحافظين الأمريكيين» عن القضايا التى تحدث «انقسامًا» أيديولوچيًا تقليديًا، كمعاهدات

الصواريخ ومشروع قانون چين ڤوندا (الذى سعى لمنع الأمريكيين من زيارة الدول التى تدخل فى نزاع عسكرى مع الولايات المتحدة) فى سنة ١٩٧٢م؛ والعقوبات على جنوب إفريقيا وتأييد الكونترا فى سنة ١٩٨٦م، وحظر إجهاض الولادة الجزئية وتأييد خفض الضرائب ومعارضة إنشاء المحكمة الجنائية الدولية فى سنة ٢٠٠٢م. وقمنا بتحليل هذه الدرجات فى السنوات الثلاث الماضية وأدخلنا درجات كل نائب فى قاعدة بيانات، وخرجنا بمتوسط درجات الحزب والولاية. كما أعطينا متوسطات ومعدلات إجمالية للكونجرس كله.

ونرى من جانبنا أن الدرجات تقدم مؤشرًا جيدًا عن الأيديولوچيا، ولكنها لا تخلو من نقص. فأى نائب جمهورى سيسعده أن يدعو لخفض التدخل الحكومى فى الصباح ثم يسعى لإضافة تعديلات لمشروع قانون مخصصات مالية يفيد دائرته بعد الظهر. كما أن هذه الدرجات لا يعتمد عليها بالنسبة للولايات الصغيرة. فتقدير «اتحاد المحافظين الأمريكيين» لولاية وايومنج كان صفرًا فى سنة ١٩٧٢م و١٠٠ فى كل من ١٩٨٦م و٢٠٠٢م. وكانت هذه نتيجة وايومنج ذات المقعد البرلمانى الواحد. وفى سنة ١٩٧٢م كان يشغل المقعد تينو رونكاليو وهو ديمقراطى مؤيد لكنيدى، صوت لصالح معاهدة سولت وإلغاء الفصل العنصرى بأمر من المحكمة، ولكنه صوت ضد مشروع قانون چين ڤوندا. وفى سنة ١٩٨٦ كان ديك تشينى الذى كان يتبع النهج المحافظ دون مواربة، كشاغلته الحالية باربرة كيوپن التى أيدت الانسحاب من معاهدة الصواريخ البالستية المضادة وتوسيع قانون إصلاح إعانة البطالة. وللاطلاع على تحليل أعقد لاستعمال التقديرات الأيديولوچية انظر كتاب كايث پوول، وهوارد روزنثال «مجلس النواب: تاريخ سياسى اقتصادى للتصويت بالنداء على الأسماء»، أوكسفورد، ١٩٧٧م، ص١٦٥ ـ ١٨٣). ولتحليل أكثر مباشرةً، انظر مقال ليندا فاولر بعنوان «كيف تختار جماعات المصالح القضايا بتقدير سجلات تصويت أعضاء مجلس النواب الأمريكى» المنشور فى دورية Legislative Studies Quarterly لسنة ١٩٨٢م، ص٤١٠ ـ ٤١٣.

***

تذييل

تقديرات التوجهات المحافظة لأعضاء مجلس النواب

State	1972	1986	2002	Dems '72	Dems '86	Dems '02	Reps '72	Reps '86	Reps '02
Alabama	70	62	80	64	51	37	80	90	98
Alaska	11	65	86	11	na	na	na	65	86
Arizona	66	69	79	11	5	0	93	85	95
Arkansas	52	51	43	53	41	25	67	82	96
California	38	39	38	12	6	6	66	88	90
Colorado	54	62	67	32	12	2	77	88	100
Connecticut	29	19	37	35	0	7	16	40	67
Delaware	70	27	76	na	27	na	70	na	76
Florida	66	56	66	52	39	13	82	85	94
Georgia	83	68	76	83	63	16	86	86	99
Hawaii	0	5	11	0	5	11	na	na	na
Idaho	58	59	94	na	32	na	58	86	94
Illinois	43	34	53	12	10	14	74	69	92
Indiana	49	48	63	16	10	18	76	86	93
Iowa	42	34	71	0	-	32	59	48	81
Kansas	65	57	78	40	30	20	71	76	97
Kentucky	45	53	91	33	31	84	75	82	93
Louisiana	70	56	79	70	46	33	na	85	98
Maine	0	45	0	0	na	0	na	45	na
Maryland	38	37	37	33	24	3	48	76	71
Massachusetts	6	5	4	3	4	4	17	14	na
Michigan	38	30	46	9	6	12	56	68	90
Minnesota	28	31	46	3	6	15	53	72	97
Mississippi	90	60	65	90	45	41	na	83	100
Missouri	41	40	60	36	19	11	90	81	98
Montana	46	48	100	17	10	na	75	86	100
Nebraska	75	72	80	na	na	na	75	72	80
Nevada	50	59	54	50	32	16	na	86	91
New Hampshire	78	86	86	na	na	na	78	86	86
New Jersey	21	28	42	6	8	-	44	55	82
New Mexico	64	56	56	60	18	0	67	75	84
New York	25	29	35	8	0	-	48	58	78
North Carolina	71	59	62	68	35	15	77	87	95
North Dakota	34	27	32	0	27	32	67	na	na
Ohio	49	42	55	14	10	-	63	78	90
Oklahoma	50	45	86	35	36	40	80	85	95
Oregon	41	41	28	37	10	11	45	89	96
Pennsylvania	35	38	55	21	17	14	49	64	92
Rhode Island	0	5	8	0	5	8	na	5	na
South Carolina	77	60	65	78	39	8	70	82	93
South Dakota	21	18	88	21	18	na	na	na	88
Tennessee	62	41	71	47	24	37	82	74	98
Texas	61	57	53	58	35	22	88	93	95
Utah	50	94	78	33	na	40	67	94	98
Vermont	60	14	0	na	na	0	60	14	na
Virginia	81	62	74	84	39	15	80	78	97
Washington	22	33	39	9	12	13	100	66	92
West Virginia	31	14	41	31	14	24	na	na	76
Wisconsin	41	36	42	10	10	5	74	69	87
Wyoming	0	100	100	0	na	na	na	100	100
Averages:*	45	43	53	32	20	13	63	75	91
Medians:*	47.5	43.5	58	31	17.5	13	70	81	93

*Averages and medians are for the full 435 members of Congress.

NOTES

Introduction

1. "Income in the United States 2002," U.S. Census Bureau, September 2003; *UK National Statistics, Social Trends* 33 (London: HMSO), p. 106.
2. "Too Many Convicts," *Economist,* August 10, 2002.
3. Nigel Hamilton, *JFK: Reckless Youth* (New York: Random House, 1995), pp. 141–43.
4. Quoted in Steven Hayward, *The Age of Reagan: The Fall of the Old Liberal Order, 1964–1980* (New York: Forum, 2001), p. 11.
5. Jacob Weisberg, *In Defense of Government: The Fall and Rise of Public Trust* (New York: Scribner, 1996), p. 42.
6. Voter News Service poll, 2000; CNN exit poll, 2000 presidential election, November 2000, http://edition.cnn.com/ELECTION/2000/epolls/us/2000.html.
7. Quoted in Robert Nisbet, *Conservatism, Dream and Reality* (New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 2002), p. 116.
8. This is a favorite rallying cry of Grover Norquist.
9. Quoted in Nisbet, *Conservatism, Dream and Reality,* p. 41. Mrs. Thatcher believed this profoundly. See John Campbell, *Margaret Thatcher: The Iron Lady* (London: Jonathan Cape, 2003), p. 639ff.
10. Douglas Davis, "What Might Be Called One-Year-Out-Madness Is Sweeping Through Our Nation," *Newsday,* August 19, 1999.
11. The Mars example was from an Americans for Tax Reform meeting on August 27, 2003.
12. Andres Duany, quoted in "Live with TAE," *The American Enterprise,* October/November 2002, p. 18.
13. Based on census figures for 1980, 1990 and 2000, www.census.gov/Press-Release/www/releases/archives/census_2000/000717.html.
14. James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 4.
15. Ibid.
16. The cheese-eating phrase was originally used on *The Simpsons.*

Chapter 1: From Kennebunkport to Crawford

1. Lewis Namier, *England in the Age of the American Revolution* (London: Macmillan, 1963), p. 19.
2. Bill Minutaglio, *First Son: George W. Bush and the Bush Family Dynasty* (New York: Times Books, 1999), p. 19.
3. Ibid.
4. Walker and Bush's business dealings are scrutinized in Kevin Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune and the Politics of Deceit in the House of Bush* (New York: Viking, 2003).

5. Mickey Herskowitz, *Duty, Honor, Country: The Life and Legacy of Prescott Bush* (Nashville, Tenn.: Rutledge Hill Press, 2003), p. 81.
6. Ibid.
7. Elizabeth Mitchell, *W: Revenge of the Bush Dynasty* (New York: Hyperion, 2000), p. 82.
8. Minutaglio, *First Son*, p. 41.
9. Herskowitz, *Duty, Honor, Country*, p. 127.
10. Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush* (New York: Jeremy P. Tarcher/Penguin, 2003), p. 9.
11. Pamela Colloff, "The Son Rises," *Texas Monthly*, June 1999.
12. Ibid.
13. Earl Black and Merle Black, *The Rise of Southern Republicans* (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2002), p. 41.
14. Michael Lind, *Made in Texas: George Bush and the Southern Takeover of American Politics* (New York: Basic Books, 2003), pp. 34–35.
15. T. R. Fehrenbach, *Lone Star: A History of Texas and the Texans* (New York: Da Capo, 2000), p. 672.
16. Interview with authors, January 24, 2003.
17. Theodore H. White, *America in Search of Itself: The Making of the President 1956–1980* (New York: Harper and Row, 1982), p. 238.
18. Minutaglio, *First Son*, p. 82.
19. Ibid., p. 132.
20. Ibid., p. 77.
21. Herskowitz, *Duty, Honor, Country*, p. ix.
22. Mitchell, *W: Revenge of the Bush Dynasty*, p. 81.
23. Ibid., p. 124.
24. David Frum, *The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush* (New York: Random House, 2003), p. 47.
25. Minutaglio, *First Son*, p. 85.
26. Lou Dubose, Jan Reid and Carl Cannon, *Boy Genius: Karl Rove, the Brains Behind the Remarkable Political Triumph of George W. Bush* (New York: PublicAffairs, 2003), p. 15.
27. Minutaglio, *First Son*, p. 187.
28. Ibid., p. 191.
29. Mitchell, *W: Revenge of the Bush Dynasty*, p. 16.
30. Dubose, Reid and Cannon, *Boy Genius*, p. 5.
31. Minutaglio, *First Son*, p. 279.
32. Dubose, Reid and Cannon, *Boy Genius*, p. 25.
33. Dan Balz and Ronald Brownstein, *Storming the Gates: Protest Politics and the Republican Revival* (New York: Little, Brown, 1996), p. 228.
34. Interview with author, January 1998.

Chapter 2: The Conservative Rout, 1952–1964

1. Stephen Ambrose, *Eisenhower: The President*, vol. 2, *1952–1969* (London: George Allen and Unwin, 1984), p. 220.
2. Ibid., p. 43.
3. Rick Perlstein, *Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus* (New York: Hill and Wang, 2001), p. 13.

4. H. W. Brands, *The Strange Death of American Liberalism* (New Haven: Yale University Press, 2001), pp. 74–75.
5. Perlstein, *Before the Storm,* p. 5.
6. Brands, *The Strange Death of American Liberalism,* p. 78.
7. Ambrose, *Eisenhower: The President,* p. 23.
8. U.S. Office of Management and Budget, Budget for Fiscal Year 2004, historical tables, p. 21.
9. Brands, *The Strange Death of American Liberalism,* p. 59.
10. George H. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America Since 1945* (Wilmington, Del.: Intercollegiate Studies Institute, 1998), p. 317.
11. Ibid., p. 128.
12. Lionel Trilling, *The Liberal Imagination* (New York: Viking, 1950), p. ix.
13. Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America* (New York: Harvest, 1955), p. 57.
14. Whittaker Chambers, *Witness* (New York: Random House, 1952), p. 793.
15. Quoted in James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 393.
16. Justin Martin, *Greenspan: The Man Behind Money* (Cambridge, Mass.: Perseus Publishing, 2000), p. 49.
17. Ibid., p. 149.
18. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America,* p. 66.
19. Ibid., p. 183.
20. Quoted in ibid., p. 8.
21. Steven Hayward, *The Age of Reagan: The Fall of the Old Liberal Order, 1964–1980,* (New York: Forum, 2001) p. xxii.
22. William Rusher, *The Rise of the Right* (New York: William Morrow, 1984), p. 38.
23. Perlstein, *Before the Storm,* p. 73.
24. John Judis, *William F. Buckley, Patron Saint of the Conservatives* (New York: Simon & Schuster, 1988), p. 184.
25. Whittaker Chambers, "Big Sister Is Watching You," *National Review* 4 (December 28, 1957), pp. 594–96. Quoted in Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America,* p. 144.
26. Quoted in Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America,* p. 145.
27. Rusher, *The Rise of the Right,* p. 81.
28. Earl Black and Merle Black, *The Rise of Southern Republicans* (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2002), p. 3.
29. Ibid., p. 40.
30. Ibid., p. 42.
31. Ibid., p. 207.
32. Perlstein, *Before the Storm,* p. 46.
33. Quoted in James T. Patterson, *Grand Expectations: The United States, 1945–1974* (New York: Oxford University Press, 1996), pp. 392–93.
34. Thomas Byrne Edsall and Mary D. Edsall, *Chain Reaction: The Impact of Race, Rights and Taxes on American Politics* (New York: W. W. Norton, 1991), p. 36.
35. Ibid.
36. Ibid., p. 61.
37. Richard Reeves, *President Kennedy: Profile of Power* (New York: Simon & Schuster, 1993), pp. 655–56.

38. Lewis L. Gould, *Grand Old Party: A History of the Republicans* (New York: Random House, 2003), p. 360.
39. Perlstein, *Before the Storm*, p. 374.
40. Ibid., p. 224.
41. Ibid., p. 459.
42. Ibid., p. 392.
43. Theodore H. White, *The Making of the President, 1964* (New York: Atheneum, 1965), p. 352.
44. Perlstein, *Before the Storm*, p. 444.
45. White, *The Making of the President, 1964*, p. 110.
46. Perlstein, *Before the Storm*, p. 337.
47. Ibid., pp. 337–38.
48. White, *The Making of the President, 1964*, p. 352.
49. Perlstein, *Before the Storm*, p. 333.
50. Theodore H. White, *The Making of the President, 1968: A Narrative History of American Politics in Action* (New York: Atheneum, 1969), p. 31.
51. White, *The Making of the President, 1964*, p. 406.
52. White, *The Making of the President, 1968*, p. 32.
53. Michael Barone, *Our Country: The Shaping of America from Roosevelt to Reagan* (New York: Free Press, 1990), p. 315.
54. Quoted in Lisa McGirr, *Suburban Warriors: The Origins of the New American Right* (Princeton: Princeton University Press, 2001), p. 132.
55. White, *The Making of the President, 1964*, p. 220.
56. James Q. Wilson, "A Guide to Reagan Country: The Political Culture of Southern California," *Commentary* 43 (May 1967), p. 39.
57. White, *The Making of the President, 1964*, p. 68.
58. Ibid., p. 230.
59. McGirr, *Suburban Warriors*, p. 54.
60. Lee Edwards, *The Conservative Revolution: The Movement That Remade America* (New York: Free Press, 1999), p. 132.
61. Robert Lekachman, "The Postponed Argument," *New Leader*, November 23, 1964, p. 314. Quoted in Hayward, *The Age of Reagan*, p. 52.
62. Perlstein, *Before the Storm*, p. 421.
63. Ibid., p. 472.
64. Jerome Himmelstein, *To the Right: The Transformation of American Conservatism* (Berkeley: University of California Press, 1990), p. 67.

Chapter 3: The Agony of Liberalism, 1964–1988

1. Theodore H. White, *The Making of the President, 1964* (New York: Atheneum, 1965), p. 365.
2. Rick Perlstein, *Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus* (New York: Hill and Wang, 2001), p. 303.
3. Quoted in James T. Patterson, *Grand Expectations: The United States 1945–1974* (New York: Oxford University Press, 1996), pp. 587–88.
4. Daniel P. Moynihan, *Maximum Feasible Misunderstanding: Community Action in the War on Poverty* (New York: Free Press, 1969), pp. 128–66; Tom Wolfe, *Radical Chic and*

Mau-Mauing the Flak Catchers (New York: Bantam, 1999), originally published in 1970 by Farrar, Straus and Giroux.

5. Thomas Byrne Edsall and Mary D. Edsall, *Chain Reaction: The Impact of Race, Rights and Taxes on American Politics* (New York: W. W. Norton, 1991), pp. 45–46.
6. Christopher Lasch, *The True and Only Heaven: Progress and Its Critics* (New York: W. W. Norton, 1991), p. 505.
7. Steven Hayward, *The Age of Reagan: The Fall of the Old Liberal Order, 1964–1980* (New York: Forum, 2001), p. 302.
8. Theodore H. White, *The Making of the President, 1968: A Narrative History of American Politics in Action* (New York: Atheneum, 1969), p. 346.
9. Edsall and Edsall, *Chain Reaction,* p. 95.
10. Ibid., p. 52.
11. Ibid., pp. 111–12.
12. Hayward, *The Age of Reagan,* p. 154.
13. Michael Elliott, *The Day Before Yesterday: Reconsidering America's Past; Rediscovering the Present* (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 175.
14. National Elections Studies database, University of Michigan, http://www.umich/edu/_nes/nesguide/nesguide.htm.
15. George H. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America Since 1945* (Wilmington, Del.: Intercollegiate Studies Institute, 1998), p. 319.
16. White, *The Making of the President, 1968,* p. 143.
17. Jerome Himmelstein, *To the Right: The Transformation of American Conservatism* (Berkeley: University of California Press, 1990), p. 100.
18. David Reinhard, *The Republican Right Since 1945* (Lexington: University of Kentucky, 1983), p. 222.
19. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America,* p. 319.
20. Richard Viguerie, *The New Right: We're Ready to Lead* (Falls Church, Va.: The Viguerie Company, 1980), pp. 51–52.
21. National Elections Studies database, University of Michigan.
22. Lou Cannon, *Governor Reagan: His Rise to Power* (New York: Public Affairs, 2003), p. 394.
23. Hayward, *The Age of Reagan,* p. 448.
24. Lewis L. Gould, *Grand Old Party: A History of the Republicans* (New York: Random House, 2003), p. 403.
25. Quoted in Lee Edwards, *The Conservative Revolution: The Movement That Remade America* (New York: Free Press, 1999), p. 188.
26. Gary Dorrien, *The Neo-Conservative Mind: Politics, Culture, and the War of Ideology* (Philadelphia: Temple University Press, 1993), p. 2.
27. Irving Kristol, *Neo-Conservatism: The Autobiography of an Idea* (New York: Free Press, 1995), p. 25.
28. "The Negro Family: The Case for National Action," U.S. Department of Labor, Washington, D.C., 1965.
29. Godfrey Hodgson, *The World Turned Right Side Up* (New York: Houghton Mifflin, 1996), p. 130.
30. Kristol, *Neo-Conservatism,* p. 6.
31. Quoted in Nina J. Easton, *Gang of Five: Leaders at the Center of the Conservative Crusade* (New York: Simon & Schuster, 2000), pp. 41–42. Easton provides the best short

summary of Strauss's arguments we have come across. For a less accessible account by influential Washington Straussians, see Steven Lenzner and William Kristol, "What Was Leo Strauss Up To?" *The Public Interest*, Fall 2003.

32. Robert Kaiser and Ira Chinoy, "How Scaife's Money Powered a Movement," *Washington Post*, May 2, 1999.
33. Himmelstein, *To the Right*, p. 141.
34. Ibid., pp. 144–45.
35. William J. Lanouette, "The New Right—'Revolutionaries' Out After the Lunchpail Vote," *National Journal*, January 21, 1978, p. 88.
36. Quoted in Lee Edwards, *The Power of Ideas: The Heritage Foundation at 25 Years* (Ottawa, Ill.: Jameson Books, 1997), p. 38.
37. William Rusher, *The Rise of the Right* (New York: William Morrow, 1984), p. 228–29; Himmelstein, *To the Right*, p. 86.
38. Himmelstein, *To the Right*, p. 82.
39. Gillian Peele, *Revival and Reaction: The Right in Contemporary America* (Oxford: Clarendon Press, 1984), p. 3.
40. Himmelstein, *To the Right*, pp. 82–83.
41. James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 453.
42. Himmelstein, *To the Right*, pp. 116–17.
43. Ibid.
44. Ibid., p. 118.
45. Morone, *Hellfire Nation*, p. 453.
46. David Maraniss, *First in His Class: A Biography of Bill Clinton* (New York: Simon & Schuster, 1995), p. 282.
47. Earl Black and Merle Black, *The Vital South: How Presidents Are Elected* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992), p. 279.
48. Earl Black and Merle Black, *The Rise of Southern Republicans* (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2002), p. 154.
49. Ibid., pp. 102–11.
50. Hodgson, *The World Turned Right Side Up*, pp. 210–11.
51. Edsall and Edsall, *Chain Reaction*, pp. 130–131.
52. Hodgson, *The World Turned Right Side Up*, p. 206.
53. Lou Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime* (New York: Simon & Schuster, 1991), p. 160.
54. Hayward, *The Age of Reagan*, pp. xix–xx.
55. Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime*, pp. 15–16, 85.
56. Black and Black, *The Rise of Southern Republicans*, p. 224.
57. Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime*, p. 43.
58. Quoted in Hayward, *The Age of Reagan*, p. xxix.
59. Ibid., p. 100.
60. Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime*, pp. 493–94.
61. Sidney Blumenthal, *The Rise of the Counterestablishment: From Conservative Ideology to Political Power* (New York: Harper and Row, 1986), p. 142.
62. Rusher, *The Rise of the Right*, p. 314.
63. Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime*, p. 363.

64. Christopher Lasch, *The True and Only Heaven: Progress and Its Critics* (New York: W. W. Norton, 1991), p. 515.
65. For these figures, see Appendix.

CHAPTER 4: THE FIFTY-FIFTY NATION, 1988–2000

1. Joe Klein, *The Natural* (New York: Broadway, 2003), p. 14.
2. For a vigorous defense of George H. W. Bush, see Jonathan Rauch, "Father Superior," *New Republic,* May 22, 2000.
3. Quoted in Dan Balz and Ronald Brownstein, *Storming the Gates: Protest Politics and the Republican Revival* (Boston: Little, Brown, 1996), p. 131.
4. Interview with Grover Norquist, August 27, 2003.
5. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 71.
6. John Podhoretz, *Hell of a Ride: Backstage at the White House Follies, 1989–1993* (New York: Simon & Schuster, 1993), p. 153.
7. Ibid., p. 157.
8. Linda Feldmann, "Economy Struggles, but War May Still Buoy Bush," *Christian Science Monitor,* April 16, 2003.
9. Podhoretz, *Hell of a Ride,* p. 30.
10. Ibid., p. 89.
11. Ibid., p. 94.
12. Ibid.
13. E. J. Dionne, *They Only Look Dead: Why Progressives Will Dominate the Next Political Era* (New York: Simon & Schuster, 1998), p. 197.
14. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 144.
15. Ibid., p. 134.
16. Larry J. Sabato, *Feeding Frenzy: How Attack Journalism Has Transformed American Politics* (New York: Free Press, 1991), p. 20.
17. Sidney Blumenthal, *The Clinton Wars* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2003), p. 88.
18. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 136.
19. Eric Schneider, ed., *Conservatism in America Since 1930* (New York: New York University Press, 2003), p. 396.
20. Ibid.
21. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 68.
22. Klein, *The Natural,* p. 35.
23. Bill Clinton's keynote address to the Democratic Leadership Council in Cleveland, May 6, 1991.
24. "Like Father, Like Son," *Economist,* April 19, 2003.
25. Blumenthal, *The Clinton Wars,* p. 36.
26. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 147.
27. Blumenthal, *The Clinton Wars,* p. 44.
28. Balz and Brownstein, *Storming the Gates,* p. 79.
29. Ibid., p. 89.
30. Adam Clymer, "The 'Teacher of the Rules of Civilization' Gets a Scolding," *New York Times,* January 26, 1997.
31. Blumenthal, *The Clinton Wars,* p. 86.

32. Ibid., p. 67ff.
33. George Stephanopoulos, *All Too Human* (Boston: Little, Brown, 1999), p. 228.
34. Klein, *The Natural*, p. 80.
35. Dionne, *They Only Look Dead*, pp. 82–83, 118–50.
36. Balz and Brownstein, *Storming the Gates*, p. 199.
37. Ibid., p. 56.
38. Ibid., p. 318.
39. David Plotz, "Ralph Reed's Creed," *slate.com*, May 4, 1997.
40. Quoted in Balz and Brownstein, *Storming the Gates*, p. 320.
41. Plotz, "Ralph Reed's Creed."
42. Balz and Brownstein, *Storming the Gates*, p. 311.
43. Blumenthal, *The Clinton Wars*, p. 120.
44. Hillary Rodham Clinton, *Living History* (New York: Simon & Schuster, 2003), p. 230
45. All the figures in this paragraph come from Balz and Brownstein, *Storming the Gates* p. 257.
46. See also George Kelling, Catherine Coles, and James Q. Wilson, eds., *Fixing Broken Windows: Restoring Order and Reducing Crime in Our Communities* (New York: Free Press, 1998).
47. Charles Murray, "The Coming White Underclass," *Wall Street Journal*, October 29, 1993.
48. Balz and Brownstein, *Storming the Gates*, p. 114.
49. A longer version is published as a book, edited by Ed Gillespie and Bob Schellhas, *Contract with America: The Bold Plan by Rep. Newt Gingrich, Rep. Dick Armey and the House Republicans to Change the Nation* (New York: Times Books, 1994).
50. David Maraniss and Michael Weisskopf, *Tell Newt to Shut Up* (New York: Touchstone, 1996).
51. Klein, *The Natural*, p. 145.
52. Dick Morris, *Behind the Oval Office: Winning the Presidency in the Nineties* (New York: Random House, 1997), pp. 81–88.
53. Klein, *The Natural*, p. 149.
54. Michael Barone, ed., *Almanac of American Politics, 1998* (Washington, D.C.: National Journal, 1997), p. 25.
55. Morris, *Behind the Oval Office*, pp. 300–5.
56. Barone, ed., *Almanac of American Politics, 1998*, p. 39.
57. Quoted in Godfrey Hodgson, *The World Turned Right Side Up* (New York: Houghton Mifflin, 1996), p. 283.
58. Stephanopoulos, *All Too Human*, p. 411.
59. Dionne, *They Only Look Dead*, p. 32.
60. Bill Clinton, State of the Union Address, January 27, 1998.
61. Balz and Brownstein, *Storming the Gates*, p. 321.
62. Ibid., p. 305.
63. Lou Cannon, *Governor Reagan: His Rise to Power* (New York: Public Affairs, 2003), p. 213.
64. "Not Extinct," *Economist*, July 13, 1991.
65. Bill Clinton, remarks at the Democratic National Convention, Los Angeles, August 14, 2000.

Chapter 5: For Texas, Business and God

1. Quoted in John Kenneth White, *The Values Divide: American Politics and Culture in Transition* (New York: Seven Bridges Press, 2003), p. 187.
2. Ibid., p. 188.
3. Ibid.
4. Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon & Schuster, 2002), p. 13.
5. Quoted in Eric Alterman, *What Liberal Media? The Truth About Bias and the News* (New York: Basic Books, 2003), p. 193.
6. Roxanne Roberts, "Lone Star Cosmos: At Their Ball, Texans Draw Washington into Their Vast, Expanding Universe," *Washington Post,* January 20, 2001.
7. Michael Lind, quoted in "The Future of Texas," *Economist,* December 21, 2002.
8. Michael Lind, *Made in Texas: George Bush and the Southern Takeover of American Politics* (New York: Basic Books, 2003), pp. 120–21.
9. Lou Dubose, Jan Reid and Carl Cannon, *Boy Genius: Karl Rove, the Brains Behind the Remarkable Political Triumph of George W. Bush* (New York: Public Affairs, 2003), p. 73.
10. George W. Bush, *A Charge to Keep* (New York: William Morrow, 1999), p. 97.
11. Bill Minutaglio, *First Son: George W. Bush and the Bush Family Dynasty* (New York: Times Books, 1999), p. 19.
12. Ibid., p. 109.
13. Bob Sablatura, "George W. Bush: Wealth Produced via Stock Swaps and Bailouts," *Houston Chronicle,* May 8, 1994.
14. Gerry Fraley, "Rangers Plan New Stadium in Arlington," *Dallas Morning News,* October 25, 1990.
15. Terrence Samuel, "Does Money Talk?" *U.S. News & World Report,* September 15, 2003.
16. David Frum, *The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush* (New York: Random House, 2003), p. 283.
17. Speech by George W. Bush to UN General Assembly, November 10, 2001.
18. Remarks by George W. Bush on global HIV initiative, April 29, 2003.
19. See http://www.press.uchicago.edu.Misc/Chicago/481921.html.
20. Frum, *The Right Man,* p. 3.
21. Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush* (New York: Jeremy P. Tarcher/Penguin, 2003), pp. 117–19.
22. Frum, *The Right Man,* pp. 101–3.
23. John Parker, "Survey of America," *Economist,* November 8, 2003, p. 12.
24. Ibid.

Chapter 6: The *Rive Droite*

1. Quoted in Gertrude Himmelfarb, *Marriage and Morals Among the Victorians* (New York: Vintage Books, 1987), p. 202.
2. David Carr, "White House Listens When Weekly Speaks," *New York Times,* March 11, 2003.
3. Full disclosure: One of us once wrote an article for the *Weekly Standard* (predicting dire times ahead for Tony Blair shortly before he won a landslide victory).
4. Franklin Foer, "After Meritocracy," *New Republic,* February 5, 2001.
5. Eric Alterman, *What Liberal Media? The Truth About Bias and the News* (New York: Basic Books, 2003), pp. 35, 39.

6. Ken Auletta, "Vox Fox," *New Yorker,* May 26, 2003, p. 63.
7. Ibid., p. 58.
8. David Kirkpatrick, "Shaping Cultural Tastes at Big Retail Chains," *New York Times,* May 18, 2003.
9. Quoted in Alterman, *What Liberal Media?* p. 29.
10. See, for example, Terry M. Moe, *Schools, Vouchers and the American Public* (Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2001).
11. Matt Bai, "Notion Building," *New York Times Magazine,* October 12, 2003, p. 86.

Chapter 7: The Brawn

1. Adam Liptak, "Defendants Fighting Gun Charges Cite New View of Second Amendment," *New York Times,* July 23, 2002.
2. See www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/choice2000/bush/wead.html.
3. See http://family.org/fmedia/misc/a0027564.cfm.
4. See http://family.org/cforum/extras/a0027493.cfm.
5. Joan Didion, "Mr. Bush and the Divine," *New York Review of Books,* November 6, 2003.
6. Kimberly Conger and John Green, "Spreading Out and Digging In: Conservatives and State Republican Parties," *Campaigns and Elections,* February 2002.
7. Robert Kaiser and Ira Chinoy, "The Right's Founding Father: Fighting a War of Ideas," *Washington Post,* May 2, 1999.
8. David Low, *Low's Autobiography* (London: M. Joseph, 1956), p. 120.
9. Hillary Rodham Clinton, *Living History* (New York: Simon & Schuster, 2003), p. 446.
10. Dan Balz and Ronald Brownstein, *Storming the Gates: Protest Politics and the Republican Revival* (Boston: Little, Brown, 1996), p. 163.

Chapter 8: With Us or Against Us

1. George W. Bush, acceptance speech, Republican National Convention, August 3, 2000.
2. Frank Bruni, *Ambling into History: The Unlikely Odyssey of George W. Bush* (New York: HarperCollins, 2002), p. 4.
3. Ramesh Ponnuru, "Getting to the Bottom of This Neo Nonsense," *National Review,* June 16, 2003, pp. 29–32.
4. Ivo H. Daalder and James Lindsay, *America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy* (Washington, D.C.: Brookings Institution, 2003), p. 18.
5. Ibid., p. 112.
6. Ibid., p. 15.
7. Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 70–75.
8. Stephen Fidler and Gerard Baker, "America's Democratic Imperialists," *Financial Times,* March 6, 2003, p. 7.
9. David Plotz, "Paul Wolfowitz: Bush's Testosterone Man at Defense," *Slate,* Friday, October 12, 2001.
10. Charles Krauthammer, speaking at the American Enterprise Institute. Quoted in Julie Kosterlitz, "The Neo-Conservative Moment," *National Journal,* May 17, 2003.
11. "Lindbergh Lives," *Economist,* March 15, 2003.

12. John Vinocur, "In Private, French Talk Differently About Veto," *International Herald Tribune,* March 6, 2003.
13. John Vinocur, "What Does Europe Want?" *International Herald Tribune,* January 20, 2004.
14. Michael Lind, "The Weird Men Behind George W. Bush's War," *New Statesman,* April 7, 2003.
15. See http://www.israeleconomy.org/strat1.htm.
16. Fidler and Baker, "America's Democratic Imperialists," p. 17.
17. Elizabeth Drew, "The Neo-Cons in Power," *New York Review of Books,* June 12, 2003, p. 20.
18. Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon & Schuster, 2002), p. 98.
19. Daalder and Lindsay, *America Unbound,* p. 33.
20. Carl Cannon, "Memory and More in the Middle East," *National Journal,* June 7, 2003, p. 1779.
21. David Wurmser, quoted in Kosterlitz, "The Neo-Conservative Moment."
22. David Frum, *The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush* (New York: Random House, 2003), p. 259.
23. Graham Turner, "The New Empire," *Daily Telegraph,* June 16, 2003.
24. George W. Bush, *A Charge to Keep* (New York: William Morrow, 1999), p. 239.
25. Jeffrey A. Krames, *The Rumsfeld Way: Leadership Wisdom of a Battle-Hardened Maverick* (New York: McGraw-Hill, 2002), p. 37.
26. Ibid., pp. 37–38.
27. Bush's speech at West Point is published in *America and the World,* a Council on Foreign Relations book (New York: W. W. Norton, 2002), pp. 364–71.
28. Quoted in Arthur Schlesinger Jr., "Eyeless in Iraq," *New York Review of Books,* October 23, 2003.
29. Ibid.
30. See www.whitehouse.gov/news/releases/2002/0620020614-8.
31. Irving Kristol, "American Conservatism, 1945–1995," *The Public Interest,* September 1, 1995; Pat Robertson, *The New World Order* (Dallas: World Publishing, 1991). On this subject see Michael Lind, *Up from Conservatism: Why the Right Is Wrong for America* (New York: Free Press, 1997), pp. 99–120.
32. Max Boot, "The Case for American Empire," *Weekly Standard,* October 15, 2001.
33. Max Boot, "Washington Needs a Colonial Office," *Financial Times,* July 3, 2003.
34. Daalder and Lindsay, *America Unbound,* p. 37.
35. The Pew Research Center for the People and the Press, Survey, October 15–19, 2003.
36. David Frum and Richard Perle, *An End to Evil: How to Win the War on Terrorism* (New York: Random House, 2003).
37. See Joseph Nye, *The Paradox of American Power: Why the World's Superpower Cannot Go It Alone* (New York: Oxford University Press, 2002).
38. See http://news.bbc.co.uk/1/shared/spl/hi/programmes/wtwta/poll/html/default.stm.
39. Max Boot, "All-Stars of Team Bush Fall Flat in Iraq," *Los Angeles Times,* December 14, 2003.
40. Daalder and Lindsay, *America Unbound,* p. 167.
41. Author interview with Jeane Kirkpatrick, August 11, 2003.

Chapter 9: The Road Ahead

1. "Dusting Off William McKinley," *Economist*, November 13, 1999.
2. Gary C. Jacobson, "The Bush Presidency and the American Electorate," *Presidential Studies Quarterly*, December 1, 2003.
3. "2004 Political Landscape," The Pew Research Center for the People and the Press, November 5, 2003.
4. Julie Kosterlitz, "On the Ropes," *National Journal*, September 6, 2003.
5. David Broder, "Political Steamroller," *Washington Post*, November 17, 2002.
6. "Fund-raising Gives GOP a Big Lead in Last Cycle," *New York Times*, March 19, 2003.
7. Elisabeth Bumiller, "Keepers of Bush Image Lift Stagecraft to New Heights," *New York Times*, May 16, 2003.
8. Kosterlitz, "On the Ropes."
9. Adam Clymer, "Buoyed by Resurgence, GOP Strives for an Era of Dominance," *New York Times*, May 25, 2003.
10. Our colleague was John Smutniak.
11. U.S. Bureau of Labor Statistics, Employment and Earnings, January 1983 and 2001 issues.
12. Michael Barone, "Life, Liberty and Property," *National Journal*, February 15, 2003, p. 508.
13. John Judis and Ruy Teixeira, *The Emerging Democratic Majority* (New York: Scribner, 2002), p. 50.
14. Ibid., p. 38.
15. See http://www.cis.org/articles/2002/back203.html.
16. Quoted in Michael Barone. *The New Americans: How the Melting Pot Can Work Again* (Washington, D.C.: Regnery, 2001), p. 182.
17. Ibid., pp. 161, 165.
18. Gregory Rodriguez, "The Emerging Latino Middle Class," a report for Pepperdine University Institute for Public Policy, October 1996.
19. Judis and Teixeira, *The Emerging Democratic Majority*, p. 39.
20. Mark Penn, "The Democratic Party and the 2004 Election," paper released by the Democratic Leadership Council, July 28, 2003.
21. Joel Kotkin, "Paths to Prosperity," *American Enterprise*, July/August 2003.
22. Michael Barone, ed., *Almanac of American Politics 2004* (Washington, D.C.: National Journal Group, 2003) Introduction.
23. Gallup poll, January 20–22, 2003.
24. Barone, ed., *Almanac of American Politics 2004*, Introduction, p. 31.
25. Cato Handbook for Congress: 108th Congress, p. 3.
26. Janny Scott, "The Changing Face of Patriotism," *New York Times*, July 6, 2003.
27. See http://www.abcnews.go.com/sections/politics/US/bush_sotu_poll_040119.html.
28. Katha Pollitt, "Pull Out No Flags," *Nation*, October 8, 2001.

Chapter 10: How It Could Go Wrong

1. "Good Ol' Strom?" *Economist*, November 30, 2002.
2. Thomas Edsall, 'Lott Renounces White Racialist Group He Praised in 1992," *Washington Post*, December 16, 1998.
3. "I am large / I contain multitudes," from *Song of Myself*.

4. William Rentschler, "Barry Goldwater, Still in His Element as the Straightshooter from the West," *Chicago Tribune,* October 23, 1994.
5. Paul Krugman, *The Great Unraveling* (New York: Norton, 2003), p. 177.
6. "A Flood of Red Ink," *Economist,* November 8, 2003.
7. U.S. Office of Management and Budget, Mid-year Budget Review, released July 15, 2003.
8. For a detailed explanation, see "A Flood of Red Ink."
9. Jagadeesh Gokhale and Kent Smetters, "Fiscal and Generational Imbalances," www.aei.org/docLib/20030723_SmettersFinalCC.pdf.
10. Dennis Cauchon, "GOP Outspends Democrats in States: Both Far Outpace Inflation," *USA Today,* May 19, 2003.
11. Nicholas Dawidoff, "Mr. Washington Goes to Mississippi," *New York Times Magazine,* October 19, 2003.
12. Nicholas Confessore, "Welcome to the Machine: How the GOP Disciplined K Street and Made Bush Supreme," *Washington Monthly,* July/August 2003.
13. Quoted in Bob Woodward, "A Test of Government's Trustworthiness," *Washington Post,* October 25, 2001.
14. *New State Ice Co. v. Liebmann,* U.S. Supreme Court, 1932.
15. Tom Smith, "National Gun Policy Survey," National Opinion Research Center, December 2001.
16. Karlyn Bowman, ed., "Opinion Pulse," *American Enterprise,* March 2003, pp. 60–61.
17. See our colleague Suzi Parker's book, *Sex in the South: Unbuckling the Bible Belt* (Boston: Justin Charles, 2003).
18. John Judis and Ruy Teixeira, *The Emerging Democratic Majority* (New York: Scribner, 2002), p. 151.
19. These paragraphs owe much to John Fonte, "Homeland Politics," *National Review,* June 2, 2003, pp. 27–30.

Chapter 11: Behind Enemy Lines

1. DeWayne Wickham, "Focus on Blacks: Voters of All Races Need to Go to the Polls," *USA Today,* October 24, 2000.
2. Anthony York, "America's Wake-up Call?" *Salon.com,* January 25, 2000.
3. Some of the studies are summarized in Marie Gryphon and Emily Meyer, "Our History of Educational Freedom," *Policy Analysis* 492, October 8, 2003.
4. "Blacks v. Teachers," *Economist,* March 10, 2001.
5. "The Color of Conservatism," *Economist,* January 23, 2003.
6. Nina J. Easton, *Gang of Five: Leaders at the Center of the Conservative Crusade* (New York: Simon & Schuster, 2000), p. 139.
7. Kate Zernike, "A Nation at War: Campuses," *New York Times,* April 5, 2003.
8. CNN exit poll, 2000 presidential election.
9. John Judis and Ruy Teixeira, *The Emerging Democratic Majority* (New York: Scribner, 2002), p. 50.
10. CNN exit poll, 2000 presidential election.
11. Elinor Burkett, *The Right Women: A Journey Through the Heart of Conservative America* (New York: Touchstone, 1998), pp. 15–16.
12. Helen Thomas, "Laura Bush Keeps Opinions to Herself," *Seattle Post-Intelligencer,* April 17, 2002.

13. Burkett, *The Right Women*, p. 41.
14. Lisa Belkin, "The Opt-Out Revolution," *New York Times Magazine*, October 26, 2003.
15. See *New York Times Magazine*, October 26, 2003.
16. Belkin, "The Opt-Out Revolution."

Chapter 12: America the Different

1. Daniel Yergin and Joseph Stanislaw, *The Commanding Heights: The Battle Between Government and the Marketplace That Is Remaking the Modern World* (New York: Simon & Schuster, 1998), p. 300.
2. Interview on Czech television, transcript released November 19, 2002, www.whitehouse.gov.
3. "Views of a Changing World 2003: War with Iraq Further Divides Global Publics," The Pew Research Center for the People and the Press, June 3, 2003.
4. Ibid., p. 29.
5. *Transatlantic Trends 2003: A Project of the German Marshall Fund of the United States and the Compagnia di San Paulo*, pp. 4–5.
6. Andrew Gimson, "A Sad Case of Schadenfreude," *The Spectator*, September 13, 2003.
7. Interview with Ted Koppel, *Nightline*, ABC, February 18, 1998.
8. Clyde Prestowitz, *Rogue Nation* (New York: Basic Books, 2003), p. 212.
9. Bush remarks, April 18, 2002.
10. Philip Gordon, "Bridging the Atlantic Divide," *Foreign Affairs*, January/February 2003, p. 77.
11. Pierre Hassner of the Center for International Studies and Research in Paris, quoted in J. F. O. McAllister, "Mad at America," *Time*, January 20, 2003, p. 23.
12. Dean rally in Falls Church, Virginia, August 23, 2003.
13. "Will a Quartet of Euro-Enthusiasts Undermine NATO?" *Economist*, May 3, 2003.
14. Robert Kagan, "Power and Weakness," *Policy Review*, June/July 2002.
15. *Transatlantic Trends 2003*, p. 14.
16. "A Tale of Two Bellies," *Economist*, August 24, 2002.
17. Allensbach Opinion Research Institute, 2002, quoted in John Parker, "Survey of America," *Economist*, November 8, 2003.
18. "Views of a Changing World 2003."
19. Bernard-Henri Lévy, "A Passage to Europe," *Time*, August 10, 2003.
20. See http://www.ojp.usdoj.gov/bjs/abstract/piuspo1.htm.
21. James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 460.
22. Ibid., p. 461.
23. "A Stigma That Never Fades," *Economist*, August 10, 2002.
24. "Jesse Jackson's Wrong Target," *Economist*, November 25, 1999.
25. "The Military Balance 2003–04," International Institute for Strategic Studies, 2003.
26. Both figures taken from table, "Tale of Two Legacies," *Economist*, Christmas special, December 21, 2002.
27. David Frum, *The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush* (New York: Random House, 2003), p. 33.
28. Milton Friedman, "Tax C its = Smaller Government," *Wall Street Journal Europe*, January 20, 2003, p. A12.

29. "Views of a Changing World 2003."
30. Jason De Parle, "As Rules on Welfare Tighten, Its Recipients Gain in Stature," *New York Times,* September 11, 1999.
31. The artist in question is 50 Cent.
32. Paul Krugman, "For Richer," *New York Times,* October 20, 2002.
33. "Do You Like Your Class War Shaken or Stirred, Sir?" *Economist,* September 4, 2003.
34. Ibid.
35. Ibid.
36. Hendrik Hertzberg, "Dividends," Talk of the Town, *New Yorker,* January 20, 2003, pp. 29–30.
37. Cynthia Tucker, "Making Abortion Safe, Legal and Rare," *San Francisco Chronicle,* January 22, 1993.
38. Bill Kristol, "On the Future of Conservatism," *Commentary,* February 1997.
39. Morone, *Hellfire Nation,* pp. 22–23.
40. John Parker, "Survey of America," *Economist,* November 8, 2003, p. 11.
41. 1 Thessalonians 4:16–17.
42. Parker, "Survey of America," p. 11.
43. Christopher Caldwell, "No, Europe Needs to Get Real," *Time,* January 20, 2003.

Chapter 13: Right from the Beginning

1. Daniel Boorstin, *The Genius of American Politics* (Chicago: University of Chicago Press, 1953), p. 6.
2. Michael Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon & Schuster, 1995), p. 225.
3. Boorstin, *The Genius of American Politics,* p. 6.
4. Ibid., p. 70.
5. Gordon Wood, *The American Revolution: A History* (New York: Modern Library Chronicles, 2002), p. 65.
6. Martin Diamond, "The American Idea of Equality: The View of the Founding," in *As Far as Republican Principles Will Admit: Essays by Martin Diamond,* ed. William A. Schambra (Washington, D.C.: AEI Press, 1992), pp. 248–49.
7. H. W. Brands, *The Strange Death of American Liberalism* (New Haven: Yale University Press, 2001), pp. 1–2.
8. Jacob Weisberg, *In Defense of Government: The Fall and Rise of Public Trust* (New York: Scribner, 1996), p. 40.
9. Lind, *The Next American Nation,* p. 38.
10. Robert A. Caro, *Master of the Senate: The Years of Lyndon Johnson* (New York: Knopf, 2002), p. 90.
11. Seymour Martin Lipset and Gary Marks, *It Didn't Happen Here: Why Socialism Failed in the United States* (New York: W. W. Norton, 2000), pp. 98–99.
12. John Parker, "Survey of America," *Economist,* November 8, 2003, p. 5.
13. Lipset and Marks, *It Didn't Happen Here,* p. 203.
14. Brands, *The Strange Death of American Liberalism,* pp. 24–25.
15. Lipset and Marks, *It Didn't Happen Here,* p. 286.
16. Garry Wills, *Under God: Religion and American Politics* (New York: Simon & Schuster, 1990), p. 370.

17. James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 127.
18. Parker, "Survey of America," p. 14.
19. See Robert Fogel, *The Fourth Great Awakening and the Future of Egalitarianism* (Chicago: University of Chicago Press, 1999).
20. Quoted in Seymour Martin Lipset, "American Exceptionalism Reaffirmed," in *Is America Different? A New Look at American Exceptionalism*, ed. Byron Shafer (Oxford: Clarendon Press, 1991), p. 25.
21. Ibid., p. 26.
22. Gene Healy, "What's Conservative About the Pledge of Allegiance?" Cato Institute, November 4, 2003, http://www.cato.org/dailys/11-04-03.html.
23. David M. Potter, *People of Plenty: Economic Abundance and the American Character* (Chicago: University of Chicago Press, 1954), p. 80.
24. H. G. Wells, *The Future in America* (New York: Harper and Brothers, 1906), pp. 105–6.
25. Lipset and Marks, *It Didn't Happen Here*, p. 27.
26. Potter, *People of Plenty*, p. 80.
27. Seymour Martin Lipset, *The First New Nation: The United States in Historical and Comparative Perspective* (London: Heinemann, 1963), p. 325.
28. John Micklethwait and Adrian Wooldridge, *The Company: A Short History of a Revolutionary Idea* (New York: Modern Library, 2003).
29. Brands, *The Strange Death of American Liberalism*, p. 139.
30. "In Praise of the Unspeakable," *Economist*, July 20, 2002.
31. Daniel J. Boorstin, *The Americans: The National Experience* (New York: Vintage Books, 1965), p. 91.
32. Ibid., p. 113.
33. Gallup poll results cited in "Live with TAE," *The American Enterprise*, October/November 2002, p. 17.
34. Andres Duany, quoted in "Live with TAE," *The American Enterprise*, October/November 2002, p. 18.
35. Kevin Phillips, *Post-Conservative America: People, Politics and Ideology in a Time of Crisis* (New York: Random House, 1982), p. 141.
36. T. R. Fehrenbach, *Lone Star: A History of Texas and the Texans*, updated edition, (New York: Da Capo, 2000), p. 716.
37. Ibid. p. 711.

Chapter 14: Heresy and Reformation

1. Paul Waugh, "New Rights for Gay Couples Divide Conservative Party," *The Independent*, December 7, 2002.
2. Irving Kristol, author of *Neo-Conservatism: The Autobiography of an Idea* (New York: Free Press, 1995), was one of the first people to point this out (pp. 377–78).
3. John Micklethwait is a (sadly unpaid) director of Policy Exchange, a right-of-center think tank.
4. E. J. Dionne, *Why Americans Hate Politics: The Death of the Democratic Process* (New York: Simon & Schuster, 1992), p. 173.
5. George H. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America Since 1945* (Wilmington, Del.: Intercollegiate Studies Institute, 1998), pp. 181–82.

6. Kristol, *Neo-Conservatism*, p. 25.
7. Quoted in J. Davis Hoeveler, *Watch on the Right: Conservative Intellectuals in the Reagan Era* (Madison: University of Wisconsin Press, 1991), pp. 54–55.
8. Nash, *The Conservative Intellectual Movement in America*, pp. xiv–xv.
9. Lou Cannon, *Governor Reagan: His Rise to Power* (New York: Public Affairs, 2003), p. 120.
10. Max Beloff, "Of Lords, Senators, and Plain Misters," *Encounter* 68 (April 1987), pp. 69–71; "An Exchange Between Max Beloff and Irving Kristol," *Encounter* 69 (June 1987), pp. 69–71.
11. Quoted in Simon Heffer, *Like the Roman: The Life of Enoch Powell* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1998), p. 961.
12. Quoted in Roger Scruton, *The Meaning of Conservatism* (London: 1998), p. xiii.
13. Quoted in Michael Bentley, *Lord Salisbury's World* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), p. 253.
14. Eustace Percy, *Some Memories* (London: Eyre & Spottiswoode, 1958), p. 105.
15. Michael Oakeshott, *Rationalism in Politics and Other Essays* (Indianapolis: Liberty Press, 1991), p. 411.
16. "What a Lot of Old Tosh—Lyrical Certainties from John Major?" *Independent on Sunday*, April 25, 1993. The phrase, incidentally, was lifted from George Orwell.
17. Lee Edwards, *The Power of Ideas: The Heritage Foundation at 25 Years* (Ottawa, Ill.: Jameson Books, 1997), p. 10.
18. Cannon, *Governor Reagan: His Rise to Power*, p. 120.
19. Oakeshott, *Rationalism in Politics*, p. 409.
20. Quoted in E. J. Dionne, *They Only Look Dead: Why Progressives Will Dominate the Next Political Era* (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 271.
21. George Will, *The New Season: A Spectator's Guide to the 1988 Election* (New York: Simon & Schuster, 1988), p. 61.
22. Kristol, *Neo-Conservatism*, p. 377.
23. George W. Bush, "A Distinctly American Internationalism," speech delivered at Ronald Reagan Library, Simi Valley, California, November 19, 1999.
24. "The Perils of Recycling," *Economist*, August 30, 2003.
25. From Angus Roxburgh, *Preachers of Hate: The Rise of the Far Right* (London: Gibson Square Books, 2002).
26. "Retirement Center Having Sexual Issues," *Dayton Daily News*, June 3, 2003.
27. Engels to Sorge, February 8, 1890, in *Selected Correspondence*, p. 467. Quoted in Seymour Martin Lipset and Gary Marks, eds., *It Didn't Happen Here: Why Socialism Failed in the United States* (New York: W. W. Norton, 2000), p. 21.

Chapter 15: The Melancholy Long Withdrawing Roar of Liberalism

1. Michael Barone and Richard Cohen, eds., *Almanac of American Politics, 2002* (Washington, D.C.: National Journal Group, 2001), p. 652.
2. Gary Jacobson, "Partisan Polarization in Presidential Support: The Presidential Connection," paper prepared for delivery at December 2002 Political Science Association meeting.
3. This is based on our analysis of 111 polls between January 2001 and September 2003.

4. Based on four polls in August and September 2003.
5. Jacob Weisberg, *In Defense of Government. The Fall and Rise of Public Trust* (New York: Scribner, 1996), p. 32.
6. H. W. Brands, *The Strange Death of American Liberalism* (New Haven: Yale University Press, 2001), p. ix.
7. "National Election Studies Guide to Public Opinion and Electoral Behavior," University of Michigan, 2002.
8. Michelle Goldberg, "Howard Dean's Israel Problem," *Salon.com,* September 23, 2003.
9. Matt Bai, "Dr. No and the Yes Men," *New York Times,* June 1, 2003.
10. CNN/*USA Today*/Gallup poll, January 9–11, 2004.
11. Harold Meyerson, "An Unexpected Powerhouse," *Washington Post,* January 29, 2004.
12. For the uninitiated, Nicholas Soames is a patrician Tory MP.
13. Laura Blumenfeld, "Hunter, Dreamer, Realist: Complexity Infuses Senator's Ambition," *Washington Post,* June 1, 2003.
14. Julian Glover, "Tories Win Election Spending Battle," *The Guardian,* December 17, 2001.
15. Kevin Phillips, "How Wealth Defines Power: The Politics of the New Gilded Age," *American Prospect,* May 1, 2003.
16. John Harwood and Sheilagh Murray, "The Constant Dividers in American Politics: Race and Abortion," *Wall Street Journal Europe,* December 19, 2002.
17. Bill Turque, *Inventing Al Gore* (New York: Houghton Mifflin, 2000), p. 94.
18. Al Gore and Tipper Gore, *Joined at the Heart* (New York: Henry Holt, 2002), p. 40.
19. Karen Arenson, "For Professor, a Town House Fit for a King," *New York Times,* November 20, 2002.
20. The best examination of Hollywood politics is Ronald Brownstein's *The Power and the Glitter: The Hollywood-Washington Connection* (New York: Pantheon, 1990).
21. Bill Cottrell, "Actor Compares 2000 Election to September 11," *Tallahassee Democrat,* March 8, 2003.

Conclusion: Living with the Right Nation

1. We accept that naming the Speaker as prime minister is a little bit of a stretch, because of the Speaker's partial neutrality. He is still, however, the de facto leader of his party there.
2. "Almost Green," *Economist,* December 13, 2003.
3. See, for example, James Pinkerton, "Is America Conservative?" *Tech Central Station,* December 2, 2003. http://remotefarm.techcentralstation.com/120203A.htm.
4. Sridar Pappu, "Off the Record," *New York Observer,* February 2, 2004.
5. David Brooks, "Americans Have Reasons to Be Grateful," *International Herald Tribune,* November 26, 2003.
6. Jonathan Chait, "Mad About You," *New Republic,* September 29, 2003.
7. Jack Huberman, *The Bush-Hater's Handbook: A Guide to the Most Appalling Presidency of the Past 100 Years* (New York: Nation Books, 2004).
8. Laura Blumenfeld, "Soros's Deep Pockets v. Bush," *Washington Post,* November 11, 2003.
9. CNN exit poll, 2000 presidential election, November 2000.

10. "America's Image Further Erodes, Europeans Want Weaker Ties," The Pew Research Center for the People and the Press, March 18, 2003.
11. *Sunday Times*/Yougov poll, conducted November 13–14, 2003.
12. Terry Teachout, "Republican Nation, Democratic Nation?" *Commentary*, January 2001.
13. Peter David: see "Over Here," *Economist*, November 22, 2003.
14. Blair speech to House of Commons, March 18, 2003.
15. "For Us or Against Us?" *Economist*, November 22, 2003.
16. Fareed Zakaria, "The Arrogant Empire," *Newsweek*, March 24, 2003.
17. Bill Emmott, "A Survey of America's Role in the World," *Economist*, June 29, 2002.
18. Blair speech to House of Commons, March 18, 2003.
19. Charles Grant, *Transatlantic Rift: How to Bring the Two Sides Together* (London: Centre for European Reform, 2003), p. 28.
20. John Parker, "Survey of America," *Economist*, November 8, 2003.
21. Ian Buruma, "Wielding the Moral Club," *Financial Times*, September 13, 2003.
22. The full text is: "My position is that, whatever the circumstances, France will vote no because it considers that this evening there are no grounds for waging war."
23. Kofi Annan, remarks to black American politicians, October 7, 2003.
24. Zakaria, "The Arrogant Empire."
25. Quoted in Zakaria, "The Arrogant Empire."
26. Arthur M. Schlesinger Jr., "Foreign Policy and the American Character," *Foreign Affairs*, Fall 1983.
27. Niall Ferguson, "Why America Outpaces Europe (Clue: The God Factor)," *New York Times*, June 8, 2003.
28. Ibid.

Afterword: How Conservatism Won

1. Gary Jacobson, University of California, San Diego, quoted in Adam Nagourney and Richard Stevenson, "Some See Risks for the GOP in New Strength," *New York Times*, January 24, 2005.
2. Poll by GlobeScan and the Program on International Policy Attitudes (PIPA) of the University of Maryland, May–August 2004.
3. Alan Wolfe, "What Gave Us the Right," *New York Times Book Review*, November 28, 2004.
4. John Judis and Ruy Teixeira, "Movement Interruptus," *The American Prospect*, January, 2005.
5. New York Times/CBS Poll October 28–30, 2004.
6. Matt Bai, "Who Lost Ohio," *New York Times Magazine*, November 21, 2004.
7. Ibid.
8. James Harding, "Into the Heart of Suburbia," *Financial Times*, January 15, 2005.